



الذين يحبون آثار السلف الصالح

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم



Abul Azayem
www.abulazayem.com



الفرقة الناجية

الذين يحبون آثار السلف الصالح

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩ - ١٩٣٧ ميلادية

كتاب

الفرقة الناجية

الذين يحبون آثار السلف الصالح

تأليف

صاحب الفضيلة العالم العامل بكتاب الله وسنة رسول الله
حجة الاسلام والمسكين في هذا العصر

محمد ماضي أبو العزائم

رئيس جماعة الطريقة السمرانية بوادي النيل
وامام الطريقة العزمية السانلية

البشرى بقوله تعالى :

(الذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم)
والبشرى بقوله (ص) برواية انس بن مالك في الحديث الطويل (واشوقاه
لاخوانى الذين لما يأتوا الى ان قال (ص) لمر بن الخطاب انتم اصحابى اخوانى
طوائف يجتمعون في آخر الزمان من بلدان شتى وألوان شتى يحبون سننى بعد مواتها
للعامل منهم اجر سبعين صديقا الى ان قال منكم يا عمر لانكم تجدون على الحق نصيرا
وهم لا يجدون على الحق نصيرا)

الفرقة الناجية - طبعة أولى ١٩٣٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ولى المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور، القائل سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^{الحجر ٩}، فما من حدث من الأحداث يحدث، أو بدعة من البدع
تنشر، إلا وهو جل جلاله يجدد للأمة أمر دينها، بمن يقيمهم في كل زمان لإقامة حججه، كما
قال أمير المؤمنين على عليه السلام (اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهراً مشهوراً أو
باطناً مستوراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته).

والصلاة والسلام على من ختم الله به النبوة، وبعثه للناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى
الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، وأسرج الله به عليه السلام سرجاً كثيرة في كل
زمان ومكان، كما قال عليه الصلاة والسلام: (العلماء سرج الدنيا ومصابيح الآخرة) صلى الله
عليه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

فيقول خديم الفقراء محمد ماضى أبو العزائم: أسأل الله أن يقيمى فى محابه ومراضيه، وأن
يعيذنى سبحانه من الشيطان الرجيم ومن خبت طبعى وسوء إمارتى بالسوء وشر جوارحى
المجترحة، آمين.

إنى لما رأيت آثار سلفنا الصالح قد خفيت على أهل عصرى، لكثرة اشتغالهم بما صار
ضرورياً الآن - مما كان كالياً قبل هذا العصر - ورأيت السالكين فى هذا العصر قد طالت
عليهم الشقة، واشتدت المشقة لشغل القلوب بما عليه أهل هذا الزمن من الميل إلى زخرف
الحياة الدنيا وزينتها، وبما اعترى سواد الأمة من الاختلاط بغير المسلمين فى المعاملات،
ومن تقليد الناس لمن حصلوا العلم ولم يعملوا به، أو عملوا من غير علم، وعلم بلا عمل
وبال وعمل بلا علم ضلال.

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمة تفترق إلى بضع وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية،
وهى التى تكون على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبقية الفرق هالك.

دعانى واجب وقتى أن أكتب رسالة أسميها " الفرقة الناجية " أجمع فيها ما كان عليه السلف الصالح فى تلاوة القرآن المجيد، وفى عبادة الله تعالى، وفى المعاملة وفى الأخلاق، ولا أخليها من الإشارة إلى ما كانوا عليه من أعمال القلوب، وقد كتبت فيها تفسيراً مسهباً لآية من كتاب الله جامعة للمقامات التى يناها المؤمن، وإنى أسأل الله تعالى أن يؤيدنى بروح منه، وأن ينفعنى بما أجمعه فيها من آثار سلفنا الصالح، وأن ينفع بها السالكين إلى الله تعالى.

وقد أمرت ولدى أحمد أن يطبع تلك الرسالة، لينفع الله أهل عصرى هذا بما كان لسلفهم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



الباب الأول

الفرقة الناجية

أنس وتخلق أهل الفرقة الناجية

أنهم بالقرآن المجيد

القرآن المجيد موردتهم الروى وروضهم الجنى وحوضهم المورود وكوثرهم المشهود وميزان أحوالهم ومرجع مقاماتهم، يسألونه قبل العمل فإن أذن سارعوا، وإن منع تركوا واستغفروا، فهو الإمام الناطق وإن صمت، لأنهم يسمعون عن رسول الله ﷺ، فهو الناطق لهم ﷺ على ألسنتهم به، فتسمعه آذان قلوبهم حضوراً ووجوداً من حضرة رسول الله ﷺ، وإن كان التالى له إنساناً آخر.

مراتب الهداية

ولا تعجب أيها السامع، فإن للرجال أعظم قسط من مراتب الهداية التى أشار الله تعالى إليها بقوله سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة ٦، فإن مراتب الهداية وإن جلت أنواعها عن الحصر أصولها عشرة.

أولها كلام الله مشافهة للعبد، كما حصل لرسول الله ﷺ، وكما حصل للكليم عليه الصلاة والسلام، ووحيه الذى يوحيه بنفسه لعبد، ووحيه سبحانه وتعالى بطريق الملك، ثم التحدث لقوله ﷺ: (إن منكم محدثين وإن عمر منهم)، ثم الإلهام بمراتبه وأقلها الرؤيا الصادقة التى هى بعد مقام الإسماع والفراسة والفهم.

ولما كان لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهم من مراتب الهداية مقامات خصوا بها - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام - واشترك الرجال معهم فى بقيتها، كان لأهل الفرقة الناجية قسطاً وافراً من الوحي بملك الإلهام، ولا تنزعج أيها السامع، فإن الله أوحى إلى أم موسى وأوحى إلى النحل وأوحى إلى الأرض، وهؤلاء يتجلى لهم الحق سبحانه فى كلامه

فتسمعه قلوبهم عنه سبحانه، ويبلغ بهم القرب إلى فهمه كما ورد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين سئل، فقال: أو فهم يعطاه عبد مؤمن في كتاب الله.

فلتألى القرآن حق تلاوته، قسط وافر من مشاهد أسراره وفهم حقائقه وذوق معانيه، وأهل الفرقة الناجية هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة ١١، وقفت بهم المهمة العلية على القرآن فأحلوا حلاله وحرموا حرامه، لو أمرهم بقتل أنفسهم لقتلوا، أو بمفارقة أمواتهم وأولادهم لفارقوها فرحين بالسمع والطاعة، تجلت لهم حقائق القرآن جليلة، وانبلجت لهم أنواره العلية ظاهرة، فلم تبق لهم همة إلا في القرآن ولا رغبة إلا فيه، أحبوا القرآن حباً ينبئ عن كمال حبهم للمتكلم سبحانه.

كاشفهم الله تعالى بمراده في كلامه وبحكمته في أحكامه، فكان سبحانه وتعالى أقرب إليهم من أنفسهم، وتجلي لهم سبحانه وتعالى في كلامه العزيز، حتى كان الرجل منهم إذا سئل: لم تعمل هذا؟ يقول: أمرني القرآن، ولم تترك هذا؟ يقول: نهاني القرآن، وإذا طلب منه أمر يقول: مه حتى أستشير القرآن، فيقرأ القرآن المرة والمرة حتى تتضح له حقيقة مآله وسر قصده، فيسارع للتنفيذ أو للترك.

أنسهم الله بجماله، وجذبهم إليه سبحانه بعامل محبته، فكانوا مع الله وهم في تلك الدار الدنيا، مع ما يحيط بهم من كثيف الحجب وظلمات الأهواء، فكيف بهم إذا فارقوها إلى دار القرب والشهود، ومنزلة الود والمواجهة. سبحان الله، هم الرجال حقاً وهم أئمة أهل الفرقة الناجية الذين بشر بهم رسول الله ﷺ بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله وهم عليه لا يضرهم من خالفهم)، وقوله ﷺ: (أبقيت فيكم ثقلين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وأهل بيته)، والمراد بأهل البيت حملة العلم بالله سبحانه وتعالى، الذين كاشفهم الله تعالى بظاهر القرآن وباطنه وحده ومطلعه، ممن جملهم الله بحقيقة النسب المحمدي الروحاني بدليل قوله ﷺ: (سلمان منا آل البيت)، وتبنيه ﷺ زياداً ﷺ، وقوله ﷺ: (أدخل الإسلام بلائاً في نسبي)، وخير الناس من اصطفاهم الله تعالى فجملهم بالنسبين، واختارهم لأن يكونوا ورثة لخاتم رسله وأنبيائه صلى الله عليه وعليهم.

أهل القرآن ومنزلتهم

فالفرقة الناجية هم أهل القرآن، وهم المعنيون بقوله ﷺ: (أهل القرآن أهل الله)، وهم أهل الله الصالحون الذين اتصل نسبهم بربهم باتصالهم بحبل الله المتين الذي هو القرآن المجيد، ومن ذاق حلاوة القرآن وصل إلى الله بأقوى سبب، وصلاً لا ينقطع بعده، فإن القرآن صفة من صفات الله، ومن اتصل بصفة من صفات الله تعالى اتصل بالله تعالى، لأنه بتلاوته لكلام الله - ملاحظاً أنوار المتكلم عاملاً بالقرآن - يتصف بالكلام، والله متصف بالكلام.

وأكمل ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى التخلق بأخلاقه، فإن الله سبحانه وتعالى يحب صفاته، ويجب مقتضياتها ظاهرة في عبده، وأحب عبد الله من جملة الله بما يجب من صفاته سبحانه، وجعله مظهراً لإشراق أنوار مقتضياته.

وتألى القرآن جملة الله تعالى بصفة من صفاته العلية، والعامل بالقرآن كمله الله تعالى بأنوار مقتضيات صفاته، فالله سبحانه وتعالى المعبود والتمسك بالقرآن هو العابد، والله جل جلاله الهادي والعبد هو المهتدي، والله سبحانه الموفق والعبد هو الموفق.

فكانه اتصف بالصفات المحبوبة لله تعالى "وهى الكلام" لتلاوته للفظه فهو متكلم في مكانته، لأن الكلام لا بد وأن يكون بصوت وحرف، وهناك جامعة تجمعها بربه ووصلة.

جمعنا على حبيب القلوب سابقات الحسنى بسر الغيوب

فهو متصف بأجمل صفة يحبها الله سبحانه وتعالى، والمتصف بصفة يحبها الله تعالى يحبه الله تعالى، وبعمله بالقرآن يكون عاملاً بعمل يحبه الله تعالى، والعامل بعمل يحبه الله تعالى محبوب لله تعالى.

فالقرآن ظهور الحب وحل القرب، ولا يوفق للعمل بالقرآن إلا من جذبته العناية واقتطعته المشيئة، واختطفته محبة الله السابقة له، وأهل الفرقة الناجية هم الذين يتعهدون القرآن

الكريم حق تعهده ويتلونه حق تلاوته، تبلغ بهم حالتهم في تلاوتهم أنهم يكاشفون بأنوار مجالستهم للمتكلم سبحانه، سر قوله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا جليس الذاكرين)، ولأجل أن تسارع يا أخى إلى التجمل بأحوالهم، أفصل لك ما كانوا عليه من تعهد القرآن المجيد، والقيام بتلاوته حق التلاوة.

تخلقهم رضى الله عنهم بالقرآن

يقرأ المؤمن القرآن متدبراً، فيتحقق منه في القسم الإلهى بالعلم النافع ذوقاً وحالاً، فإذا قرأ أخبار الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام نظر بعين فكرته وشهد ببصر عبرته ما أدى إلى غضب الله فاجتنبه، وما أدى إلى رضوان الله فجاهد نفسه أن يتخلق به، ثم نظر إلى ما كان عليه رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، من الصبر على ما لا تتحملة القوى البشرية، فيصبر عند المقتضيات على قدر منزلته، تشبهاً بهم صلوات الله وسلامه عليهم، وما كانوا عليه من الرحمة بالخلق والحرص والغضب لله عند مقتضاه، والغلظة على أعداء الله عند لزومها، فيجاهد نفسه أن يتشبه بهم عليهم أفضل الصلاة والسلام فيما يعتوره من الشؤون المناسبة لمكانته.

ثم يجتهد أن يبنه إخوته المؤمنين على الأعمال التى أوعده القرآن فاعليها بسوء العاقبة بالحكمة والموعظة، وينشط العاملين إخوته بما مدحه القرآن من الأعمال، ويمدحهم مدحاً يقوى به الإيمان فى قلوبهم ويشجعهم على ذلك، ثم يتدبر آياته فى الأحكام الشرعية، ويتحقق أن هذا الأمر من الله تعالى خاصاً به دون غيره، فيسارع إلى تنفيذ ما أمر الله به عند الاستطاعة، غير ناظر إلى غيره - ولو أهمل وترك - فإن المرء المؤمن أشفق الناس على نفسه وأرحم الناس بها، فيرى أنه أولى بنيل الخير الأبدى من كل الخلق.

ما يجب على تالى القرآن

فمتى فهم من القرآن أمراً بمعروف أو تنبيهاً بفعل خير أو ترغيباً فى عمل صالح سارع إليه كائناً ما كان وترك غيره، حتى إذا أعانه الله تعالى على فعل الخير واطمأن على نفسه

بالقيام به حق القيام، فالأولى له بعد ذلك أن يرشد إخوته المؤمنين. وإن أهمل القيام بما علم، وقام فنظر إلى إهمال الخلق ولم ينظر إلى عيوب نفسه وتقصيرها، كان ذلك سبباً في هلاك نفسه، وكان كالشمعة تضى لغيرها وتحترق، وإنما يقرأ المؤمن القرآن ليتجمل بطياله، ويتجمل من ظهوره المختوم ويتجمل بجماله، ويتناول من شهيه قوتاً لقلبه وغذاء لروحه وطعاماً لنفسه، ومن علامة الغفلة أن يقرأ الإنسان القرآن ثم يسخط على الناس، ويقول: هلك الناس وهو في الحقيقة الهالك. أنت أيها القارئ للقرآن عليك أن تسارع إلى نجاة نفسك وما عليك من غيرك، فإذا تجملت بجمال القرآن وأطاعتك نفسك كنت داعياً إلى الحق بعملك قبل قولك وبقولك قبل مالك، وأشرقت منك أنوار القرآن على أهل القرآن، فكنت بينهم كالشمس المشرقة يهتدون بنورك ويستضيئون بقولك وعملك.

الحضور الكلي لحامل القرآن

إذا سمعت ربك سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ البقرة ١٠٤، فاستجب لربك وقل: لبيك ربي وسعديك. وأصغ بأذن قلبك إلى ما يقوله ربك، فإن أمرك فسارع إلى السمع والطاعة، وانظر بعين بصيرتك إلى نفسك فأنت أرحم الناس بها، وقم فخلصها من خطاياها وهواها، وغض بصرك عن غيرك، فإنما أنت المنادى بنفسك من ربك، والمنادى هو الله لا أنت. فاستجب لله أولاً، ثم قم منادياً بنداء ربك، لأنك عملت بما أمر.

فإذا تلوت الآية التي فيها الثناء من الله والبشائر منه سبحانه، فتدبرها ببصر ناقد وقلب يفقه، وتمثل قدر الثناء من الله تعالى الذي تسارع إليه الأرواح الطاهرة، وجاهد نفسك كل المجاهدة أن تلتحق بمن أثنى الله عليهم، أو تتشبه بهم فتكون ممن أثنى الله عليهم وتشبه بهم. وأي مجد أعظم درجة من مجد من أثنى الله تعالى عليه. ثم تأمل في الأعمال التي بشر الله عليها عباده، ونافس في أن تكون ممن بشرهم الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ المطففين ٢٦، ثم تنبه عند تلاوته الآيات التي يذكر الله فيها النعيم الذي أعده لعباده المؤمنين، والخير الذي جعله عند ذكر الجنة ووصفها وبيان ما فيها مما تشتاق إليه النفوس، وتبذل لأجله كل نفيس وغال، فإذا قرأت تلك الآي فتمثل بخيالك تلك الملاذ

الجسمانية النفسانية، والنعم العظمى التي لا نصب بعدها ولا زوال لها، وتدبر ما تناله فيها من مشاهدة وجه ربك جل جلاله ونيل رضوانه، ومجاورة رسله الكرام وأهل محبته من صفوة عباده، واستسهل كل ما يوصل إليها في نظرك، وانظر إليه حقيراً بالنسبة لها ولو كان في ذلك بذل المهج - فضلاً عن الأولاد والأموال - فإن نفساً في الجنة خير من الدهر كله في أكمل نعيم الدنيا. وكيف لا... ومهما كمل نعيم الدنيا فذكر الموت ينغص، وكل لذة تنقلب ألماً إذا تذكر الإنسان سوء عاقبتها، وكل ما رغبت نفسك فيه فهو مشوب بالأوصاب والبلايا التي ينالها الإنسان في جمعه، وما يقتضيه جمعه من ضرر الغير. فشتان بين نعيم مقيم في جوار رب العالمين وفي أمانه ورضوانه الأكبر، وبين ما لا ينال إلا بالمضار والأوصاب، ولا دوام له وعاقبته العذاب، لعلك إذا تخيلت تلك المعانى في تلاوته ظهرت لك الجنة جلية فشهدت ما فيها حتى كأنك على أبوابها، فقبحت في عينك ملاذك، واسترذلت حظوظك، واستقبحت آمالك في الدنيا، واستنكفت أن تبيع النعيم الأبدى ورضوان الرب العلى بإرادة عاجل كله وصب يزول عن طالبه أو يزول هو عنه.

وليس المؤمن بكامل الإيمان إن لم يتحقق أنه يمشى على الصراط الذى هو أحد من السيف وأدق من الشعرة، وأن الجنة في نهايته فيسارع إليها، وأن الحطمة تحت قدميه فيخشى أن ينكب فيها، وأن أعماله في الميزان فيحب أن يثقل بها. ذلك لأن القرآن الشريف كرر تلك المعانى على المؤمن لتقوى الذكرى بها، فتكون ذكراً فلا تنسى، ثم يتصورها الخيال فتنتطبع فيه بأكمل جمالاتها، فلا تغيب عن النفس طرفة عين، وقد سأل عليه السلام سيدنا عمران بن حصين فقال له: (كيف أصبحت؟) فقال: أصبحت يا رسول الله كأنى أرى عرش ربي وكرسيه، فقال له عليه السلام: (عرفت فالزم). فالؤمن إذا قرأ آيات البشائر بالنعيم والرضوان بحث عن أهلها الذين يتفضل الله عليهم بهذا الفضل العظيم، وفتش عن صفاتهم التي أثنى الله بها عليهم فسارع إليها، ومسارعتة إليها هي مسارعة إلى المغفرة والجنة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٥١ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ٥٢ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ٥٣ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ يَصِرْهُوَ عَلَىٰ

مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مِّمَّكَرًا مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٤﴾ آل عمران ١٣٣-١٣٦، فسارعوا إلى تلك الصفات التي ذكرها الله تعالى، مسارعة من يعلم قدر النعمة التي ينالها، والفضل العظيم الذي يفوز به، والخير العظيم الذي يحظى به من الله تعالى، ويكون في عمله هذا كأنه في أعلى الجنة تصديقاً لوعده ربه، وتلذذاً بتوفيق الله له للعمل بما يحبه، فيكون كأنه في جنتين، جنة روحانية وهى بهجة نفسه بالتوفيق والعناية والهداية، وجنة جسمانية وهى تلذذه بطاعة ربه في تلك الدار الدنيا، ويكون له جنتان يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن ٤٦، وهذا ما ينكشف لك يا أخى عند تلاوة آيات البشائر والوعيد.

فإذا أنت قرأت آيات الوعيد والعقاب اقشعر جلدك، وظهرت لك جهنم بما فيها كما أخبر الله تعالى ظهوراً يشيب لهوله الطفل، ونار المحجاب عن الله بسبب الأخلاق والعقائد الباطلة التي تكب المرء على أم رأسه في نار الغضب، وهى أشد من نار جهنم لأنها المؤدية إليها. وتخيلت أن من فعل تلك الأعمال عُذب بنارين، نار نفسانية ونار جسمانية. أما النار النفسانية فما يعلوه من الحزن والأسف، وأما النار الجسمانية فيما ابتلى به من معصية الله، ويرى المحميم أمامه مكاشفة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٦٥﴾ لَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾ التكاثر ٦٥-٦٥، فتصور يا أخى أعاذنى الله وإياك من الأعمال التي توجب غضب الله وسخطه وأليم العذاب يوم القيامة الذي توعده به الله المخالفين لوصاياه، وارسمها على خيالك عند قراءة الآيات المقتضية لذلك، ثم ابحث عن الأعمال والصفات والعقائد والأحوال التي تؤدى إلى هذا العذاب الأليم، فاجعل بينها وبينك كما بين المشرق والمغرب، واجعل لك حصناً منيعاً من سنة مولانا رسول الله ﷺ، ووقاية من العمل بهدى السلف الصالح، وخشية من ربك جل جلاله يحفظك الله بها من الوقوع في مخالفته جل جلاله.

وكن يا أخى كالرجل الجائع الذي إذا ذكر له الطعام تنبعت شهوة الجوع في معدته لتخيله طعمه وريحه، فإذا ذكرت آيات البشائر والنعيم تنبعت الرغبة في قلبك وتباعدت عما يوجب الحرمان منها.

كرر الله تعالى قصص الأنبياء وأخبار الجبابرة وأحاديث المؤمنين في كتابه، لتتجمل عند التلاوة بكل تلك الأخلاق النبوية، وتتباعد عن صفات الجبابرة الطغاة، وتتشبه بمن أثنى الله عليهم ووعدهم الخير المقيم.

كن أنت يا أخى فى التلاوة المأمور والمنادى حتى تسمع كلام ربك من ربك جل جلاله، وتتلقاه من حضرة رسول الله ﷺ، فإذا قال ربك: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ البقرة ٤٣، قلت: لبيك وسعديك سمعاً وطاعة لك يا ربى. وإذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائة ٩٠، انكشفت لك حقيقة نجاستها، وصارت أمامك أنتن من الجيفة وأشدّ ألماً من النار، وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله. أعنى اللهم على ترك ما تكره والعمل بما تحب. فتكون كأنك تخاطب ربك ويخاطبك ويتكلم معك وتتكلم معه، ولا تقرأه كما ترجعه الآلة الحديدية، وكما ترجعه الأمكنة الخالية بصدى الصوت فيحرم القارئ مشاهدة أنوار كتاب الله تعالى، ويكون كأنه لم يقرأه أبداً.

ما أحب أن يكون عليه إخوانى فى التلاوة

أحب أن تكون التلاوة فى المصحف - ولو لمحافظة - ليكون عاملاً بعينه ولسانه وقلبه وأذنه ويده، وأن يكون على طهارة مستقبل القبلة، وأحب أوقاته إلى بعد ارتفاع الشمس وبعد العصر وفى جوف الليل إلى الفجر الصادق، وأن يكون التالى مستحضراً أنه المخاطب بالأمر أو النهى، أو الموعظة والعبرة ملاحظاً فى ذلك أن التالى آخر حسب منزلته من المراقبة إما أن يكون المرشد أو رسول الله ﷺ، حتى يتحقق بمقام العبد الكامل فيسمعه عن الحق جل جلاله، ويراقب فى تلاوته أن المطالب هو نفسه لا غيره، ويشهد ما شنع الله به على أعدائه، فيتصور أن الله قد يشنع على من يعمل هذا العمل، وربما يكون حصل منه فيندم ويتوب، ويرجع إلى الله ويبدل تلك السيئة بحسنة، إذا سمع الله يمدح قوماً يثنى عليهم بصفاتهم، فإن كان متصفاً بتلك الصفات فرح، وسأل الله سبحانه أن يقبل منه تلك الأعمال غير ساكن إلى نفسه ولا إلى عمله، بل يشكر الله تعالى الذى وفقه لعمل ما يحبه.

وأحب أن تكون تلاوة القرآن ملاحظاً فيها معان ثلاثة:

- ١ بهجة بتلاوة كلام ربه جل جلاله.
- ٢ والعزم الأكيد على التباعد عما نهى عنه القرآن، والمصارعة إلى عمل ما أقر به.
- ٣ أن يشهد عظمة وجلال وكبرياء وعزة المتكلم سبحانه ظاهرة جلية لعيون سره، فيكون تالياً لكتاب الله متلقياً عنه سبحانه، متشرفاً بمعيته جل جلاله.

ويلزم لتلك المعانى الثلاثة أصل هو أس تلك المعانى كلها، وهو أن يرتله مخلصاً لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر إلا ابتغاء وجه الله العظيم، فإن كان له مطلب أو حاجة سأل الله تعالى بعد تلاوته حاجته، فإن الله تعالى أكرم من أن يتقرب إليه عبده بكلامه ويدعوه فيرده من غير أن يستجيب له، وكذلك كان أصحاب رسول الله وتابعوهم رضى الله عنهم أجمعين، ومن لم يجد فليتواجد.

ومدارسة القرآن الكريم مع أخ معين أحب إلى، فإذا واجهك الله حال التلاوة بشئ من أسرار القرآن فسارع إلى العمل به أو قيده بالكتابة، والله سبحانه أسأل أن يتجلى لنا في كلامه المقدس حتى نكون من أهل القرآن العاملين به، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

أعمال الغافلين

معلوم أن الجلوس لسماع القرآن من حافظ يتلوه من السنة، وقد سمعه ﷺ من أبى موسى الأشعري رضي الله عنه، وعجب أبو موسى عندما طلب منه رسول الله ﷺ، فقال: (أسمعك يا رسول الله وعليك نزل؟ فقال ﷺ: إني أحب أن أسمع من غيري). ولا إنكار على من اجتمعوا وبينهم حافظ يسمعهم كلام الله تعالى، إذا استحضروا بقلوبهم أنهم يسمعون كلام الله جل جلاله، وأصغوا إليه إصغاء يليق بآداب من يسمع كلام الله تعالى، ملاحظين ما قدمته.

ولكن المنكر ما أبدعه أهل الغفلة من اجتماعهم على قارئ يسمعون صوته ويجهلون قدر الخطاب، فتراهم يسمعون آيات الوعيد للعصاة والزجر عن أفعال الشر والتشجيع على فاعل الفحشاء مما تذوب له الأكباد وتتشعر له الجلود فيصيحون مبتهجين بلذة النغم غافلين عن معنى الخطاب، وإذا قرأ القرآن أمامهم من لا يحسن التوقيع أو كان ردى الصوت صرفوا وجوههم عنه كأنهم لم يسمعوا كلام الله، وذلك من غفلة قلوبهم وجهلهم بقدر القرآن الشريف، وإن ذلك لمن أكبر المنكرات.

عمل الناس في أحزانهم وأفراحهم

لم يكن في عهد السلف الصالح الاجتماع في الأحزان على قارئ ولا في الأفراح، وهي بدعة ولكن لا بد لوضعها من سر، والغاية تبرر الوسيلة، فإن كان المراد بهذا العمل تنبيه القلب بكلام الله تعالى ليصبر المصاب، ويفوز أمره إلى الله، ويرضى بقضاء الله فهي بدعة حسنة، والبدعة الحسنة في حكم المرغب فيه، وقد تكون مؤكدة لمحو البدعة المضلة، فإن المصابين قد يجتمع عليهم الناس فيعملون أعمالاً تغضب الله وتعذب الميت، فإذا سمعوا كلام الله لانت قلوبهم وخشعت من خشية الله، ورضوا عن الله وكفى بالقرآن واعظاً، وكذلك في الأفراح فإن الناس يتغالون في أفراحهم، وقد يرتكبون الآثام لما يعرو القلب عند نشوة الفرح، من الغفلة الموجبة للفخر والرياء والخروج عن الاعتدال، فإذا جلس بينهم قارئ للقرآن وأصغوا إليه اقشعرت جلودهم، وتحققوا أن الدنيا دار فانية وأن اللذة الحقيقية في الجنة، فامتنعوا عن الإفراط والتفريط. هذا العمل إن كانت الغاية منه ما قررت، فهو وإن لم يعمل به في السلف الصالح فهو في زماننا هذا يكاد أن يكون مؤكداً، فإن كانت الغاية منه الفخر والرياء وسماع الأصوات والألحان، فهو المنكر حقاً ولا يليق بمؤمن أن يعمل منكراً في أحزانه وأفراحه، فإن المؤمن في أحزانه مضطر إلى الله تعالى، وفي وقت أفراحه مُنعم عليه، يجب عليه أن يشكر الله ليديم له الفرح، فإن عصى الله في حزنه وعصى الله في فرحه، عرض نفسه للبلاء.

القراءة في الأفراح والأحزان

إذا تحققوا بأن قراءتهم لتذكير عباد الله ويقظة قلوبهم وإعانتهم على الصبر عند البلاء

والشكر عند الرخاء فهم دعاة إلى الخير، إلا أنه يجب عليهم أن ينووا بالقراءة التقرب إلى الله تعالى، فإذا أعطاهم الله رزقاً على يد من دعاهم للقراءة قبلوه بصفة صدقة حتى يكون لهم أجر، ولمن ساعدهم الله على يده أجر. فإن لم تكن لهم نية، أو نووا بذلك سرور الناس لسلب أموالهم، كانت بدعة منكرة يَأثم بها التالى والسامع الذى لم تكن له نية.

قراءة المولد والمدائح النبوية

هؤلاء وإن لم تكن لهم نية فإن عملهم ذلك من المباح إلا إذا (شوش) على معلم، أو أدى إلى ترك واجب شرعى، فإن سلم من هذا فهو مفيد جداً خصوصاً فى الأفراح والأحزان، وفى المجتمعات خارج المساجد، ولا ينبغى أن يكون فى المساجد خصوصاً فى أوقات تأدية الصلوات أو دراسة العلم، فإن قراءة المولد الشريف ومُداح رسول الله ﷺ، يجددون للأمة شوقاً إلى رسول الله ﷺ وحباً فيه صلوات الله وسلامه عليه، وكم أحدث هؤلاء فى قلوب العامة أثراً حسناً أدى إلى الإقبال على الله والشوق إلى رسول الله ﷺ، ولم ينتشر هذا الأمر فى الأمة إلا بعد أن اختفت السنة الحكيمة وظهرت السنة الفساد من أهل الجدل والاختلاف، فكان قراءة المولد الشريف كمجددين نشوة للقلوب، ولكن كانت السنة الحكيمة فى زمن السلف الصالح وفى ظهور الأفراد المحبوبين لله تملأ القلوب يقيناً ونوراً وتجذب النفوس إلى الحق.

ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن

يستحب للمريد أن يختم القرآن فى كل أسبوع ختمتين؛ ختمة بالنهار وأخرى بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الإثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما، وختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل، فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يُصبح، وتصلى عليه إن كانت نهاراً حتى يُمسي، فهذان الوقتان يستوعبان كلية الليل والنهار، وفى الخبر: لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث. وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل سبع، وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة، عن يحيى بن الحارث الدينارى عن القاسم بن عبد الرحمن

قال: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى ﴿طَسَمَ﴾ القصص ١، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ﴿صَّ﴾ ص ١، وليلة الأربعاء بـ﴿تَنْزِيلُ﴾ الزمر ١، إلى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الرحمن ١، ويختتم ليلة الخميس. وكذلك كان زيد بن ثابت وأبى يختمان القرآن في كل سبع، وعن ابن مسعود أنه قرأ القرآن في سبع ليال فكان يقرأ في كل ليلة سبعة، إلا أن ترتيب مصحفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره، وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن في كل يوم وليلة.

ليس كل قارئ للقرآن مكاشف بمشاهدته وأسراره

اعلم أنه لا يجد فهم القرآن كفهم الذي يكاشف بمشاهدته، ويستظهر من الملكوت قدره، عبد فيه أدنى بدعة أو مصر على ذنب، أو عبد في قلبه كبر أو مقارف لهوى قد استكن في قلبه أو محب للدنيا، أو عبد غير متحقق بالإيمان أو ضعيف اليقين، ولا من هو واقف عند مبناه غافل عن معناه، ولا عبد يتتبع حروفه وأخباره، ولا ناظر إلى قول مفسر ساكن إلى علمه الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاض بمذاهب أهل العربية واللغة في باطن الخطاب، أو في سر ﴿الْمَرْ﴾ الرعد ١، وغيرها من رموز القرآن الشريف. فهؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم مردودون إلى ما في علومهم، موقوفون مع ما تقرر في عقولهم، مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم، وهؤلاء مشركون بعقولهم وبعلمهم عند الموحدين، وهذا داخل في الشرك الخفي، قال محمد بن علي بن سنانة: إذا كان معقوله وعلمه عن عقل غير كامل، فإن العقل الكامل ما عقل عن الله عز وجل، وفهم حكمه و كلامه، وقد قال رسول الله ﷺ في صفة كمال العقل: (العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه)، وفي الخبر: أكثر منافقى أمتى قُرأوها. فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى والنظر إلى غيره، لا نفاق الشرك والإنكار لقدرة الله عز وجل، وهذا لا ينتقل عن التوحيد، ولكنه لا ينتقل إلى مقام المزيد.

صفات القارئ المكاشف بأسرار القرآن ومشاهدته

إذا كان العبد ملقياً السمع بين يدي سميعة مصغياً إلى سر كلامه، شهيد القلب لمعاني

صفات شهيدته، ناظراً إلى قدرته، تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، متبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم واقفاً على حضوره، مفتقراً إلى الفهم بحال مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم وتمكين، سمع فصل الخطاب وشهد علم غيب الجواب.

وأفضل القراءة الترتيل، لأنه يجمع الأمر والندب، وفيه التدبير والتذكير، عن سيدنا على كرم الله وجهه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لا تدبر فيها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها و أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة. وروى عنه أيضاً: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذراً. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة فكان قيامهما واحداً، إلا أن أحدهما قرأ البقرة والآخر قرأ القرآن كله، فقال: هما فى الأجر سواء لأن قيامهما كان واحداً، وأفضل الترتيل والتدبر فى القرآن ما كان فى صلاة، وقال بعضهم: إنى لأفتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر، وما قضيت.

* * *

الفصل الثانى

لم يزور أهل الفرقة الناجية قبوراً ولياء الله الصالحين؟

زيارة القبور

تقرر أن زيارة القبور سنة، وكان قد نهى رسول الله ﷺ عنها فى صدر الإسلام قبل أن تشرق أنوار الحق جلية على القلوب، وتقرير أصول الإسلام، فلما أن انعقدت كل القلوب على الحق، وظهر أن الخلق جميعاً عبيد مقهورون وعباد مربوبون، وعلم كل مسلم أن كل مسلم فى حاجة إلى رحمة الله وعفوه وفضله وكرمه، اتسع الأمر بعد التشديد، وأمرنا رسول الله ﷺ بزيارة القبور، وزارها صلوات الله وسلامه عليه، وكان فى كل سنة يزور شهداء بدر مرة أو مرتين، ويزور شهداء أحد فى كل جمعة، وصار أنس السالكين فى المقابر، فكان سيدنا عبد

الله بن عمر رضى الله عنها يأخذ المصحف ويخرج إلى القبور فيجلس بينها، وصارت سنة أهل السلوك بعده، وهو إمامهم رضي الله عنه في هذا.

تفاوت سكان القبور

لما كان سكان القبور يتفاوتون، فمنهم من هو في حاجة إلى الاستغفار له، ومنهم من هو مقبول الشفاعة عند الله مرضى القول عنده كما قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه ١٠٩، ونحن لا اطلاع لنا على الغيب، ولكن الأحوال والأعمال وألسنة الخلق الأدلة على أن العبد مرضى القول عند الله، مقبول الشفاعة لديه سبحانه وتعالى، فإذا نحن زُرنا المقابر فعلياً أن نستغفر وندعو لمن نظن أنه في حاجة إلى ذلك، ونسأل الله تعالى عند من نعتقد أنهم مقبولون عند الله، قد رضى عنهم ورضى لهم قولاً.

والسنة أن نتذكر الموت عند زيارة القبور، ونتذكر سكراته القوية وآلام نزع الروح وجهل العاقبة، فتصغر في عيوننا الدنيا وتقبح لذتها، ويزول ما في نفوسنا من اللبس والرعونات، فنعمل للموت ونستعد للقاءه، ونلتفت عن الطمع في الدنيا والغرور بزيتها الفانية.

زيارة قبور الأنبياء والأولياء والرد على منكرها

شنع بعض من لا علم لهم بالسنة على زائري قبور أولياء الله بلا حكمة ولا قصد لإزالة المنكر؛ بل بعناد أدى إلى ضياع الحق، وعناد المنكر والسماع، والحقيقة أن زيارة القبور سنة، وأن الدعاء عند قبور الصالحين الذين يظن الإنسان فيهم أنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه ورضى قولهم سنة عملية، دليل ذلك ما ورد في حديث الإسراء، أن رسول الله ﷺ نزل عند بيت لحم، وعند قبر سيدنا موسى عليه السلام، ووقف فصلى، أى دعا، وزار عليه السلام القبور، وخرج لزيارة شهداء بدر ووقف فدعا، وورد أنه ﷺ صلى على قبر رجل من الصحابة. والدعاء المأثور لزيارة القبور هو: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم رب هذه الأرواح الباقية والأجساد البالية أدخل عليها روحاً منك وسلاماً مني) هذا

وإن الأرواح لتنتفع بزيارة أهل الصلاح والتقوى، وتنزل الرحمات على أهل القبور، ويفوز الزائر بمغفرة الله إذا زار ولياً من أولياء الله تعالى في قبره، فإن أولياء الله ليسوا موتى بل هم أحياء عند ربهم يرزقون، لأنهم ماتوا بالله والله قبل موته عزرائيل، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢، ومن أحياء الله لا يموت أبداً، وإنما ينتقل إلى دار البرزخ يرزق فيها بتجدد الأعمال الصالحات التي سنّها في حياته الدنيا، والخيرات التي يكتبها الله له بالعلم الذي أبقاه للمسلمين، والنعمة التي تتوالى عليه من الله بما أجراه من الصدقات الباقية، فهذا حى عند ربه، له رزق بقدر أرزاق من يعمل بإرشاده، فقد يكونون أكثر المسلمين، فيكون وهو ميت في قبره له أجر كأجر الأحياء جميعاً لا ينقص ذلك شيئاً من أجورهم، فهل مثل هذا ميت! ومن ظن غير ذلك فقد جهل، هذا حى عند ربه يرزق، ومن زاره فاز من الله بخير، وسمع الله دعاءه واستجاب له. هذا إذا كان الزائر كامل الإيمان متحققاً بمشاهد التوحيد، أما إن كان جاهلاً فالأولى - بدل الإنكار عليه - أن نعلمه آداب الزيارة، ونفهمه أسرار التوحيد، ونترك التشنيع عليه لأنه مؤمن مسلم والمسلم قابل للتعلم، إلا إذا كان ممن يعمل تلك الأعمال لعاجل الحياة الدنيا، وهم قطاع طريق الله ولا يخفون على المؤمنين.

زيارة قبور الأنبياء والأولياء مرغب فيها

زيارة قبور أولياء الله الذين رضى لهم قولاً مرغب فيها، والدعاء عند قبورهم مستجاب، والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وبالعمل بكتابه، والعمل بسنة نبيه ﷺ، وبرسوله ﷺ، وبأوليائه المقربين مما يدل على مزيد إيمان المؤمن وتواضعه، وسوء ظنه بنفسه واعتقاده أنه صغير في نظره، وأن المقام الإلهى على أن يكون مثل هذا الداعى مقبولاً لديه سبحانه، فيتشفع بغيره ممن اجتباهم الله وأحبهم واصطفاهم واختارهم، قال الله تعالى مخبراً عن ملائكته: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الأسماء ٥٧، وقال سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة ٣٥، وقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَّئَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ الفرقان ٥٩.

وكم من حاجة قضاها الله تعالى، وكربة فرجها الله تعالى، وشدة أزأها الله تعالى، وفاقة

أبدلها الله يسراً، ومرض أبدله بعافية بدعاء أوليائه، أو بزيارة قبورهم ودعاء الله فيها.

أسباب إنكار الجاهلين بالسنة لزيارة القبور

وإنما أنكر الجاهل بالسنة زيارة القبور، لجهله باليقين الحاصل في قلوب عامة المسلمين من كمال التوحيد، واعتقاد أن الضار والنافع هو الله، ومتى انعقد القلب على كمال الإيمان وحقيقة التوحيد؛ فالأمر واسع لا شبهة فيه، وهل يعتقد مسلم أن مسلماً يأكل ويشرب ويتغوط ويمرض ويموت ينفع أو يضر! ولكن الله رجلاً أحبهم وأحب لأجلهم من أحبهم، وقد أثنى الله تعالى على أنصار نبيه ﷺ فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الحشر، ٩، فحُب المؤمن للمؤمن دليل على كمال محبة الله، وعناية المؤمن بالمؤمن دليل على حسن الثقة بالله، فإذا كان المسلمون لا يحبون أولياء الله أحياءً وأمواتاً، فمن يحبون؟ أيجبون الملوك والأغنياء؟ لعل المنكرين يحبون الملوك والأغنياء، فإذا ماتوا تركوهم، ويعتقدون أن ذلك هو الحق... لا. ولكننا والحمد لله نحب أولياء الله ونقتدى بهم في حياتهم، ونبذل ما في وسعنا لإكرامهم ابتغاء مرضاة الله، فإذا ماتوا دام حبنا وكثر دعاؤنا لهم وزيارتنا لقبورهم.

الرسول وخلفاؤه يزورون قباء وشهداء أحد

كان ﷺ يزور مسجد قباء كل يوم سبت، ويزور شهداء أحد، وعمل بسنته بعده أبو بكر وعمر وغيرهما رضی الله عنهم، وقد أمرنا الله تعالى بشكر الوالدين، وأمرنا رسول الله ﷺ بالصلاة عليهما بعد موتها في حديث حسن، والعلماء أنفع من الوالدين، ومن برهم المسارعة لما فيه نفع المسلمين من إحياء ذكرهم ونشر علومهم وإدامة الدعاء لله أن يلحقنا بهم، أو يجعلنا من المتشبهين بهم، فإنما أحببناهم حباً لله ورسوله، ولما جملهم الله به من جمال حبه سبحانه، ومعرفته جل جلاله، والمحافظة على العمل بكتابه وسنة نبيه، وما وهب سبحانه لهم من الحكمة والبيان، فهم نور رسول الله ﷺ المشرق على أمته، نحبهم أحياءً وأمواتاً، ونفديهم بأنفسنا وأموالنا، ولا نصغى لما يقوله الجاهل لما تفضل الله به علينا على ألسنتهم وأيديهم ﷺ، ونفعلنا بهم. هذا مذهبي، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدور أخوتي المؤمنين للعمل به، حتى يكون أولياء الله محبوبين، ومتى كان أولياء الله محبوبين سارع

المسلمون إلى الاقتداء بهديهم، والعمل بما كانوا عليه، وتلقى علومهم النافعة، فهم كما قال ﷺ: (سرج الدنيا ومصباح الآخرة) فتراهم - وهم أحياء بين الناس - مجهولين غرباء، فإذا انتقلوا إلى الدار الآخرة أحيا الله ذكرهم بين عباده الصالحين، وسارع عباد الله في تأسيس المساجد، والصدقات، وأوقفوا الأعيان على مساجدهم كل ذلك من إكرام الله لهم في الدنيا، فكيف يكون إكرام الله لهم في الآخرة؟ وما من بلد من بلاد الإسلام إلا وبها مسجد باسمهم، أو زاوية بها فقراء المسلمين الذين أقعدهم الجهد يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون. فهم رضى الله عنهم في حياتهم نور وبركة للمسلمين، وبعد موتهم كنوز وخيرات لفقراء المسلمين، يزورهم منقبض الصدر فيشرح الله صدره، والعاجز عن التكسب فيرزقه الله، وكم من فقراء لا عمل لهم إلا ما يجريه الله لهم على أيدي أهل العقيدة الإيمانية من أغنياء المسلمين. أكتب هذا، وأنا أستغفر الله منه إن كان عن حظ وهوى، غير أنى - والحمد لله - أعتقد أنه مقصود به وجه الله تعالى، والخير لأخوتى المؤمنين جميعاً، وهو رأى رأيت أعتقد فى نفسى أنه الحق، اللهم إن كان حقاً فانفعنى به وانفع به أخوتى المؤمنين، وإن كان غير ذلك فأسألك أن تحفظنى وأخوتى المؤمنين من عجلتى الفطرية، وإعجابى برأى، واتباع هواى، إنك غفور رحيم تواب كريم.



الباب الثاني

صفات أهل الفرقة الناجية

أجمل صفاتهم التي أتى الله بها عليهم محصورة في قوله تعالى: ﴿التَّيْبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّخِيحُونَ الرَّكِعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ التوبة ١١٢، وهذه الآية الشريفة فصلت لنا إجمال ما كملهم الله تعالى به من المقامات والأحوال، ومجموع تلك الصفات كلها لكل واحد منهم.

فإن المؤمن الكامل الذي جملة الله بما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه؛ لا يكون من أهل الفرقة الناجية إلا إذا جمع الله له تلك المعاني ويسرها له، وسهلها عليه، ولكل صفة من تلك الصفات جمل من العلم وتفصيل من الحكمة ومثل من البيان، ليكون مرید الله على بصيرة من أمره، ناهجاً على الصراط المستقيم، مهتدياً سبيل الله.

ورغبة في نيلك الخير - أيها السالك المخلص - أشرح لك جملاً من معاني تلك الصفات التي أتى الله بها على عباده المخلصين، مرتباً لها كما رتبها الله تعالى، وإن كان سبق لي أني فصلت في قسم علوم اليقين من كتاب "أصول الوصول" مقامات أهل اليقين وبينت بعض أحوالهم، ولكنني في هذه الرسالة سأبين ما لاغنى للمريد عنه، مما لا يكون للإنسان من الفرقة الناجية إلا به، فأشرح أولاً التوبة فالتائبين، ثم العبادة فالعابدين، ثم الحمد فالحامدين، ثم السياحة فالسائحين، ثم الركوع فالراكعين، ثم السجود فالساجدين، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر. ثم أبين البشائر التي أعدها الله تعالى للمؤمنين.

والله أسأل أن يشرح صدرى لما يجب من البيان النافع والعلم الرافع وأن يؤيدنا بروح منه، إنه مجيب الدعاء.



الفصل الأول

أهل الفرقة الناجية هم التائبون التوبة عند أهل الفرقة الناجية

الإقلاع عن الباطل قولاً وعملاً واعتقاداً، والرجوع إلى الحق قولاً وعملاً واعتقاداً، ولا تقشعر الجلود ولا تميل القلوب للتوبة إلا بولاية من الله سبحانه وتعالى للعبد، وعلم يفضل به عليه يكشف له به الستار عن الباطل وقبحه، وعن الحق والخير الذي ينال به الفوز، حتى تحل الرغبة فيه محل الرغبة عنه، والمصارعة إلى الخير محل المصارعة إلى الباطل، وعندها يتمثل للسالك قبح عمله، وسوء فعله، وما فاته من الخير العظيم في زمان معصيته وما ارتكبه من الإثم العظيم وتعديه حدود ربه سبحانه وتعالى، ويتمثل ما كان يناله من الخير، وما اكتسبه من الآثام، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويخرج بالعزم من عوائده ومألوفه، ومخالفة أمر ربه، وتضيق عليه نفسه، فيفر منها إلى الله تعالى بالحزن والندم الشديدين، حتى تهب عليه نسائم وسعة الفضل العظيم وشامل الرحمة ونور غافر الذنب وقابل التوب، فتتروح نفسه.

فالتوبة هي أولاً أن يتوب الله على العبد بما يرد عليه منه سبحانه وتعالى من نور العلم الذي يشعر قلبه بفضل الله عليه، وحسن عنايته به في الدنيا والآخرة، ويشهده سوء صنيعه مع الله سبحانه وتعالى، وظلمه لنفسه بمخالفته أمره سبحانه، فيقبل تائباً على ربه بتوفيقه، وإذا لم تسبق التوبة من الله للعبد فضلاً منه وكرماً لم يستطع العبد أن يتوب، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فالتوبة عن الكشف والوجد دليل عناية الله بالعبد، وبرهان على إقباله سبحانه وتعالى عليه.

والتائبون قليلون لأن أهل محبة الله قليلون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، ودليل ما قررت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء ١٧، فقوله: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ

بِجَهْلَةٍ ﴿﴾ دليل ما قررته أن فاعل السيئات جاهل ولو علم أنها ذنوب لجهله بعظمة من خالفه، وعقوبته عليها، ولا قبول لتوبته ما دام جاهلاً هذا الجهل، حتى يرد عليه العلم من الله الكاشف له حقيقة قبح عمله، وسوء مواجهته لربه. وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أى عند انكشاف الحق لقلوبهم بما ورد عليها من الله تعالى، وهذا لا يُنافي ما قرره أهل التفسير في قوله: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ أى قبل الموت بزمن يسع التوبة متعلقين بها ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبة الله تعالى عليهم أن يورد عليهم هذا الوارد الربانى، ويوفقهم للاعتراف والندم والعزم على عدم العودة إلى المعصية، ويقبل منهم ويبدل أعمالهم السيئة بأعمال حسنة بتوفيقه، وعقائدهم الباطلة بعقائد القرآن بعنايته، وأحوالهم الشريرة بأحوال الصديقين بحسب توجهاته، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ الفرقان ٧٠، ولديها يكونون أبدالاً للصديقين وأئمة للمتقين، يحبهم الله تعالى ويحبونه.

ما قاله أهل المعرفة في التوبة

وهنا أشرح لك جُملاً من التوبة، وأورد عليك ما قاله أهل المعرفة فيها - لمزيد البيان - والله أسأل أن يوفقنى وإياك للتوبة النصوح الخالصة لذاته الأحدية من الذنوب التى توجب النقم وتغير النعم وتحبس غيث السماء وتديل الأعداء، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ). ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، قيل: يا رسول الله وما علامة التوبة؟ قال: (الندامة). عن أنس بن مالك أيضاً أن النبى ﷺ قال: (مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَائِبٍ تَائِبٍ) والتوبة أول منزلة من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة الرجوع إلى الله والندم على ما فات، قال النبى ﷺ: (الندم توبة).

شروط التوبة الصحيحة

أهل الأصول من أهل السنة قالوا شرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء:

١ الندم على ما عمل من المخالفات.

٢ وترك الزلة في الحال.

٣ والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي.

فهذه الأركان لا بد منها حتى تصح التوبة.

أقوال العلماء في التوبة والتائبين

سئل ذو النون المصري عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وكان عبد الله بن علي بن محمد التميمي يقول: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ التوبة ١١٨. وقال ابن عطاء: التوبة توبتان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرم الله تعالى. وقيل لآبي حفص: لم يبغض التائب الدنيا؟ قال: لأنها دار باشر فيها الذنوب، فقيل له أيضاً: هي دار أكرم الله فيها التائب بالتوبة، فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على خطر. وقال رجل لرابعة: إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تبت هل يتوب علي؟ فقالت: لا... بل لو تاب عليك لتبت. قال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. وعن أبي عمرو الأنطاطي: ركب علي بن عيسى الوزير في موكب عظيم فجعل الغرباء يقولون: من هذا؟ من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق: إلى متى يقولون من هذا؟ من هذا؟ هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه الله بما ترون. فسمع علي بن عيسى ذلك فرجع إلى منزله واستعفى من الوزارة وذهب إلى مكة وجاور بها. قال الله تعالى في خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببيغيتكم في

المعاد، وكى تبقوا ببقاء الله عز وجل فى نعيم لا زوال له ولا نفاذ، ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار، فهذا هو الفلاح.

وقال تعالى فى مخاطبة الخصوص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ التحريم ٨، فنصوحاً معناها خالصة لله تعالى، وهى الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعاً عليه بقلبه وشهوته. فمن أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى، وعمل خالص مستقيم على السنة، فقد ختم له بحسن الخاتمة، فحينئذ أدركته الحسنى السابقة، وهذا هو التوبة النصوح، وهذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب، وهذا إخبار عن سبقت له من الله الحسنى، ومن تداركه ربه بتوبته رحمه بها من تلوث السوءى، وهو وصف لمن قصده بخطابه إذ يقول فى كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، وكما قال ﷺ: (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ).

وسئل الحسن عن التوبة النصوح فقال: هى ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود إليه. وقال أبو محمد سهل رحمه الله: ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة. وقال: من يقول إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن يرضى بقوله فهو كافر. وقد جعل سيدنا على كرم الله وجهه ترك التوبة مقاماً فى العمى، وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر، فقال فى الحديث الطويل: ومن عمى نسى الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة. ففرض التوبة الذى لا بد للتائب منه ولا يكون محباً صادقاً إلا به: الإقرار بالذنب والاعتراف بالظلم ومقت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات، وإطابة الغذاء بغاية ما يقدر عليه، ثم الندم على ما فات من الجنائيات.

الخصال التى على العبد فى التوبة

وجملة ما على العبد فى التوبة، وما تعلق بها عشر خصال؛ أولها: فرض عليه أن لا يعصى

الله تعالى. والثانية: إن ابتلى بمعصية لا يصبر عليها. والخصلة الثالثة: التوبة إلى الله تعالى منها. والرابعة: الندم على ما فرط منه. والخامسة: عقد القلب على الاستقامة على الطاعة إلى الموت. والسادسة: خوف العقوبة. والسابعة: رجاء المغفرة. والثامنة: الاعتراف بالذنب. والتاسعة: اعتقاد أن الله تعالى قدر عليه ذلك وأنه عدل منه. والعاشر: المتابعة بالعمل الصالح ليعمل في الكفارات؛ لقوله ﷺ: (وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا). والمتصف بتلك الخصال كلها هو التائب حقاً، ومن قصر في صفة منها كانت توبته بقدر مجاهدته لنفسه، وإذا لاحظت عناية الله عبداً يسر له جميعها؛ وتفضل عليه بمحبته سبحانه وتعالى له.

وقال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه، يوجد ذلك بإلهام يلهمه؛ أحدهما إذا ولد وخرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني كما أخرجتك. وسر عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء أو أضعتها، فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ المؤمنون ٨، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ البقرة ٤٠.

فعمر العبد أمانة عنده، إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإن ضيعه فقد خان الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الأنفال ٥٨، وفي خبر ابن عباس رضي الله عنهما: (من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله). وسئل يحيى بن معاذ: كيف يصنع التائب؟ فقال: هو من عمره بين يومين، يوم مضى ويوم بقى، فيصلحها بثالث: أما ما مضى: فبالندم والاستغفار، وأما ما بقى: فبتترك التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين، والثالثة: لزوم تصفية الغذاء والدأب على العمل.

من علامة صدق التوبة وتحققها

من علامة صدق التوبة رقة القلب وغزارة الدمع، وفي الخبر: جالسوا التوابين فإنهم أرق شئ أفئدة. ومن التحقق بالتوبة استعظام الذنوب، كما جاء في الخبر: (المؤمن الذي يرى ذنبه

كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق الذى يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره). وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت. أوحى الله إلى بعض أوليائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها. فإنما عظمت الذنوب لعظمة المواجه بها، وكبرت في القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء، ومخالفة أمره بمزاولتها، فلم يصغر ذنب عند ذلك، وكانت الصغائر عند الخائفين كبائر.

وقال بعض الصحابة للتابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعرة، كنا نعدّها في عهد النبي ﷺ من الموبقات ليسوا يعنون أن الكبائر التي كانت على عهد النبي ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر، لعظمة الله تعالى في قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك في قلوب من بعدهم.

وقال بعض العارفين: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين، وحالان لأهل مقامين، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين، وحال الخائفين يستخرج منهم بتذكرها الحزن الدائم والخوف اللازم، وأما نسيان الذنوب شغلاً عنها بالأذكار، وما يستقبل من مزيد الأعمال فطريق العارفين وحال المحبين، ووجهة هؤلاء شهادة التوحيد وهي مقام في التعرف، ووجهة الأولين مشاهدة التوقيف والتحديد وهي مقام في التعريف، ففي أى المقامين أقيم عبد قام بشهادة وجهته وعمل بحكم حالته، ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام مشاهدة التعريف، وإن كانت هذه أوسع وأكثر، إلا أنها في أصحاب اليمين وفي عموم المقربين، وشهادة التوحيد أضيق وأقل وأهلها أعلى وأفضل، وهي في المقربين وخصوص العارفين.

وقال بعضهم: إن العبد إذا عصى أظلم قلبه ظلماً يثور على القلب منها دخان يشهده الإيمان فهو مكان حزن العبد الذى تسوءه سيئته، ويكون ذلك الدخان حجاباً له عن العلم والبيان، كما تحجب السحابة الشمس فلا ترى، ويكون غلفاً يجده في نفسه للخلق، فإذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الإيمان فيأمر بالعلم كما تبرز الشمس من تحت

الحجاب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ^{المطففين ١٤}، قالوا: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب، ويصير الإيمان تحت الحجاب فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وعندها ينكس أعلاه أسفله إذا استكمل سواده، فحينئذ يكون قد مرد على النفاق فاطمأن به وثبت، إلى أن ينظر الله تعالى إليه فيعطف بفضله عليه.

وقد جعل سيدنا على كرم الله وجهه الغفلة إحدى مقامات الكفر، وقرنها بالعمى والشك وأمال صاحبها عن الرشد، ووصفها بالحسرة فقال في الحديث الذي يروى من طريق أهل البيت، فقام عمار بن ياسر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما بنى؟ فقال على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمى نسى الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، وغرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله تعالى ما لم يكن يحتسب، ومن شك تاه في الضلالة. وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب، وترادف السيئة بالحسنة في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلْسِنَةً﴾ ^{الرعد ٢٢}، وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلْسِنَةً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ^{القصص ٥٤}، هذا ما أحببت أن أوردته عليك من أحكام التوبة ووصف التائبين، لتزن به أحوالك عند إنابتك إلى الله تعالى، ورجوعك إلى طاعته سبحانه، فإن وجدت ما أوردته الله على التائبين من حلاوة الإقبال عليه، ولذة مواجته تعالى بلا تكلف منك فقل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ ^{الأعراف ٤٣}.

وإن لم تجد من نفسك هذا المشهد العلى، فتيقن أن ذلك من نزوع نفسك إلى حظ ترجوه عاجلاً أو آجلاً، أو لتوبتك على غير مشهد من مشاهد التوحيد، أو لشوب في إخلاصك، فسارع يا أخى إلى مجالسة التوايين وسماع علومهم منهم، لتشرق على قلبك أنوار التوحيد، وتعرف قدر ما تفضل به عليك ذو الفضل العظيم، وعظيم ما اجترحته في جانبه سبحانه وتعالى، حتى تنجذب نفسك بالكلية إلى الإنابة إلى الله فتكون توبتك نصوحاً، وتوصف بأنك من التوايين، وتتلذذ بمحبة الله لك فتجدد التوبة لكل عمل تعلمه لعلمك بقدر نفسك وقدر عملك، ومعرفتك مقام ربك، ولو كان في نظرك قربة، لما تشهده فيه من عجزك عن القيام

بواجب شكر المنعم المتفضل، حتى تنبلج لك أنوار التوحيد، فيحصل البسط والأنس، فتنسى ذنبك، وتقبل على ربك بظاهرك وباطنك، وتكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢.

والعامة يجددون التوبة عند حدوث الذنب، والخاصة يجددون التوبة عند أعمال البر لشهودهم التقصير فيها، وخاصة الخاصة يجددون التوبة بعد عمل القربات لشهودهم العمل لأنفسهم لفهمهم التوحيد بالتوحيد، وهنا أمسك القلم عن توبة المحبوبين وإنابة المرادين لعلو مشاهدتهم وخفاء مواجيدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِئْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء ٨٥، فإن العبارة لا تفي بمشاهدتهم والإشارة لا تبين مواهبهم التي تفضل الله بها عليهم، وإنما هو فضل الله العظيم يؤتيه من يشاء.

وقد كشفت لك الستار عما يمكن أن يبلغه مرید الحق إذا عمل بعلمه، وما يورثه الله تعالى للعاملين بعلمهم على أن يسطر على الأوراق، قال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الأنفال ٢٩، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ الطلاق ٥.

وكفى شرفاً بالتوبة أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يجب التوابين، ومن علم مقدار ما يتفضل الله به على من يحبه يعلم قدر التوبة، ويسارع إليها، ويفوز بالفضل العظيم، وإني أنبهك أيها المرید السالك أن تلجأ إلى التوبة عند كل ذنب واثقاً بالله سبحانه وتعالى بوسعة رحمته، معتقداً أنك عبد مذنب، وأنه رب غفور عفو تواب كريم، ولا يهولنك عظم الذنب، فإن ذلك لجهلك بواسع مغفرة ربك، ولا حصوله منك بعد التوبة، فإن ذلك لجهلك بنفسك، بل سارع إلى التوبة عازماً على عدم الرجوع إلى الذنب بإخلاص وصدق؛ ولو أذنبت في اليوم مائة مرة.

التائب المذنب بتوبته

وإنما شنع العلماء على التائب العاجز عن عمل الذنب، فإذا قدر عاد للذنب لأنه لم يتب

لله مخلصاً، وعلى من تاب بعد الوقوع في الذنب إذا أصابته بلية باقتراف الذنب فيتوب منتظراً زوال البلية، ودموا من تاب عازماً على العودة، وهؤلاء لم يكونوا من التائبين عندنا، ولكنهم لا عبون وهم مذنبون بتوبتهم، ويجب أن يتوبوا من تلك التوبة لأنها ليست توبة حقاً، ولكنها ذنب آخر يضاف إلى ذنوبهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۗ ءَأَلْكَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يونس ٩٠-٩١، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكَفْرَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء ١٨، وأمثال هؤلاء يجب عليهم قبل التوبة أن يسارعوا إلى مجالس العلماء الربانيين، ويستفتونهم في التوبة حتى يعلموا مما يتوبون ولمن يتوبون وكيف يتوبون، لأن أمثال هؤلاء من الغافلين الذين لا ترفع أعمالهم لجهلهم وغفلتهم في العمل، والجاهل لا يقبل الله منه قليل العمل ولا كثيره.

وكان الناس يبكون بعد الأعمال الصالحة خشية أن تُرد عليهم، حتى قال بعضهم: التوبة من التوبة. وإن ظهر لبعض من لا معرفة لهم بأسرار التوحيد خطأ قائل هذه الكلمة، ولكنهم لو كوشفوا بمراده لتابوا من توبتهم، فإن التائب إلى الله إذا شهد عمله في توبته، واعتقد أنه أورد هذا العمل على الله بحوله وقوته، فهو مشرك شركاً خفياً فمثله يتوب - لا من التوبة - ولكن من ذنب آخر هو شهوده عمله فيها، لأن التوبة كما قررت آنفاً، فضل من الله يتفضل الله به على من يحبهم من عباده، فهو وارد من الحق على الخلق، وهو لأهل مشاهد التوحيد.

فالرجوع إلى الله بالتوبة فضل الله على العبد في الحقيقة وإقبال منه عليه، فإذا شهد العمل لنفسه واطمأن قلبه به فقد جهل فضل ربه عليه بتوبته، ونسى نعم المنعم عليه برجوعه، فيكون بعد عن الله بما يظن أنه قرب إليه به، فيتوب من هذا الذنب الخفى إلا على أهل مشاهد التوحيد. فقله: تاب من التوبة، أى تاب من ذنب ارتكبه في التوبة، ولأهل الفرقة الناجية مشاهد في قرباتهم، وأذواق راقية في عباراتهم، أسأل الله تعالى أن يمنحنا فضله العظيم، وأن يجعلنا من التوابين المتطهرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوبة عمل من أعمال القلوب والجوارح

من هنا يظهر أن التوبة عمل من أعمال القلوب: وهو مكاشفة عظمة الله، واستبانة أحوال نفسه، والعزم على استبدال قبائح الأعمال بمحاسنها، والإخلاص في الرجوع إلى الله، والصدق في العمل له، وملاحظة التوحيد الخالص عند القيام بهذا العمل القلبي.

وعمل بالجوارح: وهو القيام بالفرائض، وملازمة سنن رسول الله ﷺ، وترك ما كان يعمل التائب من قبائح العمل، والمسارة إلى عمل الواجب والمندوب، ليستبدل كل قبيح عمله بعمل حسن يعمل، وبكل خصومة صلحاً، وبكل أذية آذاها للخلق إحساناً يحسن إليهم لوجه الله تعالى، وتشبها برسول الله ﷺ.

ليس بتائب من أهمل عمل القلب وسارع إلى عمل الجوارح، ولا من أهمل عمل الجوارح وسارع إلى عمل القلب، لأنه يتوب من عمل عمله بقلبه وجوارحه، وكل من القلب والجوارح مطالب بالتوبة حتى يتفضل الله عليه بمحبته حقاً، لأن النعيم في الدار الآخرة للروح والجسم، والشقاء في الدار الآخرة للنفس والجسم، ومتى زكت النفس أفلح الجسم والنفس، وسمى مجموعها مؤمناً، فإن كلمة الإيمان مدلولها عمل القلب وعمل الجسم، وليس بمؤمن من اعتقد وترك الأعمال الظاهرة فإنه كافر عند العلماء، ولا من عمل بالجوارح وترك الأعمال القلبية فإنه منافق عند العلماء، إنما المؤمن حقاً من جملة الله باليقين الحق ووفقه للأركان والمندوبات. إذن فالتوبة لا بد أن تكون بالقلب والجوارح.

المفرقون للأمة

إن كثيراً من أهل الجهالة يتكفون الأعمال الصالحة أمام الخلق وقلوبهم قلوب الشياطين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ومن أهل الجهالة من يتكلف الخفاء بالأعمال عند الناس، وهمته متوجهة إلى الشهرة والظهور، فتكون الأبدان متقلبة في الطاعات، والقلوب مظلمة بالغفلات، ومنهم من يتكلف الخروج عن الاعتدال ظناً أن ذلك تزكية للنفوس وتهذيب لها، كما فعل بعض الأفراد الذين خرجوا إلى الغابات فراراً إلى الله تعالى

فيتشبهون بهم في أعمالهم البدنية، ويجهلون مشاهدتهم العلية، فتكون لهم بعد ذلك شهرة بين الناس ومنزلة، فيقبلون على الدنيا كالذئاب، ومنهم من يحفظ كلام القوم ويلقيه أمام العامة ليجذب قلوبهم إليه ويسلب أموالهم منهم، وهم في عملهم هذا يروغون روغان الثعالب.

ومنهم من ينظر إلى أهل زمانه نظر ازدراء فيمقتهم ويبحث عن عيوبهم، ويحفظ ما ورد في ذم الأعمال السيئة والبدع المضلة، جاهلاً بحقائقها غافلاً عن سر مدلولها وعمن قيلت فيهم، فيقوم مشنعاً على العامة في أعمال ليست من البدع ولا من الضلالة، فيكون آلة للشيطان، يفرق جماعة المسلمين فيشغلهم عن الموارد الهنية والمشاهد العلية ويظن أنه مجدد السنة، وهو مغرور محبوب مبعود عن الله، ومنهم من يشتغل بالتميز فيفضل زيدا على عمرو، حتى يشغل المسلمين عن سنى الأحوال ومقبول الأعمال، كما فعل الرافضة ومن غالى من الشيعة، وكما فعل جهلاء المتكلمين، كل ذلك من الجهل بالله ومن الجهل بالنفس.

والأولى بهؤلاء أن يفتشوا عن مرشد كامل يتلقون عنه الحكمة والمعرفة، ويتركون شأن العامة فإنهم على خير، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم إيماناً كإيمان العجائز. وكما قال بعض العارفين: اللهم إيماناً كإيمان الأميين. وقد بينت في كتاب "تذكرة المرشدين والمرشدين" ما ينبغي أن يكون عليه العالم والمتعلم والمرشد والمسترشد، والله أسأل أن يحفظ جماعة المسلمين من الأمراض المنتشرة من هؤلاء، وهم الذين فرقوا الأمة إلى بضع وسبعين فرقة، أعادنا الله من شرهم.

وقد بينت في باب تراجم أفراد الصحابة وأئمة السلف نماذج في الصراط المستقيم لطالب الله تعالى ليهتدى بها في سيره وتستنير بها سريره، لأنهم أئمة الهدى والذين أمرنا الله أن نسأله الهداية لطريقهم في كل يوم أربعين مرة لقوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ الفاتحة ٦-٧، فهم الذين أنعم الله عليهم، أعاننا الله على انتهاج سبيلهم، ووقفنا للعمل الذي يحبه ويرضاه آمين.

وإذا أردت تفصيل علوم التوبة فراجع ذلك في كتاب "أصول الوصول" في قسم (علوم اليقين) وإنما بينت لك هنا حقيقة التوبة عند أئمة الفرقة الناجية الذين هم على ما كان

عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم.

حرصهم على مشابهة الرسول ﷺ وأصحابه

كتبت لك نموذجاً مما عليه أهل الفرقة الناجية في قيامهم بالفرائض والمندوبات اليومية، وكيف اجتهدوا أن يوقعوا كل عمل من الأعمال طبق ما كان عليه رسول الله ﷺ في آياته، ملاحظين في ذلك الحركات والأقوال والأعمال القلبية بقدر الاستطاعة، باذلين الجهد أن لا يضيع منهم نفس من غير أن يكونوا متشبهين به ﷺ، وفي تلك المشابهة مشاهد ومقامات أشير إلى شئ منها:

المشهد الأول: أن يكونوا مستحضرين حقيقة الاقتداء به ﷺ، استحضاراً يجعل القلب يطمئن بالعمل.

المشهد الثانى: أنهم باستحضارهم هذا تتجلى للخيال أنوار ذاته ﷺ في قيامه بالأعمال، فيشهد الخيال بسر المثال هيكله النورانى ﷺ، شهوداً تنكشف به لجوهر النفس حكمة تلك الأعمال والمراد منها.

المشهد الثالث: يتجلى لجوهر النفس نور مواجهة الموفق الهادى المعين من فيض سر التشبه به ﷺ، فيصفو جوهر النفس بمشاهد التوحيد التى انبلجت له في العمل، بعد شهود أنه الفاعل في افتتاح العمل.

المشهد الرابع: كشف الحجاب بين العبد وربّه حتى يسمع كلام الله من الله، ويرى جمعه على ربه سبحانه وتعالى وقربه منه حتى تحصل المناجاة. وهناك مشاهد فوق هذه نمسك عنها اللسان والقلم، كل هذا بفضل مجاهدتهم ﷺ لأنفسهم، حتى تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

المقامات

أما المقامات فمنها مقام المحبة: فإن التشبه برسول الله في عمله وقوله - عند قيامه

بالفرائض والمندوبات - لا يمكنه أن يحسن ذلك إلا بالعلم، والعلم كما قررت في كتاب (معارج المقربين) تصور النفس رسوم المعلوم حتى ينتقش على جوهر النفس الصافي، ومتى انبلجت أنوار المعلوم لجوهر النفس بعلمه اشتد شوقها إليه، فسارعت إلى مرضاته بالتشبه بأحب عباده إليه، والعمل بسنة أكرمهم عليه ﷺ، والمتشبه بالمحبيب محبوب، والعامل بسنة الكريم على الله كريم على الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران ٣١، فكان مجرد اتباعه ﷺ ينيل محبة الله - فضلاً من الله - فكيف بالمحافظة على التشبه به ﷺ والمسايرة إلى العمل بسنته؟

ومنها التوكل على الله: فإن مشاهدة الحق ومناجاته تقتضى معرفته، ومعرفته تقتضى حقيقة التوكل عليه.

ونمسك القلم عن بقية المقامات، وكل ذلك بفضل الاقتداء برسول الله ﷺ وحسن اتباعه، وقد شرحت جملاً من المقامات في قسم التصوف في كتاب (أصول الوصول)، هذا وإن الله سبحانه وتعالى قد يكرم المعاصرين بالتشبه برسول الله إكراماً له، فكيف يكون إكرام الله لمن جملة بتلك المعانى في نفسه؟

ومريد الحق إذا بلغه من الصادق عمل كان يعمل به رسول الله ﷺ، أو قول كان يقوله سارع إليه وبحث عن كلفيته، حتى كان بعض الصحابة يحب أن يعلم كيفية أعماله الشخصية ﷺ مما يستتر فيها عن الناس، ليكون تشبهه به أكمل وأتم، حرصاً على أن يكون شبيهاً برسول الله في كل الأعمال والأقوال والأحوال شرعيها وعاديها، حتى يفوز بأن يكون معه ﷺ معية لا حجاب بعدها، ومجموعاً عليه ﷺ جمعية لا تفرقة بعدها، وإنما هي أنوار أعمال وأسرار أحوال، متى استحضرها السالك حضر مع رسول الله ﷺ، وامتزج حبه ﷺ بدمه ولحمه ومخه ولبه، حتى لا يتحرك ولا يسكن إلا وهو مشاهد أن ذلك كفعله ﷺ، والله سبحانه وتعالى يجمنا بحقيقة الاقتداء به ﷺ، ويخلقنا بأخلاقه الظاهرة المحمدية، ويجمعنا عليه جامعة يجعلنا بها من أهل معيته ﷺ، إنه مجيب الدعاء.

* * *

الفصل الثانى

أهل الفرقة الناجية هم العابدون

العبادة عند أهل الفرقة الناجية

هى اعتقاد عند أهل التسليم، وشهود عند أهل الكشف أن للمعبود سبحانه قوة غيبية فوق الأسباب يقدر بها على النفع والضرر، مع غاية الحب ونهاية الذل والخضوع، ففى اللغة "التعبد" الخضوع والتذلل. فمن أحببته ولم تكن ذليلاً خاضعاً له لم تكن عابداً له، ومن خضعت له ولم تكن محباً له لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً ذليلاً خاضعاً. والمنكرون محبة العباد لربهم منكرون حقيقة العبادة، فإن العابد فى نهاية الحب وغاية الذل والخضوع لمن يعبد، وفى كمال الاعتقاد أن له قوة غيبية فوق الأسباب الظاهرة يقدر بها على النفع والضرر، وقد شرحنا مقام المحبة فى قسم اليقين فى كتاب (أصول الوصول) شرحاً وافياً فى تفصيل علوم المحبة وأحوال أهلها لا نريد الإطالة بها هنا. ومن أنكر أن الله محبوب للعباد - بل أنه غاية بغيتهم ووجهه العلى نهاية مقصدهم - فقد أنكر أنه إله يعبد، إذ العبادة - كما قررنا - نهاية الحب وغاية الذل، ومن لا حب له لا عبادة له، والخاضع الذليل بلا حب ليس بعابد، والعاشق بلا خضوع ولا اعتقاد ليس بعابد، إذا فالعابد بلغ نهاية المحبة لله وغاية الخضوع والذلة لجنابه، واعتقد بقوته الغيبية وسلطته القهرمانية التى هى فوق الأسباب، فىكون بتلك المعانى كلها عابداً، وبترك معنى منها ليس بعابد.

وأهل الفرقة الناجية هم العباد حقاً المتحققون بكمال الحب لله، الحب الذى حقر فى أعينهم الكونين، وأنساهم ما سوى الله فذكروه كثيراً، وتلذذوا بكمال الذل لعظمته، وكمال الخشوع لعزته، لذلك فإنه سبحانه وتعالى قدم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة ه، على قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ه، لأن العبادة غاية القصد، والاستعانة وسائل لها، والمقاصد تقدم على الوسائل للتعظيم، ثم ذكر اسمه قبل ﴿نَعْبُدُ﴾ بقوله ﴿إِيَّاكَ﴾ الفاتحة ه، إشارة إلى أن العابد لا يكون عابداً إذا لم يكن محق الحب من قلبه كل غير، وسلب الذل لله كل من سواه.

والعبادة هى المقصد الأسمى للخلق أجمعين التى لأجلها خلق العرش والكرسى والإنس

والجن والملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿الذاريات ٥٦-٥٧.

فالمتهاون بالعبادة متهاون بالمقصود الأعظم، والمتساهل فيها متساهل بالحكمة التي لأجلها خلق، وكل عابد لله متحقق بمعونة الله، وليس كل مستعين بالله متحققاً بعبادة الله، لأن العبد قد يستعين بالله فيما ليس بعبادة.

إذا تقرر ذلك فالعبادة كلمة جامعة لأنواع الخير كلها، إذ العابد محب لله خاضع لله عامل بأحكام الله، محافظ على سنة رسول الله ﷺ، قائم بتأدية جميع شعب الإيمان، من بر وصلة وعفو وإحسان وإكرام وتواضع وتوبة وإنابة ويقين وتوكل وتفويض، وغير ذلك من المعاني التي يجهبها الله، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى، عند ثنائه ومدحه لطائفة من عباده يصفهم بالعباد، فعندما أراد سبحانه وتعالى أن يثنى على الملائكة قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ الأنبياء ٢٦، وعند ثنائه على عباده بما جملهم به من الصفات قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الفرقان ٦٣، وقال: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ الأنبياء ٧٣، وقال: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الزمر ٥٣، ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر ١٦.

ولما كان أخص معاني العبادة كمال الذل مع الخضوع والحب قال ﷺ: (الدعاء مخ العبادة). وقال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَدِيعِينَ﴾ الأنبياء ٩٠، والعبادة في الحقيقة هي أكمل أعمال القلوب والجوارح معاً، لأن المحبة والذل والاعتقاد والمشاهدة فيها من أعمال القلوب، والحركات البدنية - من صلاة وزكاة وصيام وحج ونطق بالتوحيد ومسارعة إلى الخير - من أعمال الجوارح، فالعبادة مع كونها المقصد الأعلى في الحقيقة ونفس الأمر، هي حقيقة الشكر على سوابغ نعمائه وعميم آلائه، قال تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ سبأ ١٣، فجعل سبحانه وتعالى الشكر عملاً، وجعل الشاكرين قليلاً، فالعابدون على التحقيق قليلون.

وقد فصلت مشاهد الأعمال عند كل نوع من أنواع العبادة في كتاب (معارج المقربين) فراجعه إن أحببت أن تكون منهم، لأن رسالتي هذه خاصة ببيان ما عليه أهل الفرقة

الناجية بالاختصار. وليست العبادة عندهم - رضى الله عنهم - مجرد أعمال تؤدى بحركات وسكنات، أو تكاليف يقوم بها العابد في آتات مخصوصة ولحظات، فإن تلك الأعمال ليست هى المقصودة بالذات، بل المقصود روحها وسرها وحكمتها، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ الحج ٣٧، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٨٤، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥، وقال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ التوبة ١٠٣، فالمصلى المشاهد روح الصلاة لا يقع في فحشاء ولا منكر، والصائم تارك ملاذه وشهوته المتألم بالجوع والعطش، هو في خير لذة بما يتألم به غيره، وباذل الأموال - مع كونها خرجت من ملكه ونقصت ماله حساً - تزكت نفسه بها وتطهرت.

فلمشاهدى روح العبادة مشرب طهور لا يمازجه شئ لكمال توحيدهم الخالص من الشوب، فإن أكثر العمال يشوب إخلاصهم في عملهم كدر بعض البواعث على العمل كالرغبة في الجنة ونيل الملاذ الباقية. ولكن العباد المخلصين، صفت سريرتهم من شوب الشرك الخفى والأخفى، فسقاهم ربهم شراباً طهوراً صافياً، مما يكون مزاجاً لشراب غيرهم، يطيب بقطرة منه شراب غيرهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٦٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ الإنسان ٥-٦، فبين سبحانه وتعالى أن شراب الأبرار يتناول لهم في كأس، وهذا الشراب ممزوج بطهور العين الذى هو خالص شراب عباد الله المخلصين في توحيدهم، فهذه العين - التى يفجرها عباد الله تفجيراً - إنما تجلى لسرهم من حقيقة التوحيد بالتوحيد، حتى تراءت لهم أنوار معنى الصفات والأسماء، بسر اتحاد التوحيد عن تنزل المزيد، فهم - مع خالص توحيدهم - تراءى لهم معانى الأسماء والصفات بمعانى واحد وأنوار أحد، هذا الذى جعل العباد في مقامات المحبوبين لله تعالى، لمحبتهم له سبحانه وتعالى، هذا ما يمكن أن يسطر من معانى العبادة على صفحات الأوراق. ولولا أن كشف سر الربوبية كفر لألمعت إلى شئ من غوامض أسرار العبادة ولطائف حكمة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦، والله يهبك - أيها الأخ - مواهب أهل القرب من العباد، ويوردك مواردهم بمحافظتك على العمل بما علمت، إنه مجيب الدعاء.

العابدون من أهل الفرقة الناجية

شرحت لك حقيقة العبادة قبل التكلم على العابدين، حتى إذا فهمت ما هي العبادة أمكنك أن تتجمل بحقيقتها، فتكون عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ من العابدين، وتكون عند العلماء ممن أثنى الله تعالى عليهم، ومدحهم وشكرهم في كتابه، ولما كان إثبات صفة العبادة لا يتحقق للعبد إلا بمعنيين لا بد منهما، وبدونها لا يكون العابد عابداً إلا عند نفسه، وهما:

١ شهود أنه عبد له وجود بالله تعالى، وعليه حقوق لله سبحانه وتعالى.

٢ وشهود المنة عليه بتوفيق الله له بالقيام بما افترضه عليه، وما ندبه إليه، حتى يكون عبداً عاملاً بمقتضى العبودية، موحداً منزهاً الحق جل جلاله عن الشرك في وحدة الأفعال، فإن جهل حقيقته في وجوده بالله تعالى وعبد الله ألف سنة، غير مشاهد منة الله عليه ونعمته العظمى الواصلة إليه بتوفيقه بما كلفه به وطلبه منه؛ كان عمله ممزوجاً بالشرك، محجوباً عن مكاشفة أنوار التوحيد، وإن استغرق في شهود قيومية الحق - فجمعته جمعاً غير شرعى حتى أفنى الأحكام والرسوم فلم يقيم لله بما كلفه به - كان في فرق بمخالفته للأمر، وإن كان مجموعاً على الحقيقة بالمشاهد التي انبلجت له بكمال اعتقاده.

اللهم إلا إذا غلب الشهود فسلب قوة التكليف بجمع شرعى سابق، ولديها لو شهد محو الوجود الكونى بمشاهدة قيومية وقدرة وإرادة ومشية الحق وغيبته عن شهود الحكمة؛ كان ذلك ذوقاً له مقبول عندنا، ولكننا نعتبره ناقصاً لا يكمل في نظرنا إلا بأن يكون جامعاً فارقاً، وإن كانت لأهل الفرقة الناجية إشارات عالية وعبارات سامية، تشير إلى الجمع على الحقيقة؛ فإنهم رضوا الله عنهم وأرضاهم - وهم في أرقى مراتب جمعهم - أسرع الناس إلى القيام بالأمر، والتقرب إلى الله بما يجب والعمل بما رغب فيه، فهم في جمعهم في فرق وفي فرقهم في جمع، فإذا وقف الرجل منهم في الصلاة استحضر أنه عبد مكلف وشهد منة الله عليه بالتوفيق والمعونة، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وواجه بسره وروحه وقلبه قدس الجبروت الأعلى، وبجسمه بيت الله الحرام فكان جامعاً فارقاً، وما عملوا عملاً من القربات

أو الواجبات إلا وهم على هذا الكمال الذى كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ممن بلغ بهم الكشف مبلغاً لا يبلغه أحد بعدهم من العابدين.

وليس بعد أصحاب رسول الله ﷺ أئمة يقتدى بهم، فإنهم رضى الله عنهم وأرضاهم عنه، كان أصغرهم فى جمع الجمع مع فرق الفرق فى آنٍ واحد، وسأكتب رسالة أبين فيها مذهب الحق للسادة الصوفية أشرح فيها مبدأهم الشرعى وما أخذهم الحق، والحقيقة أنه لا جمع إلا بعلم لدنى، ولا علم لدنى إلا بعلم شرعى يكون العامل فيه عاملاً عن علم بالأحكام وفهم للحكمة سر قوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

وإنما الجمع الذى يعنونه رضى الله عنهم هو ذوق أسرار التوحيد، بعد استحضار معانى الصفات والأسماء، ثم مشاهدة آيات الواحد سبحانه دالة على أنه القادر الحكيم الظاهر الباطن المرید الفاعل المختار، وإن كان أنكر بعض الناس الجمع فلهم العذر لأنهم شهدوا بعض من يدعونه تائهيين فى بيداء الجهالة بحكمة الله، جاهلين بسر الأمر والنهى، قد أسقطوا الأحكام والأعمال وفارقوا الأئمة والجماعة، فظن المنكرون أنهم أئمة هذا الطريق، فشنعوا على الطريق وأهله.

ولو أن الله سبحانه وتعالى نبههم إلى أن يبحثوا عن عالم بالطريق وتربية النفوس والرقى إلى مشاهد الآيات الربانية منبلجة فى الكائنات، حتى يبلغ بهم إلى أن يهجم بهم العلم على عين يقين، وتقلص أفياء الأوهام، وتذوب ثلوج المحظوظ والأهواء، لعلموا أنه لا بد من الجمع، ومن لا جمع له فى الدنيا لا جمع له على الرحمن الرحيم المنعم المتفضل الرؤوف اللطيف الودود يوم القيامة، وإلا فالعابد الذى يرى أنه يعمل لله غافلاً عن شهود منة الله عليه فى العمل بالعمل، وأنه سبحانه هو الفاعل المختار لا شريك له فى عمل ما، وأنه سبحانه يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وأن أحداً ما لا يمكنه إيجاد حركة ولا سكون إلا بإرادته وتقديره ومعونته وتدبيره، لا يكون عابداً ولا تقبل عبادته وإن صام النهار وقام الليل.

وفى هذا الموضوع كم زلقت أقدام رجال، وكم هوى فى هاويته عمال، وكم انتقل إلى الباطل بسببه مدعون، فمنهم من يعمل معتقداً أنه العامل، ويرى عمله عظيماً وهو مشرك بالله،

فمتى يقبل عمله؟ كما قال ﷺ لأبي بكر: (الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: وَكَيْفَ الْخَلَاصُ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ) وإن عصاة المسلمين ربما يدعوهم إلى التوبة والإنابة إلى الحق اعتقادهم بأنهم مذنبون، وهؤلاء لا يتوبون - من شركهم - لحسن ظنهم بأنفسهم وتعظيمهم أعمالهم، ولو علموا منة الله عليهم بالتوفيق والمعونة؛ وتبين لهم مقام من يتقربون إليه بالعمل ويرفعونه، لصغر في أعينهم العمل، ولغابوا بشهود المنة وذوق مشاهد التوحيد عن أنفسهم، فجمعهم سبحانه على الحق.

ومنهم من يذوق بعض مبادئ أسرار التوحيد فيسقط الأمر والتكليف، ويرى أن هذا مبادئ الجمع حقاً! ومتى يجمع الله عليه من خالف أمره وأسقط حكمه وحكمته؟

نعم هو حال لا بد منه للسالك المخلص حتى ينتشل من أحوال التوحيد، ويخرج من حيطة الظلمة والتقييد إلى فسيح التنزيه والتفريد، وروض الجمع بلا لبس من خلق جديد، وليس هو بفهم وتعقل أو بعلم ونقل، ولكنه ذوق لمشاهد عليية وإشراق أنوار ربانية ومشاهدة آيات عليية، تلوح أسراره وتتوالى أنواره، فينتج منها الحال القاهر والوجد الظاهر، وتكون تلك المشاهد أكمل وأجمل بالقيام بالتكاليف، حتى يحلو الجمع ويطيب الأنس، ولا أطيل عليك، فإنى بمشيئة الله تعالى سأوفى هذا الموضوع حقه في موضعه، ولكن الحال اقتضت أن أبين ما كان عليه الرجال العاملون بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ.

ولما كان القرآن المجيد صراطهم المستقيم ومنهجهم القويم، وكان عمل رسول الله ﷺ هو الحقيقة التي يجاهدون أنفسهم ليتشبهوا بها تشبهاً يجعلهم صورة طبق الأصل على قدر استطاعتهم؛ فأورد عليك الآيات التي أسسوا عليها طريقهم في العبادة، وأحسن الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدى هدى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، ثم أذكر لك بعض ما ورد عن رسول الله ﷺ في هذا الموضوع، والله أسأل أن يمن عليّ وعليك وعلى إختى جميعاً بالمسارعة إلى العمل بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ إنه مجيب الدعاء.

* * *

الآيات التي أسسوا عليها طريقهم في العبادة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ الإسراء ١٩ ، وقال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ الشورى ٢٠، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وأنَّ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ النجم ٣٩-٤٠، وقال جلت قدرته: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الحاقة ٢٤، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الأنعام ١٣٢، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضَعِيفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ سبأ ٣٧، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف ٤٣، وقال جل شأنه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة ١٧، وقال سبحانه وتعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ العنكبوت ٥٨-٥٩، وقال جلت قدرته: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام ١٧٢.

الآيات التي أخذوا منها أورادهم بالليل والنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ الفرقان ٦٢، وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ الزمل ٧، ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ الإنسان ٢٥-٢٦، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ الطور ٤٨-٤٩، وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ الزمل ٦، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَايِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ طه ١٣٠، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ نَاسٍ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر ٩، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ السجدة ١٦، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ الفرقان ٦٤، وقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الذاريات ١٧-١٨، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبُ الصَّلَاةِ لَدُنْكَ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الإسراء ٧٨-٧٩،

وقال تعالى: ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود ١١٤، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الروم ١٧-١٨.

بعض ما ورد من الأحاديث في هذا الموضوع

١ قوله ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).

٢ وقال ﷺ: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

٣ وقال عليه الصلاة والسلام: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

٤ وقال رسول الله ﷺ: (الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ).

عباداتهم التي استنبطوها في اليوم واللييلة

يستحب عند طلوع الفجر، وهو البياض المشتق من سواد الليل المعترض في قطر السماء الشرقي عند إدبار النجوم، وإدبارها افتراقها وذهاب ضوئها لغلبة ضوء الفجر عليها، وهو الوقت الذي أمر الله تعالى فيه بذكره إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُومِ﴾ الطور ٤٩، فليصل العبد ركعتي الفجر، يقرأ فيهما ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الكافرون ١، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأَخْلَاصُ ١، فهو أكثر ما روى عن النبي ﷺ فإن شاء خافت وإن شاء جهر، فقد روى حديثان أحدهما يدل على المخافتة، فإن شاء خافت وهو حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ فَيُخَفِّفُ رُكْعَتِي الْفَجْرِ حَتَّى أَقُولَ: هَلْ قَرَأَ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ أَمْ لَا) والآخر يدل على الجهر، وهو حديث ابن عمر: (رمقت النبي ﷺ عشرين يوماً فسمعتة يقرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الكافرون ١، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأَخْلَاصُ ١.

وفي حديث أبي هريرة وابن عباس: (أنه قرأ ﷺ في الركعة الأولى الآية التي في سورة

البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ البقرة ١٣٦، إلى آخرها، وفي الركعة الثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ آل عمران ٥٣، فليقرأ بذلك أحياناً، ثم يستغفر الله سبعين مرة يقول في كل مرة: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم. ويسأله التوبة، ثم يسبح الله ويهلهه مائة مرة بالكلمات الأربع الجامعات المختصرات التى هى فى القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. واستغفر الله وتبارك الله - مرة واحدة - وليدع بهذا الدعاء، فإن رسول الله ﷺ كان يدعو به بعد ركعتى الفجر.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعثنى العباس إلى رسول الله ﷺ وعلى آله، فأتيته ممسياً وهو فى بيت خالتي ميمونة، فقام يصلى من الليل، فلما صلى الركعتين قبل صلاة الفجر قال: (اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي، وتلم بها شعتي، وترد بها الفتي، وتصلح بها علانيتي، وتقضى بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكى بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلقني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء.

اللهم أعطني إيماناً صادقاً و يقيناً ليس بعده كفرٌ ورحمةً أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء ومرافقة الأنبياء والنصر على الأعداء.

اللهم إني أنزل بك حاجتى وإن قصر رأبى وضعف عملى وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا قاضى الأمور ويا شافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ما قصر عنه رأبى وضعف عنه عملى، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى، من خير وعدته أحداً من خلقك أو خيراً أنت مُعطيه أحداً من عبادك فإنى أرغب إليك فيه وأسألكه يا رب العالمين.

اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين، حرباً لأعدائك وسلماً لأوليائك نحب بحبك الناس ونُعادي بعداوتك من خالفك اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة اللهم هذا الجهد وعليك التكلان، فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله ذى الحبل الشديد

والأمر الرشيد أسألك الأمان يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهد إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد.

سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبَسَ الْمَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلَّا لَهُ، سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ، سُبْحَانَ ذِي الْقُدْرَةِ وَالْكَرَمِ، سُبْحَانَ الَّذِي أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ.

اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في شعري ونوراً في بشري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظامي ونوراً من بين يدي ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي اللهم زدني نوراً وأعطني نوراً واجعل لي نوراً).

فليدع العبد بهذا الدعاء بعد ركعتي الفجر، لكن يقدم على دعائه المسألة لله تبارك وتعالى في الصلاة على سيدنا محمد ﷺ فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته ولا يرده لقول الرسول ﷺ: (إذا سألتكم الله تعالى في حاجة فابدءوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل في حاجتين فيعطى إحداهما ويرد الأخرى). ثم ليصل العبد صلاة الغداة في جماعة، ليكون في ذمة الله تعالى وجواره، وفي الحديث: (صلاة الغداة في جماعة أفضل من قيام ليلة، وصلاة العشاء الآخرة في جماعة أفضل من قيام نصف ليلة). وليكن قائماً في صلاته بإلقاء سمع وشهود قلب وحضور عقل وجمع هم وصحة تيقظ وحسن إقبال وتدبر للكلام وترتيل وتفهم بالتماس غرائب التنزيل، فإذا سلم من صلاته قال ما يستحب من الذكر.

أذكارهم بعد صلاة الصبح

اللهم صل على محمد وآله، اللهم أنت السلام ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحينما ربنا بالسلام، وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام؛ ثم ليقل: سبحان الله العظيم وبحمده (ثلاثاً)، ثم يستغفر الله (ثلاثاً)، ثم يقول: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. ثم ليقل - وهو ثان رجله من قبل أن يتكلم - هذه

الكلمات عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، ثم ليقرأ وهو كذلك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرًا ويقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿المؤمنون ٩٧-٩٨، عشر مرات - وليقل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الصافات ١٨٠، إلى آخر السورة، ثلاث مرات، وليقل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الروم ١٧، إلى آخر الثلاث آيات، ثلاث مرات، ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين مرة، ويحمد كذلك، ويكبر أربعاً وثلاثين، فتلك مائة مرة.

وقال قبيصة بن مخارق للنبي ﷺ: علمنى كلمات ينفعنى الله بها وأوجز، فقد كبر سننى وعجزت عن أشياء كنت أعملها، فقال: (أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده، لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنك إذا قلتها أنت من عمى وجذام وبرص وفالج).

وأما لآخرتك فقل: اللهم صل على محمد وآل محمد، واهدنى من عندك، وأفض على من فضلك، وانشر على من رحمتك، وأنزل على من بركاتك) ثم قال رسول الله ﷺ: (أما أنه إذا وافى بهن يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء).

أدعيتهم المختارة بعد صلاة الصبح

روى أن النبي ﷺ كان إذا افتتح دعاء افتتحه بقوله: (سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب) وأنه كان يقول: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وقال ﷺ لعائشة رضى الله عنها: (عليك بالجوامع الكوامل، قولى: اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وآله، وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك من الخير ما سألك به

عبدك ورسولك محمد ﷺ، و أستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين). وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يا فاطمة، ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به، أن تقولى: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث فأغثنى، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله). وعلم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا الدعاء فقال: (قل: اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وموسى نجيك وكليمك، وعيسى روحك وكلمتك، وبكلام موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، وفرقان محمد ﷺ، وكل وحى أوحيته، أو قضاء قضيته، أو سائل أعطيته، أو غنى أفقيته، أو فقير أغنيته، أو ضال هديته، وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى، وأسألك باسمك الذى ثبت به أرزاق العباد، وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك باسمك الذى وضعته على السماوات فاستقلت، وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فأرست، وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك، وأسألك باسمك المطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين، وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك أن تصلى على محمد نبيك وعلى آله، وأن ترزقنى القرآن والعلم، وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى، وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين).

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فعلمه هذا الدعاء: (يا نور السماوات والأرض، يا جمال السماوات والأرض، يا عماد السماوات والأرض، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا صريخ المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا منتهى رغبة الراغبين، والمفرج عن المكروبين، والمروح عن المغمومين، ومجيب دعوة المضطرين، وكاشف السوء، وأرحم الراحمين، وإله العالمين، منزل بك كل حاجة يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لم يكن النبى ﷺ يدع أن يدعو بهؤلاء الكلمات حين يصبح وحين يمسى: (اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، وأسألك العفو

والعافية في ديني وديناي وفي أهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وأمن روعاتي وأقل عثراتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي). وقال بريد الأسلمي: قال لي رسول الله ﷺ: (يا بريد، ألا أعلمك كلمات من أراد الله عز وجل به خيراً علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبداً، قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليك، قال: قل: (اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفى، وخذ إلى الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضاي، اللهم إني ضعيف فقوني، وإني ذليل فأعزني، وإني فقير فاغنني، برحمتك يا أرحم الراحمين).

وعن أبي مالك الأشجعي قال: حدثني أبي قال: كنا نغدو إلى النبي ﷺ فيجئ الرجل - أو تجئ المرأة - فيقول: كيف أقول يا رسول الله إذا أصبحت؟ قال: (تقول: اللهم صل على محمد وآله، واغفر لي وارحمي واهدني وارزقني وعافني واجبرني، فقد جمع لك خير دنياك وآخرتك).

وعن عمر بن عبد العزيز عن محمد بن عبيد الله قال: أتى أبو الدرداء فقيل له: احترقت دارك، فقال: ما كان الله عز وجل ليفعل. ثم أتاه آت فقال: يا أبا الدرداء إن النار حيث دنت من دارك طفئت، فقال: قد علمت فقيل له: ما ندرى أى قوليك أعجب؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قال هؤلاء الكلمات في ليل أو نهار لم يضره شيء) وقد قلتها وهي: (اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما شاء الله عز وجل ربي كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم).

أعمالهم بعد صلاة الغداة

وهو أن يأخذ في تلاوة القرآن وفي أنواع الذكر من التسبيح والحمد والثناء، وفي التفكير في عظمة الله سبحانه وتعالى وآلائه، وفي تواتر إحسانه ونعمائه من حيث يحتسب العبد ومن حيث لا يحتسب، وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم، ويتفكر في تقصيره عن الشكر في ظواهر

النعم وبواطنها، وعجزه عن القيام بما أمره من حسن الطاعة ودوام الشكر على النعمة، أو يتفكر فيما عليه من الأوامر والنواذب فيما يستقبل، أو يتفكر في كثيف ستر الله تبارك وتعالى عليه، ولطيف صنعه به، وخفى لطفه له، وفيما اقترب وفرط فيه من الزلل، وفي فوت الأوقات الخالية من صالح العمل.

أو يتفكر في حكم الله تعالى في الملك، وقدرته في الملكوت، وآياته وآلائه فيها، أو يتفكر في عقوبات الله عز وجل وبلائه الظاهرة والباطنة فيها، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَذَكَرَهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ إبراهيم ٥، قيل: بنعمته، وقيل: بعقوباته، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُواْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ الأعراف ٦٩.

ومثله: ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الرحمن ١٣، أى: بأى نعمة تكذبان ﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَعْطَمْتُمْ﴾ الرحمن ٣٣، وهما الثقلان.

ففى أى نوع من هذه المعانى أخذ فيه فهو ذكر، والذكر عبادة، وهو يخرج إلى الفكر، والفكر يدخل فى الخوف والرجاء، والذكر إذا قوى صار مشاهدة كما قال عز وجل: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا﴾ آل عمران ١٩١، ثم قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابِ النَّارِ﴾ آل عمران ١٩١، ولا يكون مشاهدة إلا عن يقين، واليقين روح الإيـمان ومزيده وغنى المؤمن، وقال بعض العلماء فى تفسير قوله ﷺ: (تَفَكَّرَ سَاعَةً حَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ). وهو التفكر الذى ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى القناعة والزهد، وقيل: هو التفكر الذى يظهر مشاهدة وتقوى، ويحدث ذكراً وهدى؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٧١، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ طه ١١٣، ومثله ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿البقرة ٢١٩ - ٢٢٠، أى يفعلون لما يبقى، ويرغبون فيما يدوم، ويزهدون فيما يفنى.

وقد جعل الله عز وجل البيان يعلمنا اقتضاء الشكر عليه فقال: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة ٨٩، وكما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة ٦٣.

وقد وصف أعداءه بعد ذلك فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ الكهف ١٠١.

وقالت أم الدرداء: كانت أكثر عبادة أبي الدرداء التفكير، وقد كان يقول: ما يسرنى أن أريح في كل يوم ثلاثمائة دينار أنفقها في سبيل الله عز وجل، قيل: ولم ذلك؟ قال: يشغلنى ذلك عن التفكير.

أو يعتقد حسن النيات، وينوى جميل الطويات فيما بينه وبين الخالق تعالى، وفيما بينه وبين الخلق، أو يستغفر الله تعالى ويجدد التوبة لما مضى من عمره، ولما يتأتى من مستقبله، أو يخلص الدعاء بمسكنة وتضرع، وتملق وتخشع، ووجل وإخبات، إلى أن يعصمه من جميع المنهيات، وأن يوفقه لصالح الأعمال، ويتفضل عليه برغائب الإفضال، وهو في ذلك فارغ القلب مجرد لهم، موقن بالإجابة، راض بالقسم، أو يتكلم بمعروف وخير ويدعو به إلى الله تعالى وينفع به أخاه، ويعلم من هو دونه في العلم، فهذه كانت أذكار المتقدمين وأفكار السالفين.

وقد كان الذكر والفكر من أفضل عبادة العابدين، وهو طريق مختصر إلى رب العالمين، ففى أى هذه المعانى أخذ؛ فهو ذاكر الله عز وجل، فلا يزال كذلك وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه. قد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ومنهم من يشدد فى ذم الكلام من الفجر إلى صلاة الغداة بغير ذكر وبر، وهذه سنة قد خملت، فمن عمل بها فقد ذكرها.



ذكر أورادهم النهارية

وهي سبعة أوراد

وهذا هو الورد الأول من النهار - وفي النهار سبعة أوراد

الورد الأول

أولها من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو الوقت الذي أقسم الله عز وجل به فقال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ التكويد ١٨، فتنفسه من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو الظل الذي أمده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسطه الشمس عليه، وأظهر من آياته وجعله كشفاً له ودليلاً عليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ الفرقان ٤٥، يعني ببسطه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ الفرقان ٤٥، يعني مقيماً على حاله لا يتحول ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الفرقان ٤٥، يقول: كشفناه بها، ففيه أن الدليل هو الذي يكشف المشكل، ويرفع المشتبه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ الفرقان ٤٦، يعني أن الظل من تحت الشمس قبض قبضاً يسيراً، أي: خفيفاً لا يفتن له ولا يرى فاندراج الظل في الشمس بقدرته، اندراج الظلمة في النور إذا دخل عليها بحكمته.

وهو الإصباح والفلق الذي يمدح الله عز وجل بقلقه، وأمرنا بالتنزيه له عنده، والاستعاذة من شر ما خلق فيه فقال عز وجل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ الأنعام ٩٦، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الروم ١٧، أي: فسبحوه بالصلاة عندهما، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ من شر ما خلق ﴿الفلق ١-٢﴾، يعني فلق الصباح.

فإذا أمن العبد الفتنة والكلام فيما لا يعنيه، والاستماع إلى شبهة من القول، وأمن النظر إلى ما يكره أو يشغله عن الذكر، أو يذكره الدنيا، أمن من دخول الآفة عليه من التزين والتصنع للناس، ورزق الشغل بمولاه، والإخلاص له بالإعراض عن سواه، فقال ما ذكرناه من الذكر في مصلاه، أو في مسجد للجماعة فهو أفضل.

وإن لم يأمن الفتنة، وخشى دخول الآفة عليه من لقاء من يكره، ومن يلجئه إلى تقية

ومداراة، أو خاف الكلام فيما لا يعنيه، أو الاستماع إلى ما لا يندب إليه، انصرف إذا صلى الغداة إلى منزله، أو إلى موضع خلوة، بعد أن يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير - عشر مرات في مصلاه - وهو ثان رجله قبل أن يقوم، ويقراً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأَخْلَاصُ ١، - عشرًا - قبل أن يتكلم، فقد اشترط ترك الكلام في هذين الحديثين اللذين وردا فيهما. ثم أتى ببقية ورده في بيته، أو في خلوته، وهو في ذلك مستقبل القبلة وهذا حينئذ أفضل له، وأجمع لقلبه، ولا يقدم على التسبيح لله عز وجل والذكر له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس إلا أحد معنيين، معاونته على بر وتقوى فرض عليه، أو ندب إليه ما يختص به لنفسه، أو يعود نفعه على غيره، ويكون ذلك أيضاً مما يخاف فوته بفوته وقته.

والمعنى الآخر يكون إلى تعلم علم، أو استماعه مما يقربه إلى الله تعالى في دينه وآخرته، ويزهده في الدنيا، والمسارة إلى العلماء بالله عز وجل والموثوق بعلمهم، وهم علماء الآخرة أولو اليقين والهدى الزاهدون في فضول الدنيا، ويكون في طريقه ذاكراً لله عز وجل، أو متفكراً في أفكار العقلاء عن الله عز وجل. فإن اتفق له هذان فالغدو إليهما أفضل من جلوسه في مصلاه، لأنها ذكر لله تعالى وعمل له وطريق إليه على وصف مخصوص ومندوب إليه، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الأنعام ٥٢، وقال النبي ﷺ: (من غدا من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك.

والغدو والغداة تكون قبل طلوع الشمس، وفي الخبر: (من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله عز وجل حتى يرجع، ومن خرج من منزله يلتمس علماً وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما صنع، واستغفر له دواب الأرض وملائكة السماء وطير الهواء وحيثان الماء). وفي حديث أبي ذر الغفاري: حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، أو من عيادة ألف مريض، قيل: ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهل تنفع قراءة القرآن إلا بعلم. فإن لم يتفق له أحد هذين المعنيين فقعوده في مصلاه أو في مسجد جماعته أو في بيته أو في خلوته، ذاكراً لله تعالى بأنواع الأذكار، أو متفكراً فيما فتح له

بمشاهدة هذه الأفكار في مثل هذه الساعة أفضل له مما سواهما. وقال عليه الصلاة والسلام: (لأن أقعد في مسجد أذكر الله عز وجل فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أعتق أربع رقاب)، وعن الحسن رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر من رحمة ربه أنه قال: (يا ابن آدم اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة، وبعد صلاة العصر ساعة، أكفك ما بينها).



الورد الثاني

فإذا ارتفعت الشمس وابتضت صلى الضحى ثمان ركعات، وهذا هو الوقت الذي ذكره الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ص ١٨. ثم ينظر فإن علم مريضاً عاده، وإن حضرت جنازة شيعها، وإن كانت معونة على بر وتقوى سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخ من إخوانه قضاها، وإن كانت فرضاً يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاح له فضل ندب إليه انتهزه قبل فوته. فهذا أفضل شئ يعمل به بعد الأذكار والأفكار من بعد طلوع الشمس، هذا هو الورد الثاني من النهار، وهو الضحى الأعلى الذي أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ الضحى ١، أى إذا أضحت الأقدام بحر الشمس.

وإذا كان العبد على ذلك فقد اتبع ما أنزل من ربه عز وجل وقد سمع قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الأعراف ٣، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا﴾ النمل ٩١ ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ﴾ النمل ٩٢، وكما قال تعالى: ﴿آتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، وصلاة الضحى في هذا الوقت أفضل - وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها - وقد خرج على أصحابه عليه الصلاة والسلام وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته: (ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال). وقوله الأوابين يعنى: التوابين في كل وقت.



الورد الثالث

ليأخذ العبد بعد ذلك فيما ندب إليه وأبيح له - من التصرف في معاش إن كان من تجارة بصدق، أو صناعة بنصح - إن أحوج إلى ذلك، وأدنى أحواله الصمت والنوم، فيها سلامة من الآثام ومخالطة الأنام، فقد جاء في العلم: يأتي على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم الصمت وأفضل أعمالهم النوم. ومن الناس من يكون أحسن أحواله النوم، وليت العبد يكون في اليقظة كالنوم، إذ في نومه السلامة، والسلامة متعذرة في يقظته، وإنما الفضائل للأفاضل الذين زادوا على السلامة والعدل بالإحسان والفضل، هذا لوجود الآفات في الأحوال، وخروج الإخلاص من الأعمال، وهذا هو الورد الثالث من النهار.



الورد الرابع

ثم يتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها، وهو من المحافظة عليها، والإقامة لها، فإن حصلت كفايته في يومه وقوته في وقت من النهار، ترك السوق ودخل بيته، أو قعد في بيت مولاه تعالى، واشتغل بخدمته متزوداً لعاقبته، وقد كان الصالحون كذلك يفعلون. وقال بعضهم: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاثة مواطن: مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة لا بد له منها. فإذا زالت الشمس فإن أبواب السماء تفتح للمصلين، والذاكرين، ويستجاب الدعاء للمؤمنين. وهذا هو الورد الرابع من النهار، فليصل الزوال أربع ركعات يطيل فيها القراءة ويحسنها، ولا يفصل بينها بتسليم - هذه الصلاة وحدها من بين صلاة النهار أربع ركعات بتسليم واحدة - وهذا الورد هو الإظهار الذي ذكر الله عز وجل الحمد فيه فقال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الروم ١٨، وليتق العبد الصلاة عند استواء الشمس في كبد السماء، وهو قبل الزوال عند تقلص الظل، وقيام ظل كل شئ تحته، فإذا زال الظل فقد زالت، وقد خفي استوائها في الشتاء لقصر النهار، ولعدول الشمس في سيرها عن وسط الفلك فتقطع عرضاً، فيكون أقرب لغروبها فليقدر ذلك تقريباً، ومقدار استوائها قبل زوالها نحو أربع ركعات بجزء من القرآن أو قدر جزء، وهو آخر الثالث، وإنما فيه ورد القراءة

والتسبيح والتفكير، وهو أحد الأوقات الخمسة التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيها، والأربعة الأخر:

عند طلوع الشمس حتى ترتفع قدر رحين في عين الناظر، وعند تدليها للغروب حتى تحتجب، وبعد صلاة الصبح، وبعد صلاة العصر.

وأحب له الإحياء ما بين الأذان والإقامة بالركوع لأنها ساعة مستجاب فيها الدعاء، وتفتح فيها أبواب السماء، وتزكو فيها الأعمال، وأفضل أوقات النهار أوقات الفرائض، فإن لم يقرأ بين الأذنين من درسه فاستحب له أن يقرأ في تنفله الآي التي فيها الدعاء، مثل آخر سورة البقرة وآخر سورة آل عمران، ومن تضعيف السور الإثني والثلاث مثل قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا﴾ الأعراف ١٥٥، ومثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ آل عمران ٨، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المتحنة ٤، وإن قرأ الآية التي فيها التعظيم والتسبيح والأسماء الحسنى فحسن، مثل أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ومثل آية الكرسي، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص ١، ليكون بذلك جامعاً بين التلاوة والدعاء، وبين الصلاة والتعظيم والمدح بالأسماء.

ثم يصلى الظهر في جماعة، ولا يدع أن يصلى قبلها أربعاً وبعدها أربعاً ركعتين بعد ركعتين، وهذا آخر الورد الرابع من النهار، وهو أقصر الأوراد وأفضلها.

الورد الخامس

فإن كان قد رقد قبل الزوال فلا يرقد في هذا الورد فإنه يكره له نومتان في يوم، كما يكره له نوم النهار من غير سهر الليل، وعن بعض العلماء: ثلاث يمقت الله عليها: الضحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، ونوم النهار من غير سهر الليل. وإن لم يكن قد رقد، فأحب أن ينام بين الظهر والعصر ليتقوى بذلك على قيام الليل، فلينام بعد الظهر لليلة المستقبل، ونومه قبل الظهر لليلة الماضية، فإن دام سهره بالليل واتصلت أوراده بالنهار

حسن أن ينام قبل الظهر لما سلف من ليله، وينام بعد الظهر لما غبر من الأخرى، إلا أنه لا يستحب أن يزيد في اليوم والليلة أكثر من نوم ثمانى ساعات، ومن الناس من يقول: إنه إن نقص من نومه هذا المقدار في اليوم والليلة اضطرب بدنه، لأن النوم قوة الجسم وراحته، قال الله سبحانه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ النبأ ٩، أى راحة، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ النبأ ١١، إلا أن يكون السهر عادة، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف فلا يقاس عليها.

وإحياء ما بين الظهر والعصر - وهو صلاة الغفلة - وهو يشبه بقيام الليل، ويستحب العكوف في المسجد بين الأولى والعصر للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة، فقد كان ذلك من سنة السلف، فكان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويًا كدوى النحل من التلاوة.

إلا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه، فالأسلم هو الأفضل، وكذلك إحياء الورد الثالث الذى هو بين الضحى الأعلى إلى زوال الشمس فوق هذا الفضل يدرك به العبد فوت قيام الليل، لأن الناس في هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا، وخدمة الهوى، والقلب المتيقظ لربه عز وجل يفرغ في هذين الوقتين، ويسكن، أو يجد العامل للعمل حلاوة، وللإقبال والتفرغ لذة، ويكون لفراغه من الخلق وشغله بالخائق مزيد وبركة، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ الفرقان ٦٢، أى جعلها خلفين يتعاقبان في الفضل، فيخلف أحدهما الآخر، فمن فاته شئ من الليل قضاه في هذين الوردين من النهار، أحدهما من الضحى الأعلى إلى الزوال، والثانى ما بين الأولى والعصر. والوجه الثانى أن النهار كله خلفه من الليل، فمن فاته شئ من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلاً، ومن فاته شئ من أورد النهار كان الليل خلفاً، إذ كل واحد منهما خلف من صاحبه ففيه درك ما فات، وخلف ما سلف من الذكر والشكر.

والذكر اسم جامع لأعمال القلوب كلها من مقامات اليقين، ومشاهدة العلوم من الغيب، والشكر أيضاً يستعمل على جعل أعمال الجوارح من شرائع الإسلام، وهذان جملة عمل

العبد وكنه خدمته، وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما الكليم للجليل في قوله تعالى: ﴿كُنْ نَسِيحًا كَثِيرًا ۖ وَذَكَرَكَ كَثِيرًا﴾ طه ٣٣-٣٤، انتظم التسبيح والذكر في جمل تصرف الجسم وتصرف القلب، وهذا هو الورد الخامس الذي هو ما بين العصرين، وهو أصيل النهار، وأحد الآصال التي ذكر الله عز وجل فيه سجود كل شيء، وقرنه بالغدو فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الرعد ١٥، فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات، والمؤمن الحي عن ربه معرض ذو غفلات.

ثم ليصل قبل صلاة العصر أربعاً، ويغتتم الصلاة بين الآذان والإقامة كما ذكرنا آنفاً، فإنها ساعة مرجوة فيها الإجابة.

الورد السادس

فإذا دخل وقت العصر دخل العبد في الورد السادس من النهار، وقد أقسم الله عز وجل به في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ العصر ١، وهذا أحد المعنيين في الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت في الآصال الذي ذكره الله عز وجل، وهو العشي الذي ذكر الله عز وجل التسبيح فيه والتنزيه والحمد له، فقال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الروم ١٨، وقال: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ص ١٨، وليس في هذا الورد صلاة إلا ما كان بين الآذنين، ثم ينتقل بعد العصر فيما شاء من ذكر أو فكر، من أعمال القلوب والجوارح فيما فرض عليه أو ندب إليه، وأفضل ذلك تلاوة القرآن بتدبر وترتيل وتفهم وحسن تأويل.

الورد السابع

فإذا اصفرت الشمس ومات حرها، وارتفعت إلى أطراف الجدر ورؤوس الشجر، فكانت مثلها حين تطلع، دخل في الورد السابع من النهار، فهذا للتسبيح والذكر والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس، ومن أفضل ما قيل في هذا الوقت وفي مثله من أول النهار

أن يقول العبد: أستغفر الله لذنبي، وسبحان الله بحمد ربي. لجمعه بين الاستغفار والتسبيح لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ غافر ٥٥، والأفضل الاستغفار على الأسماء كما في القرآن، مثل أن يقول: أستغفر الله إنه كان غفاراً، أستغفر الله إنه كان تواباً، أستغفر الله إن الله غفور رحيم، أستغفر الله التواب الرحيم، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. وهذا الورد في الفضل مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وهو المساء الذي ذكر الله تعالى التنزيه فيه قال: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الروم ١٧، وهو الطرف الثاني من النهار الذي أمر الله تعالى فيه بالتسبيح بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ طه ١٣٠.

ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ الشمس ١، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ الليل ١، والمعوذتين، وأن تغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار، فذلك مما أمر به في هذا الوقت من الأذكار، وكل ما يستحب من التسبيح والحمد والدعاء والذكر في أول النهار قبل طلوع الشمس، فإنه يستحب في هذا الورد قبل غروب الشمس، لأن الله تعالى قرنهما في الذكر فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ق ١٧، وقال تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ طه ١٣٠، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ آل عمران ٤١، وليقل عند آذان المغرب: اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعواتك، وحضور صلاتك، وشهود ملائكتك، صل على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته. ثم ليقل: رضيت بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً - ثلاثاً - وليقل مثله إذا سمع آذان الفجر، إلا أنه يقول: اللهم هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك. والنص بهذا في صلاة المغرب.

وكان الحسن البصرى يقول: كانوا أشد تعظيماً لليل منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة. فإذا توارت بالحجاب انقضت أورد النهار السبعة.

فانظر أيها المسكين ماذا انقضى لك معها، وماذا تقضى منك عندها، وماذا قضى عليك

فيها، فقد قطعت من عمرك مرحلة، ونقصت من أيامك يوماً فماذا قطعت في سفرك بقطع مرحلتك؟ وماذا ازددت في غدك بما نقصت من يومك؟ قال النبي ﷺ: (الناس غاديان، فغاد لنفسه فمعتقها، أو راهن نفسه فموبقها)، وقد قال تعالى في تصديق قول رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ الليل ٤، وقال سبحانه في معناه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ المدثر ٣٨-٣٩، وفي الخبر: لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: (إن الله عز وجل يبغض كل جعظري جواظ - أى سمين كثير الأكل - صخاب بالأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة).



ذكر أورادهم الليلية

وهي خمسة أوراد

الورد الأول

أن يصلى بعد المغرب ست ركعات، ويستحب ذلك قبل أن يكلم أحداً، يقرأ في الأولين ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الكافرون ١، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأخلص ١، وليسرع بهما في صلاة المغرب قبل أن يتكلم ويشتغل بشئ، وفي الخبر: أسرعوا بركعتين بعد المغرب فإنهما يرفعان معها. فإن كان منزله قريباً من مسجده فلا بأس أن يركعهما في بيته وليظل الأربعة الأخر، وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يستحب أن يصليهما الرجل في بيته - وكذلك كان يفعل - ويقول: هو سنة، لأنه روى أن النبي ﷺ كان يصليهما في بيته. ولكن بيت رسول الله ﷺ كان في مؤخر المسجد، وقد صلاهما في المسجد، ثم ليصل بين العشاءين ما تيسر إلى أن يغيب الشفق الثاني - وهو البياض الذى يكون بعد ذهاب الحمرة وبعد غسق الليل وظلمته، لأنه آخر ما بقى من شعاع الشمس في القطر الغربى إذا قطعت الأرض العليا، ودارت من تحت الطبقة السفلى من الأرض بالنسبة لنا مصعدة تطلب المشرق - فهذا هو الوقت المستحب لصلاة العشاء الآخرة، وهذا آخر الورد الأول من أوراد الليل، والصلاة فيه ناشئة - أى: ساعاته - لأنه أول نشوء ساعاته، وهو من الآناء التى ذكرها الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آئَاتِي اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ طه ١٣٠، فالآناء جمع آن، أى وقت منه فصل، وقيل: ناشئة الليل قيام الليل، وهذا وافق لسان الحبشة الذى يقول: نشأ، إذا قام. وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ الأنشاق ١٦، والشفق ما بين العشاءين.

وهى صلاة الأوابين، ويقال أيضاً: صلاة الغفلة، قال يونس بن عبيد عن الحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ السجدة ١٦، قال: الصلاة بين العشاءين، حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه - وقد سئل عن من نام بين المغرب والعشاء - فقال: لا تفعل، فإنها الساعة التى وصف الله عز وجل المؤمنين بالقيام فيها فقال عز وجل: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ السجدة ١٦، يعنى الصلاة بين المغرب والعشاء، وقد سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى:

﴿تَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ السجدة ١٦، قال: (الصلاة فيما بين العشاءين) ثم قال: (عليكم بالصلاة فيما بين العشاءين فإنها تذهب بملاغة أول النهار وتهذيب آخره) والملاغة جمع ملغاة من اللغو، أى: تسقط اللغو. ويستحب العكوف في المسجد بين العشاءين للصلاة وتلاوة القرآن، فقد روى فضل ذلك، إلا أن يكون بيته أسلم له لدخول آفة عليه، فما سلم فيه أفضل له.

الورد الثاني

ثم ليصل قبل العشاء الآخرة أربعاً، وبعدها ركعتين ثم أربعاً - وكان ﷺ يصلين في بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس - فإن صلى بعد الأربع ثلاث عشرة ركعة أخرهن الوتر إن أحب، فإن هذا العدد أكثر ما روى أن النبي ﷺ صلى به في الليل، إلا في خبر مقطوع - وهو سبع عشرة ركعة - والمشهور أنه كان يصلى إحدى عشرة ركعة، وثلاث عشرة ركعة. فإذا فعل ذلك لم يكتب من الغافلين، ودخل في أحوال العابدين، فقد قيل: إن الأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل، والأقوياء يأخذون أورادهم من آخر الليل. روى عنه ﷺ في السور التي لم يكن يدعها في كل ليلة أحاديث أشهرها: (أنه لم يكن ينام حتى يقرأ المسبحات في كل ليلة) وفي الخبر: كان رسول الله ﷺ يحب سبوح اسم ربك الأعلى. فهذا يدل على أنه كان يكثر قراءتها، ولا يدع أن يقرأ هذه الأربع سور في كل ليلة: سورة يس، وسورة لقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك. فإن لم يكن من عاداته القيام من الليل قدم الوتر بنية الخبر المروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصانى رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر. وإن كان معتاداً لصلاة الليل فالأفضل تأخير الوتر إلى آخر صلاته من تهجده، أو إلى السحر على حديث ابن عمر رضي الله عنه: صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة. وفي حديث عن عائشة رضی الله عنها: أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل، ومن أوسطه، ومن آخره، وانتهى وتره إلى السحر. فإن نام على وتر، ورزق القيام لم يوتر بعده، وكفاه وتره الأول لقوله ﷺ: (لا وتران في ليلة). وقال بعض العلماء: يصلى ركعة واحدة يشفع بها وتره من أول الليل، ثم يصلى صلاته من الليل، ويوتر آخر صلاته. وقد روى في هذا أثر عن سيدنا عثمان، وسيدنا علي رضی الله عنهما، وإن كان قد صلى ركعتين من جلوس بعد وتره الأول. ثم

استيقظ للصلاة شفعتا وتره لأنهما بمنزلة ركعة واحدة يشفع بها ركعة الوتر التي صلاها قبلها، ثم ليصل من الليل مستأنفاً ما بدا له، ثم يوتره بركعة واحدة في آخر صلاته، فيكون له في ذلك ثلاثة أعمال: قصد الأمل، وتحصيل الوتر، والوتر من آخر الليل، وكذلك كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتين جالساً بعد وتره يقرأ فيهما جالساً (سورة الزلزلة) وسورة ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ التكاثر^١، فقد جاء ذلك في حديثين أن النبي ﷺ كان يقرأ فيهما بذلك، لما في الزلزلة من التخويف والوعظ، وفي رواية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الكافرون^١، لما فيها من التنزيه من عبادة سوى المعبود، وإفراد العبادة لله سبحانه فيها بالتوحيد، وكان ﷺ يقرأها عند النوم، وأوصى رجلاً بقراءتها عند منامه.

وتقديم الوتر مستحب لمن لم يكن عادته قيام الليل، ولمن كان الأغلب عليه النوم، وتأخير الوتر يكون لمن أخر صلاته قبل طلوع الفجر أفضل، وليقل بعد التسليم من الوتر: سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، ملكت السماوات والأرض بالعظمة والجبروت، وتعززت بالقدرة، وقهرت العباد بالموت. يقول هذا ثلاث مرات، وهذا هو الورد الثاني من الليل - أعنى الصلاة بعد العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس - فقد أقسم الله عز وجل به في قوله: ﴿وَالَيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ الأنشقاق^{١٧}، أى: وما جمع من ظلمته، وذكره الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ الإسراء^{٧٨}، ثم ينام إن أحب وهو على طهارة وعن ذكر.

وقد كان الصالحون لا ينامون إلا عن غلبة، ويكرهون المتعمد للنوم وهو التهيؤ للعادة، وقد كان منهم من يمهد لنفسه بالنوم ليتقوى بذلك على صلاة أوسط الليل، وآخره، للفضل في ذلك. ومن غلبه النوم حتى شغله عن الصلاة والذكر فإن السنة أن ينام حتى يعقل ما يقول وينشط في خدمته، والخبر: لا تكابدوا الليل. وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلى من الليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهى عن ذلك وقال: (ليصل أحدكم من الليل ما تيسر، فإذا غلبه النوم فليرقد). وقال: (اكفلوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يميل حتى تملوا).

وقيل له: إن فلاناً يصلى الليل لا ينام، ويصوم الدهر لا يفطر، فقال ﷺ: (خير هذا

الدين أيسره، ثم قال: لكنى أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، فهذه سنتى، فمن رغب عن سنتى فليس منى). وقال ﷺ: (لا تشادوا هذا الدين، فإنه متين، فمن يشاده يغلبه، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله عز وجل).

الورد الثالث

والورد الثالث أن يكون بعد نومة الناس، وهو التهجد الذى ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ الإسراء ٧٩، وتلك النومة هى الهجوع الذى ذكره الله تعالى فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الذاريات ١٧، فالهجوع: النوم، والتهجع: القيام، فهذا أوسط الأوراد، وقد أقسم الله عز وجل به فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ الضحى ٢، وسئل رسول الله ﷺ: أى الليل أسمع؟ فقال: (جوف الليل الغابر).

الورد الرابع

والورد الرابع يكون بين الفجرين، أحدهما الفجر الأول وهو بدو سلطان شعاع الشمس - وهو فى اصطلاح الرجال أول ثلث الليل الآخر، قبل طلوع الفجر الأول على اصطلاح الفقهاء. وإنما هذا الفجر شعاع الشمس عند مرورها على السمتمت مقابل الأرض السفلى، وانحرفها عنه إلى القسم الشرقى بالنسبة لنا، فتسطع أشعة سلطان الشمس فى هذا الوقت حتى يحصل نور كنورها بعد غيبة الشفق الأحمر ووجود الشفق الأبيض، ثم يحصل بعده فحمة الليل عند انحدار الشمس إلينا، فالفجر الأول بعده - المصطلح عليه عند الفقهاء الذى يعبرون عنه بأنه شعاع كذيل السرحان (الذئب)، ثم يمتد من الشرق إلى الغرب فى الأفق فيكون هو الفجر الصادق - وهذا هو الورد الرابع الذى يعتبر من نصف الليل إلى وقت السحر الأول المعبر عنه بالفجر الأول عندها.

الورد الخامس

ثم يدخل السحر الأخير - وهو اشتداد فحمة الليل - وفيه يكون الورد الخامس، وفيه يستحب السحور، فمن لم يتسحر فى أوله بغتة الفجر، وهو قبل طلوع الفجر الثانى بمقدار

قراءة جزء من القرآن، وفي هذا الورد الخامس الاستغفار، وقراءة القرآن، وقد ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الإسراء ٧٨، قيل: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، لتوسط هذا الورد بينهما، فهذا الورد هو أقصر الأوراد ومن أفضلها، وهو من السحر الأول إلى طلوع الفجر الثاني، ويصلح في هذا الورد الخامس من السحر الأخير الصلاة لمن استيقظ من ساعته، أو لمن تم به صلاته، فالصلاة فيه لها فضل عظيم، ولأن معنى قوله عز وجل عند بعض المفسرين: ﴿وَبِاللَّأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الذاريات ١٨، أى: يصلون، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الإسراء ٧٨، يعنى الصلاة، فكفى بذلك القرآن والاستغفار عن الصلاة، لأنهما وصفان منها، وقد أمر بها سلمان أخاه أبا الدرداء ليلة أن زاره في حديث طويل رواه البخارى قال في آخره: فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له: نم، فنام، ثم ذهب ليقوم فقال له: نم، فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن، فقاما وصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، فاعط كل ذى حق حقه. وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت - سلمان إنه لا ينام الليل، قال: فأتيا النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: (صدق سلمان).

وهذا في الورد الخامس يشبه الورد السابع من النهار قبل الغروب - في فضل وقتيهما - وهذا قبل الفجر الثاني، والفجر الثاني انشقاق شفق الشمس، وهو بدو بياضها الذى تحته الحمرة وهو الشفق الثاني على ضد غروبها، لأن شفقها الأول من العشاء وهو الحمرة بعد الغروب وبعد الحمرة البياض، وهو الشفق الثاني من أول الليل، وهو آخر سلطان الشمس، وبعد البياض سواد الليل وغسقه، ثم ينقلب ذلك إلى الضد فيكون بدو طلوعها الشفق الأول، وهو البياض، وبعده الحمرة وهو شفقها الثاني وبعده طلوع قرص الشمس.

فإذا طلع الفجر فقد انقطعت أوراد الليل الخمسة، ودخلت أوراد النهار، فانظر هل دخلت في دخوله عليك في جملة العابدين؟ أم خرج عنك وأنت فيه من الغافلين؟ وأفضل ما عمل العبد في ورد من أوراد الليل والنهار - بعد القيام بفرض يلزمه، أو قضاء حاجة لأخيه المؤمن يعينه - الصلاة بتدبر الخطاب، ومشاهدة المخاطب، فإن ذلك يجمع العبادة كلها، ثم

بعد ذلك التلاوة بتيقظ عقل وفراغ هم، ثم أى عمل فتح له فيه من فكر أو ذكر برقة قلب، وخشوع جوارح، ومشاهدة غيب، فإن ذلك أفضل أعماله في وقته.

ذكر وقت الفجر وحكم ركعتيه وحكم الوتر

وفي الشهر ليلتان يعتبر بهما وقت الفجر، إحداهما يطلع القمر فيها عند طلوع الفجر الأول - وهى ليلة ست وعشرين - والأخرى يغيب القمر فيها عند طلوع الفجر - وهى ليلة اثني عشرة من الشهر - وهذا الورد الأول من النهار، ووقت الأداء للوتر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر الثانى. فإذا طلع الفجر الثانى فقد ذهب وقت الأداء - وهو وقت القضاء للوتر - فليصل الوتر حينئذ من لم يكن أداه إلى قبل صلاة الصبح، فإذا صلى الصبح ذهب وقت قضاء الوتر أيضاً، ووقت الأداء لركعتي الفجر إذا طلع الفجر الثانى فالمستحب له أن يصليهما في منزله، وقبل صلاة الغداة، والسنة أن يخففهما، فإذا صلى الصبح ولم يكن صلاحهما فقد ذهب وقت الأداء وبقي له وقت القضاء، فليمهل حتى تطلع الشمس وتحل الصلاة، وهذا وقت القضاء لركعتي الفجر إلى صلاة الظهر، فإذا صلى الظهر ولم يكن صلاحهما فقد ذهب وقت قضائهما أيضاً. ومن فاته ورد من الأوراد، فاستحب له فعل مثله في وقته، أو قبله إذا ذكره - لا على وجه القضاء فإنه لا يقضى إلا الفرائض - ولكن على وجه التدارك ورياضة النفس بذلك ليأخذ بالعزائم كى لا يعتاد التراخى والرخص، ولأجل الخبر المأثور: أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل. وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ في أنه قال: (من عبد الله تعالى عبادة ثم تركها ملالة مقتته الله تعالى. وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا غلبه النوم أو عاقه مرض فلم يقم في تلك الليلة صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة، ومن دخل المسجد لصلاة الصبح، ولم يكن صلى ركعتي الفجر في منزله صلاحهما وأجزأتا عنه تحية المسجد، ومن كان قد صلاحهما في بيته نظر: فإن كان دخوله المسجد بغلس عند طلوع الفجر واشتباك النجوم صلى ركعتين تحية المسجد، وإن كان دخوله عند انمحاق النجوم ومسفرأ عند الإقامة قعد ولم يصل ركعتين، لئلا يكون جامعاً بين صلاة الصبح وبين صلاة قبلها. ولا يصلى بعد طلوع الفجر الثانى شيئاً إلا ركعتي الفجر فقط.

ومن دخل المسجد ولم يكن صلى ركعتي الفجر، فإن كان قبل الإقامة صلاهما، وإن دخل وقت الإقامة وافتتح الإمام الصلاة فلا يصليهما، وليدخل في الصلاة المكتوبة فإنه أفضل، والنهي فيه روى عن رسول الله ﷺ: (إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة). وليقل من قعد في المسجد من غير صلاة ركعتين تحية المسجد: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر - أربع مرات - فإنها عدل ركعتين في الفضل.

* * *

الفصل الثالث

أهل الفرقة الناجية هم الحامدون الحمد عند أهل الفرقة الناجية

الحمد هو وصف المحمود سبحانه بصفات كماله التي تملأ القلب رهبة وذلماً، وصفات جلاله التي يكون العبد بها خائفاً من مقام ربه، خاضعاً لجناحه العلى، وصفات جماله التي تجذب الأرواح بخالص المحبة، وصحيح الرضا عن الله سبحانه وتعالى، ولذلك فقد عرف العلماء الحمد بأنه الثناء على الجميل الاختياري، وخصه بعضهم بأن لا يكون إلا باللسان، بخلاف الشكر، فإنه ثناء على نعم، فالحمد على كمال وجمال وجلال ذاتي، والشكر على نعم تفاض، ولذلك فلا يحمد في الحقيقة إلا الله تعالى، لأن كل أحد سوى الله تعالى لا كمال له ولا جمال له ولا جلال له من ذاته، وكل كمال وجمال وجلال ينسب إلى غير الله فهو من الله سبحانه وتعالى إيجاداً وإمداداً، وهو - وإن كان في نظر الخلق يعتبر شيئاً - يثنى به على من اتصف بحقيقته، إلا أنه في الحقيقة ونفس الأمر ناقص وزائل، ولكن كمالات الله لا تتناهى ولا بداية لها، وحده سبحانه وتعالى بقدر صفات كماله التي لا تحصى ولا تعد. قال رسول الله ﷺ: (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وقال ﷺ: (لك الحمد اللهم ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شئ بعد) وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ غافر ٦٥، الإشارة إلى كلمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة ٢، هي حقيقة التوحيد، ولب العبادة لله سبحانه، ومفتاح كنز العطايا الإلهية، لأن قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة ٢، الذى هو افتتاح سورة الفاتحة - التى هى السبع المثانى، والقرآن العظيم، وحقيقة الصلاة التى نصفها الله تعالى ونصفها لنا - دليل على أن هذه الكلمة هى روح التوحيد، والسر الذى لأجله خلق الله السماوات والأرض، بل خلق لأجله كل شئ، لأنها حقيقة العبادة المرادة لجناحه العلى فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦.

التوحيد الحقيقى ولبه

إن التوحيد لا يكمل حقاً، ولا تنكشف أسراره الخفية إلا بالتوحيد العلمى، الذى ينحصر فى إثبات الكمال والجلال والحمد، ونفى الشبيه والضد والند، وتنزيه الجناح المقدس عن النقائص والعيوب، وهذا هو لب التوحيد، الذى بعلمه تنكشف مقامات التوحيد، وتشرق أنواره لعيون القلوب، وتلوح غوامض لعيون الأرواح، وتحصل المواجهة للسر، وهذه المقامات العلية التى تتفاوت فيها منازل كمل الصديقين، قد تجلت مجملة فى كلمة واحدة ومفصلة فى أسماء الله الحسنى، فالكلمة التى أجملت فيها تلك المقامات كلها هى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢، لأن مدلولها الثناء على الله بالكمالات الذاتية، والجلال والجمال الذاتيين.

وبقدر شهود العبد لتلك المعانى يكون حمده لله تعالى، فلا يقول العبد الكامل: الحمد لله، إلا وقد واجهه الحق بالكمالات التى تملأ القلب رهبة وذلاً وخشوعاً، وانكساراً، والجلال الذى يذيه خوفاً من مقام ربه وخشوعاً لأمره، والجمال الذى يجذب روحه بالمحبة الخالصة والرضا عنه سبحانه.

فهى حرف ولكنها كنز محيط، إذا تجلت أنواره تجمل قائلها المكاشف بمعانيه بمقامات القرب بعد الحب، والمؤانسة بعد الخوف، والفضل العظيم بعد الخشية، وتروح بروح محبة الله له، وريحان وده سبحانه وتعالى، وهى الكلمة التى يقولها أهل الجنة بعد أن يحل عليهم سبحانه رضوانه الأكبر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس ١٠.

ولو سأل سائل: كيف يتضمن الحمد كل تلك المعانى؟ فأقول: إن الحمد يتضمن مدح

المحمود - كما قدمت في التعريف - بكماله وجماله وجلاله، مع خالص المحبة والرضا عنه، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود تعالى، ولا من أعرض عن محبته سبحانه، ولا من خالف أمره عز وجل، فإن جاحد صفات المحمود كافر، والمعرض عن محبته جاهل به، والمخالف لأمره متهاون بجلاله، كل تلك المعانى التى شنع الله تعالى بها على من لم يحمده دليلاً على أنهم لم يوحده توحيداً حقاً، وإلا لو أنهم وحدوه حقاً لحمدوه حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما حمده عباده المخلصون، ولما كان سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ سيد رسل الله - وكان الحمد كما قررت هو أكمل ما أتى الله به على نفسه، وأمر به عباده المؤمنين - كان ﷺ حاملاً لواء الحمد يوم القيامة، تحته كل رسل الله على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وأتمته ﷺ، كما ورد في الحديث الصحيح.

وقد ورد وصفنا - أهل الإسلام - في التوراة بأننا الحامدون، وحقاً، لأن الله تفضل علينا فجعلنا نحمده في السراء والضراء، فنحمده في السراء لشهود جماله العلى، ونحمده في الضراء لتحققنا بشهود جلاله الربانى، فله الحمد في الشدة والرخاء، والشكر في الدنيا والآخرة.

وحمد الله سبحانه وتعالى حقاً لا يحصيه إلا الله تعالى، لعلمه بكماله سبحانه، وبجماله وجلاله تنزه وتعالى. ولما كان الإنسان - كائناً من كان - لا يحصى كمالات الله تعالى، كان حمده بقدر مشهده، ولذلك يقول ﷺ: (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وهو أعلم الخلق جميعاً بالله سبحانه وتعالى.

قررت أن الحمد مجمل التوحيد، وأنه حقيقة التوحيد العلمى وتفصيله علم الأسماء كلها، ولا يكون التوحيد العلمى إلا بالأخبار والمعرفة، وأما التوحيد الإرادى فإنه يكون بالقصد والإرادة، وعندى: أنه النور الذى يجعله الله فى قلب المؤمن ينجذب به إلى طلب الله تعالى، والبحث عن العارف الذى يتلقى عنه العلم بالله وبأحكامه وبأيامه، مع التسليم بعد التبصرة.

ومن تدبر فى آيات القرآن التى ذم الله بها آلهة الكفار يظهر له جلياً أن الذم محصور فى إثبات نقائص الأصنام وسلب صفات الكمال عنهم، انظر إلى قول الخليل على نبينا وعليه أفضل

الصلاة والسلام فيما أخبر الله عنه بقوله: ﴿يَتَأْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ مريم ٤٢، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَمْ يَرَآ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ الأعراف ١٤٨، فذمهم الله بأنهم اتخذوا إلهًا ناقصًا لم يتصف بصفات الكمال والجمال ولا الجلال، مع أنهم متصفون بما لم يتصف به هو، فالعاقل لا يتخذ إلهًا دونه في الكمال، بل لا بد وأن يبحث عن الإله المعبود بحق، المتصف بالكمال والجمال والجلال حقًا.

ولولا أنى قررت العقيدة فيما سبق لى من الكتب مبينة بقدر السالك في كل مقام بحسب منزلته من السلوك، وقوته من العقل والإدراك، وقررتها في أول كتابى هذا مناسبة لمقام أهل اليقين، لبينت ما يؤخذ من قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢، من حقيقة التوحيد وغوامض أسرارها، والله سبحانه وتعالى يمنحني وإخواني جميعاً روح اليقين الحق، ويريحان الحب الخالص لله تعالى ولرسوله ﷺ، حتى تتجلى لنا حقائق التوحيد مشرقة في لطائف قلوبنا فنكون من الحامدين، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الحامدون من أهل الفرقة الناجية

قبل أن نتكلم عن مقاماتهم، نقدم لك مقدمة تكون كسراج تستضيء به في فهم ما سأورده عليك، ولا تنزعج يا أخى من قولى: سأورده عليك، ولم أقل: ما أورده الله على، لأنى أحقر من أن أدعى هذا المقام، ولكنه اجتهادى، فإن كان حقاً فهو وارد من الله تعالى، وله الحمد والشكر، وإن لم يكن حقاً فهو من عجلتى ومن عجلة الشيطان بى، أسأل الله أن يغفر لى عجلتى، ويرزقنى وإياك الأدب مع جنابه العلى، والخشية من جلاله تعالى.

معلوم أن الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد قول باللسان عن شهود للكلمات، فهو شكر لأنه عمل بجارحة، وثناء على جميل، والشكر أخص منه من حيث أنه ثناء بعمل الجوارح على نعم، ولما كان الحمد هو خالص الشكر، ولب لبابه، لأن الشاكر على النعمة لا يكون شاكرًا حقاً عند الله تعالى إلا إذا كان شكره للمنع من شهود معنى الوصف المتجلى، لا للفرح بما آتاه الله بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾

الأنعام ٤٤ وبدليل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُواْ آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ سيأ ١٣، فالحمد يدل على الشكر التزاماً أو تضمناً، والشكر لا يدل على الحمد، لأن مورد الحمد اللسان، واللسان واحد والمحمود سبحانه واحد، ومصدر الشكر الجوارح، وهى كثيرة. ولذلك صح للعبد المؤمن أن يشكر غير الله تعالى، وحرّم عليه أن يحمّد غير الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَأَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ لقمان ١٤، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الروم ١٨، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ سيأ ١، فجعل سبحانه الحمد خاصاً لذاته دون غيره، فحمد نفسه سبحانه بنفسه، وأمر خلقه بحمده، ثم سمى نفسه الشكور، وشكر عباده المخلصين بنص قوله ﷺ: (شكر الله له) في الحديث الطويل.

وفي قول أم المؤمنين رضى الله عنها عندما أمرها الصديق ﷺ بقوله: احمدي رسول الله، قالت: لا أحمد إلا الله. فأقرها رسول الله ﷺ على ذلك، ورضيه منها، دليل لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

فالشكر لا يكون شكراً إلا بعد الحمد الذى هو عن شهود، أو علم أن الكمال والجمال والجلال خاص لله تعالى، وأنه لا افتتاح لأوليته ولا نهاية له، ولذلك يحسن الشكر بعد التحقق بالتوحيد العلمى، فيكون الشاكر عابداً لله تعالى كما قدمت في شرح قوله تعالى: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾ التوبة ١١٢، فالحمد خالص التوحيد، والشكر العمل بمشهد التوحيد، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أتنى على كمال عباده بقوله: ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ التوبة ١١٢.

إذا تقرر ذلك، فالحامد حقاً من تجلت له معانى كمالات المحمود سبحانه، وظهرت له أسرار جماله وجلاله، حتى بلغ به العلم مبلغاً وقع به على عين اليقين، فتحقق أن الحمد حقاً لا يكون إلا لله تعالى فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢، عن شهود ووجود، وبعد تحققه بحقيقة التوحيد القصدى الذى به تتجلى له معانى صفات الرب جل جلاله مفصلة مشرقة أنوارها في الآيات، ظاهرة مقتضياتها في الكائنات، ولديها يكون حامداً شاكراً، متجماً بخالص محبة الله متحلياً بكمال الرضا عن الله، عاملاً مخلصاً من كمال عمال الله، صورة كاملة محمدية ظاهراً

وباطناً، مخصوصاً بأن يكون تحت لواء الحمد مع رسول الله ﷺ، ومع من تحته من أولى العزم عليه وعليهم الصلاة والسلام، والرسول الكرام والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيكون ممن بشرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ النساء ٦٩، كل ذلك لم يكن إلا بما تفضل الله تعالى به عليه من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢ قولاً باللسان بلفظ مجمل، وشهوداً بالجنان لمعان تفصيلية، فيكون بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢ كأنه شهد معانى صفات الله المحسنى شهوداً يجعله يتحقق بمقام التوحيد، ويتحلى بحلى التنزيه والتفريد.

فهى كلمة خفيفة على اللسان، ولكنها ثقيلة في الميزان لما تضمنته من إثبات صفات الكمال والجمال والجلال، ونفى أضعافها، والحمد اتصل نسبه بربه، لأنه تخلق بخلق من أخلاق الله تعالى، وذلك الخلق هو اتصافه بأنه حامد، فإن الله متصف بالحمد لحمده لنفسه، والحمد لله متصف بها اتصف به الله تعالى.

وتقدم لى أن الله يحب صفاته ويجب من اتصف بها، فيكون الحمد متصفاً بأخلاق الله محبوباً لله، قال ﷺ: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). فإذا كانت هاتان الكلمتان حبيبتين إلى الرحمن فإن قائلها حبيب إلى الرحمن لأنه وفقه لما يجب من القول، ولا يوفق سبحانه لما يجب من القول إلا من يحبه سبحانه، فالحامدون لم يوصفوا بهذا المقام العلى إلا بعد أن تحققوا بكمال التوحيد علماً وإرادة، وبكمال العبادة شكراً وإنابة.

وأنت أيها الأخ - ودنى الله وإياك بروح منه وجعلنى وإياك من الحامدين - إذا تحققت بتلك المعانى كلها يمكنك أن تعلم مقدار ما تفضل الله به عليك من عظيم النعمة، وعميم المنة، فترى نفسك عاجزاً عن شكره بقولك: الحمد لله، لأن قولك: الحمد لله، أعظم نعمائه وأفضل آلائه، إذا قلتها عن علم يقين - كما قررت - أو عين يقين - كما صرحت - أو حق يقين - كما أشرت - فإنها بشرى من الله لك بأنك محبوب حضرته. ومراد جنابه العلى، ومخصوص منه بحقيقة الولاية والعناية والإقبال، وإذا تحققت بذلك فافرح يا أخى بفضله

ورحمته، فرحاً عن رهبة من عظمته وخشية من جلاله، ورغبة في المزيد من فضله، حتى يكون فرحك ممزوجاً بالرهبة والخشية، تدعو إليه الرغبة فيكون القلب منكسراً خشية ورهبة، والفؤاد منبسطاً رغبة وفرحاً، والبدن مسارعاً إلى الشكر، معتقداً العجز عن القيام بشكر بعض النعمة، ولديها تكون عند الله من الحامدين، وعند رسول الله ﷺ وعند العلماء الربانيين.

وإذا كان العبد لا يحمد ربه ولا يشكره إلا على نعمة مطعم ومشرب ومنكح، فقد جهل كمالات ربه وجلاله وجماله، وعميت عين بصيرته عن سوابغ النعم عليه، مما لا يحصيه الخلق أجمعون، فإن نعم الله محيطه بك - أيها العبد - من العرش إلى الفرش وظاهرة في ذاتك ظهوراً جلياً، لو نظرت في نفسك وفي الآفاق لعلمت - بقدرك - أنك مغمور بنعم لا تحصى، وأنت عاجز عن الثناء على الله على نفس تتنفسه، أو ضوء تبصره، أو كلمة تسمعها، فكيف بما هو فوق ذلك من النعم الظاهرة والباطنة؟! فأدم شكر الله تعالى وحمده تمنح المزيد من فضله، والله يوفقنا وإياك لدوام حمده وشكره، إنه مجيب الدعاء.

ولما كان الحامدون لهم إشراف بالعلم أو بالعين على أنوار الكمال والجمال والجلال، ومقتضيات ذلك كانوا كثيرى الحمد لله تعالى في كل حال وشأن، لشهودهم نعم الله الظاهرة فيما يلائمهم، ونعمه الخفية فيما لا يلائمهم، فهم يشهدون النعمة في حالة النعمة فيحمدون الله تعالى على ما يشهدونه من النعم المتجلية لبصائرهم بعلم أو عين اليقين، وإن خفيت عن أبصار الغافلين الذين ران الحظ والهوى على قلوبهم، كما ورد عن رسول الله ﷺ في الحديث الطويل أرويه بالمعنى لا باللفظ: أن المؤمن يقول في السراء: الحمد لله على ما أنعم، وفي الضراء: الحمد لله على كل حال.

فالمؤمن الكامل يشهد نعم الله تعالى فيما يصيبه من البلايا، وقد ورد أن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه جلس أخوه بجانبه وهو على سريرته في مرضه وبكى، فقال: (ما يبكيك؟ قال: أبكى لمرضك، فقال: ادنه، فدنا منه حتى وضع أذنه على فمه فقال: إن الله يرسل السلام لى على لسان ملك من الملائكة كل يوم، ثم حمد الله حمد من تمنع بالعافية وزيادة، وطلبوا منه أن

يكوى فقهره حتى اكتوى، فقال لأخيه: أن جبريل كان يجالسنى فلما اكتويت انصرف
عنى)، وأبى أن يكتوى بعد، فجالسه الملك بعد.

تراجم بعض الحامدين

وهنا يحسن بى أن أذكر لك تراجم بعض الحامدين، لتعلم حقيقة الحمد عن علم أو عين
اليقين، وتعتقد أن قول من ملأ بطنه من الخبز والماء البارد والأدم: الحمد لله، فإذا جاع
سخط، أو ابتلى مقت، ليس بحمد، وإنما هو حمد البهائم، كببصة الكلب عند إعطائك له
اللقمة، وكجمع الدجاج عند نشر الحبوب، فإذا شبعت وطلبت واحدة منها فرت على
الجدران، أسأل الله تعالى أن يتفضل علينا بفضله الذى نكون به من الحامدين له سبحانه،
الحمد الذى يرضيه عنا جل جلاله، إنه مجيب الدعاء.

سعد بن معاذ بن النعمان

أسلم ﷺ بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدى مصعب بن عمير، وعند إسلامه
قال لبنى عبد الأشهل: (كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا) فأسلموا، فكان
من أعظم الناس بركة فى الإسلام، وشهد بدرًا وأحداً والخندق، ورمى يوم الخندق بسهم
فعاش شهراً ثم انتفض جرحه، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بضرب فسطاط فى المسجد
لسعد بن معاذ فكان يعود فى كل يوم حتى توفى سنة خمس من الهجرة، عن جابر قال: روى
يوم الأحزاب سعد بن معاذ فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ فانتفخت يده، ونزفه
الدم، فلما رأى ذلك قال: اللهم لا تخرج نفسى حتى تفر عينى فى بنى قريظة، فاستمسك
عرقه فما قطرت قطرة حتى نزل بنو قريظة على حكمه، وكان حكمه أن يقتل رجالهم ويسبى
نساءهم، وذريتهم يستعين بها المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: (أمضيت حكم الله فيهم)،
وكانوا أربعائة، فلما فرغ من قتلها انفتق عرقه، فتوفى ﷺ.

وروى من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ أنه قال: (لقد نزل الملائكة فى
جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً ما وطئوا الأرض) وروى من حديث أنس بن مالك قال:

لما حملنا جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، وكان رجلاً طويلاً ضخماً، فقال رسول الله ﷺ: (إن الملائكة حملته). وعن عائشة رضى الله عنها قالت: في بنى عبد الأشهل ثلاثة، لم يكن بعد النبي ﷺ من المسلمين أحد أفضل من سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر. وقال رسول الله ﷺ: (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ). وقال رسول الله ﷺ في حلة رآها سيرا: (لمنديل من مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها). وقال له - لما حكم في بنى قريظة بقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية-: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)، عن عبد الله بن أبي بكر قال: مات سعد بن معاذ من جرح أصابه يوم الخندق شهيداً، قال: فبلغني أن جبريل ﷺ نزل في جنازته معتجراً بعمامة من إستبرق وقال: يا نبي الله من هذا الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ فخرج رسول الله ﷺ يجر ثوبه فوجد سعداً قد قبض. وقال رجل من الأنصار: وما اهتز عرش الله من موت هالك علمنا به إلا لسعد أبي عمرو.

عن ابن عباس قال: قال سعد بن معاذ: ثلاث أنا فيهن رجل - يعنى كما ينبغى - وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس: ما سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً قط إلا علمت أنه حق من الله، ولا كنت في صلاة قط فشغلت نفسي بغيرها حتى أقتضيها، ولا كنت لمحي جنازة قط فحدثت نفسي بغير ما تقول ويقال لها حتى أنصرف عنها. قال ابن المسيب: هذه الخصال ما كنت أحسبها إلا في نبي .

سلمان الفارسي

مولى رسول الله ﷺ، ويعرف بسلمان الخير، أصله من فارس من رام هرمز، وكان إذا قيل له: ابن من أنت؟ قال: أنا سلمان بن الإسلام من بنى آدم، وكان سلمان يطلب دين الله تعالى، ويتبع من يرجو ذلك عنده، فدان بال نصرانية وغيرها، وقرأ الكتب، وصبر في ذلك على مشقات نالته، وذلك كله مذكور في خبر إسلامه، وذكر البخاري في صحيحه عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي أنه تداوله في ذلك بضعة عشر رباً (سيداً) من رب إلى رب، حتى أفضى إلى النبي ﷺ، ومن الله عليه بالإسلام.

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن سلمان الفارسي أتى إلى رسول الله ﷺ بصدقة فقال: هذه صدقة عليك وعلى أصحابك، فقال: (يا سلمان إنا أهل البيت لا نحل لنا الصدقة، فرفعها. ثم جاءه من الغد بمثلها فقال: هذه هدية، فقال ﷺ لأصحابه: كلوا) فاشتراه رسول الله ﷺ من قوم من اليهود بكذا وكذا درهما، وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخيل، يعمل فيها سلمان حتى تدرك، فغرس رسول الله ﷺ النخل كله إلا نخلة واحدة غرسها عمر رضي الله عنه، فأطعم النخل كله إلا تلك النخلة، فقال رسول الله ﷺ: (من غرسها؟ فقالوا: عمر، فقلعها رسول الله ﷺ وغرسها بيده فأطعمت من عامها) وذكر معمر عن رجل من أصحابه قال: دخل قوم على سلمان - وهو أمير على المدائن وهو يعمل الخوص - فقيل له: تعمل وأنت أمير يجري عليك رزق؟ فقال: إني أحب أن آكل من عمل يدي، وذكر أنه تعلم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه. أول مشاهدته الخندق، وهو الذي أشار بحفره، فقال أبو سفيان وأصحابه إذا رأوه: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها. وقد قيل: أنه شهد بدرًا وأحدًا إلا أنه كان عبدًا يومئذ، والأكثر أن أول مشاهدته الخندق، ولم يفته بعد ذلك مشهد مع رسول الله ﷺ، وكان خيرًا فاضلاً حبراً عالماً زاهداً متقشفاً.

ذكر هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها. وعن مالك قال: كان سلمان يعمل الخوص بيده فيعيش منه، ولا يقبل من أحد شيئاً، قال: ولم يكن له بيت، وإنما كان يستظل بالجدر والشجر، وأن رجلاً قال له: ألا أبنى لك بيتاً فيه تسكن؟ فقال: ما لي به حاجة، فما زال به الرجل حتى قال له: إني أعرف البيت الذي يوافقك، قال: فصفه لي، قال: أبنى لك بيتاً إذا أنت قمت فيه أصاب رأسك سقفه، وإن أنت مددت فيه رجلك أصابهم الجدار، قال: نعم، فبنى له بيتاً كذلك.

وروى عن النبي ﷺ قال: (لو كان الدين عند الثريا لناله سلمان) وفي رواية أخرى: (لناله رجال من فارس) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله ﷺ.

وروى من حديث ابن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: (أمرني ربي بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم، علي، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان رضي الله تعالى عنهم)، عن أبي هريرة قال: كان سلمان صاحب الكتابين، قال قتادة: يعني الإنجيل والفرقان، وسئل سيدنا علي عليه السلام عن سلمان فقال: علم العلم الأول والآخر بحر لا ينزف، وهو منا آل البيت، وعن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: سلمان الفارسي مثل لقمان الحكيم، وقال كعب الأحبار: سلمان حشى علماً وحكمة.

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ وأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: (يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك جل وعلا) فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك.

وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين أبي الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة، فقال: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك ليس له حاجة في شئ من الدنيا، قال: فلما جاء أبو الدرداء رحب بسلمان وقرب له طعاماً، فقال سلمان: أطعم، قال: إنى صائم، قال: أقسمت عليك. إلا ما طعمت، إنى لست بأكل حتى تطعم، قال: وبات سلمان عند أبي الدرداء، فلما كان الليل قام أبو الدرداء فحبسه سلمان وقال: يا أبا الدرداء إن لربك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، قال: فلما كان وجه الصبح قال: قم الآن، قال: فقاما فصليا ثم خرجا إلى الصلاة، قال: فلما صلى رسول الله ﷺ قام إليه أبو الدرداء وأخبره بما قال سلمان، فقال رسول الله ﷺ مثل ما قال سلمان.

أنس بن مالك

أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، وأحد المكثرين من الرواية عنه، صح عنه أنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين، وأن أمه أم سليم

أتت به النبي ﷺ لما قدم فقالت له: هذا أنس غلام يخدمك فقبله، وأن النبي ﷺ كناه: أبا حمزة ببقلة كان يجتنيها، ومازحه النبي ﷺ فقال له: (يا ذا الأذنين)، وقال محمد بن عبد الله الأنصاري: خرج أنس مع رسول الله ﷺ إلى بدر وهو غلام يخدمه. عن أبي خلدة قال: قلت لأبي العالية: أسمع أنس من النبي ﷺ قال: خدمه عشر سنين، ودعا له النبي ﷺ، وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين، وكان فيه ريحان، ويحیی منه ریح المسك، وكانت إقامته بعد النبي ﷺ بالمدينة، ثم شهد الفتوح، ثم قطن البصرة ومات بها. عن إسحاق بن عثمان قال: سألت موسى بن أنس: كم غزا أنس مع النبي ﷺ؟ قال ثمانى غزوات. قال ثابت البناني: قال لى أنس بن مالك: هذه شعرة من شعر رسول الله ﷺ فضعها تحت لساني، قال: فوضعها تحت لسانه، فدفن وهي تحت لسانه، ومات سنة تسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة، وقيل غير ذلك.

عن أنس قال: قالت أم سليم: يا رسول الله ادع الله لأنس، فقال: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه) فقال أنس: إني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً، ويقال: إنه ولد لأنس بن مالك ثمانون ولداً منهم ثمانية وسبعون ذكراً، وابنتان، إحداهما تسمى حفصة، والثانية تكنى أم عمرو. وعنه رضي الله عنه: جاءت بي أم سليم إلى النبي ﷺ وأنا غلام فقالت: يا رسول الله، أنس، ادع الله له، فقال النبي ﷺ: (اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة) قال: قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة. وقال جعفر بن سلمان عن ثابت: كنت مع أنس فجاء قهرمانه فقال: أبا حمزة عطشت أرضنا، قال: فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا، فرأيت السحاب تلتئم، قال: ثم أمطرت حتى ملأت كل شئ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال: أنظر أين بلغت السماء، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيراً وذلك في الصيف. وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم - يعني أنساً. عن موسى بن أنس أن أبا بكر لما بعث إلى أنس ليوجهه إلى البحرين على السعاية، فدخل عليه عمر فاستشاره فقال: ابعث، فإنه لبيب كاتب، قال: فبعثه.



أبو ذر الغفارى

واختلف فى اسمه، فقيل: جندب بن جنادة، وهو أكثر وأصح ما قيل فيه، وقيل: بزير ابن عبد الله، وبزير جنادة، وبزير بن عسرة، وقيل غير ذلك، وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار الغفارى، كان من كبار الصحابة قديم الإسلام، يقال: أسلم بعد أربعة - فكان خامساً - ثم انصرف إلى بلاد قومه فأقام بها حتى قدم على النبى ﷺ المدينة، وله فى إسلامه خبر حسن.

رواه البخارى عن أبى حمزة عن ابن عباس قال: لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ بمكة قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادى واعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتنى. فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قوله ﷺ، ثم رجع إلى أبى ذر فقال: رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق، وسمعت منه كلاماً ما هو بالشعر فقال: ما شفيتنى فيما أردت. فتزود وحمل شنة له حتى قدم مكة.

فأتى المسجد فالتمس النبى ﷺ وآله ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل فاضطجع، فرآه سيدنا على بن أبى طالب ﷺ فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: نعم: قال: انطلق إلى المنزل، فانطلقت لا يسألنى عن شىء ولا أسأله، قال: فلما أصبحت من الغد رجعت إلى المسجد فبقيت يومى حتى أمسيت، وصرت إلى مضجعى، فمر بى على فقال: أما أن للرجل أن يعرف منزله؟ فأقامه وذهب به معه وما يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك، فأقامه على ﷺ معه، ثم قال له: ألا تحدثنى ما الذى أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى ففعلت، فأخبره سيدنا على ﷺ أنه نبى، وأن ما جاء به حق، وأنه رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعنى، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء، فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل معى مدخلى. فقال: فانطلقت أقفوه حتى دخل على رسول الله ﷺ، دخلت معه وحييت رسول الله ﷺ وآله بتحية الإسلام فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فكنت أول من حياه بتحية الإسلام، فقال: وعليك السلام، من أنت؟ فقلت: رجل من بنى غفار، فعرض على

الإسلام فأسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال لى رسول الله ﷺ: (ارجع إلى قومك فأخبرهم واكنم أمرك عن أهل مكة، فإنى أخشاهم عليك) فقلت: والذى نفسى بيده لأصوتن بها بين ظهرا نيهن. فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فثار القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس ﷺ فأكب عليه وقال: ويلكم، أستم تعلمون أنه من بنى غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟! وأنقذه منهم، ثم عاد من الغد إلى مثلها، وثاروا إليه فضربوه، فأكب عليه العباس فأنقذه، ثم لحق بقومه، فكان هذا أول إسلام أبى ذر.

وجاء فى (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) لابن البر عن يزيد بن أبى حبيب قال: قدم أبو ذر على النبى ﷺ وهو بمكة فأسلم، ثم رجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق، ثم قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فلما رآه النبى ﷺ وهم فى اسمه فقال ﷺ: (أنت أبو نملة؟ فقال: أنا أبو ذر، قال: نعم، أبو ذر) فصحب رسول الله ﷺ إلى أن انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ثم خرج بعد وفاة أبى بكر إلى الشام، فلم يزل بها حتى ولى سيدنا عثمان ﷺ، ثم استقدمه سيدنا عثمان لشكوى معاوية، فنفاه وأسكنه الربذة فمات بها، وصلى عليه سيدنا عبد الله بن مسعود، صادفه وهو مقبل من الكوفة مع نفر من أصحابه منهم حجر بن الأذبر، ومالك بن الحرث الأشر، وفتى من الأنصار دعتهن امرأته إليه فشهدوا موته، وغمضوا عينيه، وغسلوه، وكفونه فى ثياب للأنصارى، فى خبر عجيب حسن فيه طول. وفى خبر غيره أن ابن مسعود لما دعى إليه وذكر له بكى بكاء طويل، وقيل: إن ابن مسعود كان مقبلاً من المدينة إلى الكوفة فدعى إلى الصلاة عليه، فقال ابن مسعود: من هذا؟ قيل: أبو ذر، فبكى طويلاً فقال: أخى وخليلى عاش وحده، ومات وحده، ويبعث وحده، طوبى له. وكانت وفاته بالربذة سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه ابن مسعود.

وذكر المحافظ بن عبد البر فى الاستيعاب عن مجاهد عن إبراهيم الأشر عن أبىه عن أم ذر - زوجة أبى ذر - قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت فقال لى: ما يبكيك؟ فقلت:

وما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندى ثوب يسعك كفنأ لى ولا لك، ولا يد لى للقيام بجهازك، قال: فأبشرى ولا تبكى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثالث فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً). وقد مات لنا ثلاثة من الولد، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين) وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد مات فى قرية وجماعة، فأنا ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كذبت، فأبصرى الطريق، قالت: أنى؟ وقد ذهب الحاج، وتقطعت الطريق، قال: اذهبى فتبصرى، قالت: فكنت أشد إلى الكتيب فأنظر ثم أرجع إليه فأمرضه.

فبينما هو وأنا كذلك إذا أنا برجال على رحالهم كأنهم الرخم تحت بهم رواحلهم، فأسرعوا إلى حتى وقفوا على فقالوا: يا أمة الله، مالك؟ قلت: امرؤ من المسلمين يموت، تكفنوناه؟ قالوا: ومن هو؟ قلت: أبو ذر، قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم؟ قالت: ففدوه بأبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين) وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد هلك فى قرية وجماعة، والله ما كذبت ولا كذبت، ولو كان عندى ثوب يسعنى كفنأ لى، أو لامرأتى، لم أكفن إلا فى ثوب هو لى أو لها، وإنى أنشدتكم الله أن لا يكفننى رجل منكم كان أميراً، أو عريفاً، أو بريدأ، أو نقيبأ.

وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قاله، إلا فتى من الأنصار فقال: أنا أكفئك يا عم فى ردائى هذا، وفى ثوبين فى عبيتى من غزل أمى، قال: أنت تكفننى، قال: فكفنه الأنصارى غسله فى نفر الذى حضروه، وقاموا عليه ودفنوه فى نفر كلهم يمان، روى عنه جماعة من الصحابة وكانوا من أوعية العلم المبرزين فى الزهد، والورع والقول الحق، وسئل سيدنا على ؓ عن أبى ذر فقال: ذاك رجل وعى علماً عجز عنه الناس ثم أوكأ عليه ولم يخرج شيئاً منه. أخرجه أبو داود. وروى عن النبى ﷺ أنه قال: (فى أمتى أبو ذر شبيه عيسى بن مريم فى زهده) وبعضهم يرويه: (من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم، فلينظر إلى أبى ذر).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبي ذر). وروى إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال: كان قوتي على عهد رسول الله ﷺ صاعاً من تمر، فلست بزائد عليه حتى ألقى الله.

أبو ذر إمام أهل التصوف

ليس على الشمس حجاب، ولا تحتاج في نهار الصحو إلى مبين لكما لها لأنها بينت كمال غيرها بنورها، ولكن المؤمن يجب عليه أن يشكر الله عليها بما أجراه له من الفضل العظيم بسببها.

فأنا أشكر الله ذاكراً نعماء العميمة التي أجراها علينا على يد هذا الإمام العظيم رضي الله عنه، الذي جذبه الله سبحانه وتعالى إليه بمجرد سماع خبر رسول الله ﷺ، فمنحه الله عنايته، حتى كان الباب الذي دخل به على رسول الله نوراً جعله الله في قلبه، والإمام باب مدينة العلم عليه السلام، فلما أن أشرقت أنوار التوحيد على قلبه أمره رسول الله ﷺ - رحمة به - أن يكتم أمره عن أهل مكة، وأن يخرج إلى بلده، فتصور رضي الله عنه أن إعلانها لا يؤدي إلى إزهاق نفسه، فرأى إعلانها مع ذهاب نفسه أحب إليه من كتمها وحفظ حياته.

وهكذا يكون الحق إذا انبلجت أنواره، ولاحت للرأي حقيقته، وكوشفت لطائف القلب بأسراره، فإنه يقهر الجوارح كلها حتى لا يستطيع من تمكن هذه المعاني أن يخفى حاله، خصوصاً من انجذب بتلك الجواذب إلى الحق، وجلس هذا المجلس مع رسول الله ﷺ، فإنه يصير على قدم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنت تعلم مقدار ما تحمله الرسل من الأذية في هذا السبيل، فكذلك من أقامهم الله مقامهم، ودليل ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ: أنه شبه أبا ذر بعيسى بن مريم، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

فسيدنا أبا ذر رضي الله عنه هو إمام أهل المجاهدة لما له من الهمة العلية، ونور أهل المشاهدة بأحواله الأحمديّة، قهره وارد الحق حتى أفناه عن لوازمه الضرورية، ودفعه الحق إلى أن يكون معه حيث كان، ولو كان في ذلك ما كان مما لا تتحملة القوى البشرية، ولعلك تعلم ما

أثنى به رسول الله ﷺ على بنى غفار، وما قاموا به رضى الله عنهم، وكل ذلك لم يكن إلا بالروح التى بثها أبو ذر رضى الله عنه فى قومه، فإنه زهد الدنيا رضى الله عنه بعد التمكين فيها، زاهداً عن حق يقين، وقام وحدانياً متمسكاً بالحق، لا تأخذه فى الله لومة لائم، لا يخاف أميراً ولا خليفة، فكانت جواذب الحق تجذبه جذبات تفنيه عن بشريته، فينافس فى أعمال الملائكة رضى الله عنه، الروحانيين فيصوم نهاره، ويقوم ليله، وهل بعد أن قال رسول الله ﷺ مثنياً عليه: (فى أمتى أبو ذر شبيه عيسى بن مريم فى زهده) ينزل من هذا الأفق الأعلى إلى مستوى آخر؟ الجواب: لا.

عنه أخذ السادة الصوفية مناهج سبلهم، وبه اقتدوا فى مجاهدته وعزلته وانفراده وتحوشنه، وغوامض أسرار التوحيد التى تلقاها عن رسول الله ﷺ، وأوكأ عليها جرابه، كما أخبر سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه، فهو الإمام الذى بين معانى المحبة فى الله، وجمال الأخلاق المحمدية، وسر الرغبة فى الله، والزهد فىمن سواه وما سواه. وقد أكرم الله به أهل السير والسلوك، وكفاه شرفاً أنه كان خامس أربعة مع رسول الله ﷺ، وهو الذى بين لنا حقيقة الأئس بالله فى الشدة والرخاء، والتلذذ بما يحصل عند قول الحق، أو العمل به، منفرداً بمذهبه ولو خالفه العالم أجمع، لليقين الحق الذى اطمأن به القلب، وبه أخذ القوم الغيرة على الحق، والصولة فى الحق. فإنه - من أول نفس دخل الإسلام - منحه الله تلك الصولة الربانية، والغيرة المحمدية، فكانت فاتحته فى الإسلام ودام عليها حتى لقى الله سبحانه، وإن هذا هو الحق، ولكن القائمين به قليلون، والعاملون به أقل، ولا يقوم الدين - حق القيام - إلا برجال علموا حق العلم ما عند الله من الفضل العظيم، وتحققوا بأن اتباع الحق هو النجاة للجميع فرخصت دماؤهم فى أعينهم، واضمحلحت حياتهم الدنيا فى قلوبهم فبدلوها مسرورين قياماً بشكر المنعم سبحانه وتعالى. هذا حال الإمام الذى أثنى عليه رسول الله ﷺ ثناء لم يشته على غيره حتى قيل فى الحديث المتقدم: (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر) وذلك لأنه رضى الله عنه كان أحفظ الناس لكلام رسول الله ﷺ، وأفقه الناس فى كتاب الله.

لا أطيل عليك، ولكنى أنبهك إلى أن الأحوال القاهرة، والمشاهدات الجاذبة ترفع

مقامات صاحبها، فيجب عليك أن تتشبه بأهل تلك الهمم، وأن لا تزن الرجال بقدر همتك وعقلك فتقول: هذا مجنون، وهذا غير متوسط، وهذا ليس بحكيم. فربما رميت بالمجنون رجلاً منحه الله عقلاً يعقل عنه، ونوراً يشهد به ملكوته الأعلى. فإذا خلت الأرض من أمثال هؤلاء حبس مطر السماء، لا أقول: المطر الذي ينبت النبات فقط، بل المطر الذي ينزل على القلوب فينبت فيها شجر الحكمة، والحب والرغبة والخشية من الله، وإذا حبست أمطار السماء هلك العالم ظاهراً وباطناً، اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة عامل بكتابك، دال عليك سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، إنك مجيب الدعاء... آمين.

وأكمل أهل الفرقة الناجية من كان على طريقة هذا الإمام الجليل، لأنه الأستاذ حقاً والإمام صدقاً لهم.

أبو هريرة الدوسي

دوس هو ابن عدنان بن عبد الله ينتهي نسبه إلى الأزدي بن الغوث. قال أبو عمر: اختلفوا في اسم أبي هريرة واسم أبيه اختلافاً كثيراً لا يحاط به ولا يضبط في الجاهلية والإسلام، وقال: محال أن يكون اسمه في الإسلام عبد شمس، أو عبد عمرو، أو عبد غنم، أو عبد نهم، وهذا إن كان شيئاً منه فإنما كان في الجاهلية، وأما في الإسلام فاسمه عبد الله أو عبد الرحمن والله أعلم، وقال ابن إسحاق: قال: حدثني بعض أصحابنا عن أبي هريرة قال: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس، فسميت في الإسلام عبد الرحمن، وإنما كنييت بأبي هريرة لأنني وجدت هرة فحملتها في كمي فقيل لي: ما هذا؟ قلت: هرة، قيل: فأنت أبو هريرة. وقال: كنت أحمل هرة يوماً في كمي، فرأني رسول الله ﷺ فقال لي: ما هذه؟ فقلت: هرة، فقال: يا أبا هريرة.

أسلم أبو هريرة عام خيبر، وشهداها مع رسول الله ﷺ ثم لزمه، وواظب عليه رغبة في العلم، فكانت يده مع يد رسول الله ﷺ، وكان يدور معه حيث دار، وكان من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يحضر ما لا يحضر سائر المهاجرين والأنصار لاشتغال المهاجرين بالتجارة، والأنصار بحوائطهم، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه حريص على العلم والحديث. وقال له: يا رسول الله إني قد سمعت منك حديثاً كثيراً وأنا أخشى أن أنسى،

فقال: (ابسط رداءك)، قال: فبسطته فغرف بيده فيه ثم قال: (ضمه)، فضمته فما نسيت شيئاً بعد.

وقال البخارى: روى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من صاحب وتابع، ومن روى عنه من الصحابة بن عباس، وابن عمر، وجابر ابن عبد الله، وأنس بن مالك، ووائلة ابن الأسقع، ومن كبار التابعين مروان بن الحكم، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن ثعلبة، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسلمان الأغر، والأغر أبو مسلم، وغيرهم ممن لا يحصى عددهم. وقال الربيع: قال الشافعى: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره، وقال أبو الزعزعة - كاتب مروان - أرسل مروان إلى أبى هريرة فجعل يحدثه وكان أجلسنى خلف السرير أكتب ما يحدث به، حتى إذا كان فى رأس الحول أرسل إليه فسأله، وأمرنى أن أنظر، فما غير حرفاً عن حرف. وفى حديث البخارى عن أبى هريرة قال: لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منى إلا عبد الله بن عمر، فإنه كان يكتب ولا أكتب.

وأخرج أحمد من حديث أبى بن كعب أن أباً هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره. وقال أبو نعيم: كان أحفظ الصحابة لأخبار رسول الله ﷺ، ودعا له بأن يجبهه إلى المؤمنين. وكان إسلامه بين الحديبية وخيبر، قدم المدينة مهاجراً وسكن الصفة. وقال أبو هلال عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة فيقال: مجنون، وما بى جنون، زاد يزيد بن إبراهيم عن محمد عنه: وما بى إلا الجوع. وقال البخارى: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عمر بن ذر، قال مجاهد: عن أبى هريرة قال: والله الذى لا إله إلا هو إنى كنت لأعتمد على الأرض بكبدى من الجوع، وأشد الحجر على بطنى. أخرج أحمد فى مسنده روى أبو كثير عن أبى هريرة ﷺ أنه قال: أما والله ما خلق الله مؤمناً يسمع بى ولا يرانى إلا أحببى، قال: وما علمك بذلك يا أباً هريرة؟ قال: إن أمى كانت مشركة، وإنى كنت أدعوها إلى الإسلام، وكانت تأبى على، فدعوها يوماً فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى، فذكرت له فقال: (اللهم اهد أم أبى هريرة) فخرجت عدوا فإذا بالباب مجاف وسمعت حصصة الماء، ثم فتحت الباب فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

فرجعت وأنا أبكى من الفرح، فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأمي إلى المؤمنين، فدعا.

وفي الصحيح عن الأعرج قال: قال أبو هريرة: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعود، إني كنت امرأ مسكيناً أصحاب رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فحضرت من النبي ﷺ مجلساً فقال: (من يبسط رداءه حتى أقضى مقالتي ثم يقبضه إليه فلن ينسى شيئاً سمعه مني) فبسطت بردة على حتى قضى حديثه ثم قبضتها إلى، فولدى نفسي بيده ما نسيت شيئاً سمعته منه بعد.

وأخرج أبو يعلى عن أبي سلمة جاء أبو هريرة رضي الله عنه فسلم على النبي ﷺ في شكواه يعوده، فأذن له فدخل، فسلم وهو قائم والنبي ﷺ متساند إلى صدر على ويده على صدره ضامة إليه والنبي ﷺ باسط رجله فقال: (ادن يا أبا هريرة، فدنا، ثم قال: ادن يا أبا هريرة، فدنا، ثم قال: ادن يا أبا هريرة، فدنا - حتى مست أطراف أصابع أبي هريرة أصابع النبي ﷺ - ثم قال له: اجلس، فجلس، فقال له: ادن مني طرف ثوبك، فمد أبو هريرة ثوبه فأمسك بيده ففتحه وأدناه من النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (أوصيك يا أبا هريرة بخصال لا تدعهن ما بقيت)، قال: أوصني ما شئت، فقال له: (عليك بالغسل يوم الجمعة، والبكور إليها، ولا تلغ ولا تله، أوصيك بصيام ثلاثة أيام من كل شهر فإنه صيام الدهر، وأوصيك بركعتي الفجر لا تدعهما وإن صليت الليل كله فإن فيهما الرغائب)، قالها ثلاثاً، ثم قال: (ضم إليك ثوبك)، فضم ثوبه إلى صدره، فقال: يا رسول الله، بأبي وأمي، أسر هذا أو أعلنه؟ قال: (بل أعلنه يا أبا هريرة، قالها ثلاثاً). وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم). وأخرج الإمام أحمد من طريق يزيد بن الأصم عن أبي هريرة وقد قيل له: أكثرت، فقال: لو حدثتكم بما سمعت لرميتموني بالقشع - أي الجلود. وأخرج بن سعد بسند جيد عن سعيد بن العاص قال: قالت عائشة لأبي هريرة: إنك لتحدث بشيء ما سمعته، قال: يا أمه، طلقتها، وشغلك عنها المكحلة والمرآة، وما كان يشغله عنها شيء. والأخبار في ذلك كثيرة.

وقال عبد الرزاق عن ابن سيرين أن عمر رضي الله عنه استعمل أبا هريرة على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال؟ فمن أين لك؟ قال: خيل نتجت، وأعطية تتابعت، وخراج رقيق لى، فنظر فوجدها كما قال، ثم دعاه ليستعمله، فأبى، فقال: لقد طلب العمل من كان خيراً منك، قال: إنه يوسف نبي الله ابن نبي الله وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخشى ثالثاً: أن أقول بغير علم، وأقضى بغير حكم، ويضرب ظهري ويشتم عرضي وينزع مالي.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب (المزاح) عن سعيد عن أبي هريرة أن رجلاً قال له:

إنى أصبحت صائماً فجئت أبي فوجدت عنده خبزاً ولحماً فأكلت حتى شبعت، ونسيت أنى صائم، فقال أبو هريرة: الله أطعمك، قال: فخرجت حتى أتيت فلاناً فوجدت عنده لقحة تحلب فشربت من لبنها حتى رويت، قال: الله سقاك، قال: ثم رجعت إلى أهلى فنمت فلما استيقظت دعوت بقاء فشربت، فقال: يا ابن أخى أنت لم تعود الصيام. وأخرج ابن أبي الدنيا في (المحتضرين) بسند صحيح عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: دخلت على أبي هريرة وهو شديد الوجع، فاحتضنته فقلت: اللهم اشفأ أبا هريرة، فقال: اللهم لا ترجعها - قالها مرتين - ثم قال: إن استطعت أن تموت فمت، والله الذى نفس أبى هريرة بيده، ليأتين على الناس زمان يمر الرجل على قبر أخيه فيتمنى أنه صاحبه.

وأخرج أحمد والنسائى بسند صحيح عن أبى هريرة قال: إذا مت فلا تنوحوا على، ولا تتبعونى بمجمرة، وأسرعوا بى. وأخرج البغوى من وجه آخر عن أبى هريرة أنه لما حضرته الوفاة بكى، فسئل، فقال: من قلة الزاد وشدة المفازة. وأخرج ابن أبى الدنيا من طريق مالك عن سعيد المقرئ قال: دخل مروان على أبى هريرة فى شكواه التى مات فيها، فقال: شفاك الله، فقال أبو هريرة: اللهم إنى أحب لقاءك فأحبه لقاءى، فما بلغ مروان وسط السوق حتى مات رضي الله عنه سنة سبع وخمسين، بعد أن عاش ثمانياً وسبعين سنة.

* * *

أبو الدرداء الأنصاري

واسمه عويمر بن عامر بن زيد بن قيس، وقيل: عويمر بن قيس بن زيد بن أمية، وقيل غير ذلك.

تأخر إسلامه قليلاً، وكان آخر أهل داره إسلاماً، وحسن إسلامه، وكان فقيهاً، عاقلاً حكيماً، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي. روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (عويمر حكيم أمتي) شهد ما بعد أحد من المشاهد، واختلف في شهوده أحداً.

عن مسروق قال: شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة: علي، وعمر، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، رضى الله عنهم.

عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان أبو الدرداء من الذين أوتوا العلم. عن عوف بن مالك أنه رأى في المنام قبة آدم في مرج وحول القبة غنم ربوض تجتر وتبعر العجوة، قال: فقلت: لمن هذه القبة؟ قيل: لعبد الرحمن بن عوف، فانتظرناه حتى خرج، فقال: يا عوف، هذا الذي أعطانا الله بالقرآن، ولو أشرفت على هذه الثنية لرأيت بها ما لم تر عينك، ولم تسمع أذنك، ولم يخطر على قلبك مثله، أعده الله لأبي الدرداء، إنه كان يدفع الدنيا بالراحتين والصدر.

عن عبد الرحمن الحجري قال: قال أبو ذر لأبي الدرداء: ما حملت ورقاء، ولا أظلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء. عن يزيد بن عميرة قال: حضرت معاذ بن جبل الوفاة، قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، فقال: أجلسوني، إن للعلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما - يقولها ثلاث مرات - التمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عويمر أبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام - الذي كان يهودياً فأسلم - فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنه عاشر عشرة في الجنة). وروى من حديث ابن عيينة أنه قيل لأبي الدرداء: مالك لا تقول شعراً، وكل لبيب من الأنصار قال الشعر؟ فقال: وأنا

قد قلت شعراً، فقيل: وما هو؟ قال:

يريد المرء أن يعطى مناه وتقوى الله أو يأبى الله إلا ما أراد
يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا

عن يزيد بن أبي مریم: أن عبید الله بن مسلم حدثه عن أبی الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض، فلا ألفين ما نوزعت في أحدكم، فأقول: هذا منى، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك، فقلت: يا رسول الله ادع الله أن لا يجعلنى منهم، قال: لست منهم) فمات قبل قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه بسنتين على الأصح من الأقوال، بعد أن ولى قضاء دمشق.

وله رضي الله عنه حكم مأثورة منها قوله: (وجدت الناس أخبر تقله)، أى: اختر من شئت منهم تفر منه وتعاديه. ومنها: (من يأت أبواب السلطان يقيم ويقعد). ووصف الدنيا فأحسن، فمن قوله فيها: (الدنيا دار كدر، ولن ينجو منها إلا أهل الحذر، والله فيها لعلامات يسمعها الجاهلون ويعتبر بها العالمون، ومن علاماته فيها أنه حفها بالشهوات، فارتطم فيها أهل الشبهات، ثم أعقبها بالآفات فانتفع بذلك أهل العظا، ومزج حلالها بالمؤنات وحرامها بالتبعات، فالمثرى فيها تعب، والمقل فيها نصب، في كلمات أكثر من هذا).



الفصل الرابع

أهل الفرقة الناجية هم السائحون

قبل أن نشرح مقامات السائحين وأحوالهم ونبين مشاهدتهم العلية التي تفضل الله بها عليهم بعد أن وهبهم الهمة العلية، نتكلم على السياحة - كعادتنا في ذلك - ليستبين للمطالع معنى السياحة، فيفهم أوصاف السائحين.

السياحة عند أهل الفرقة الناجية

هى الذهاب فى الأرض لنيل قصد، وهذا القصد إما أن يكون واجباً شرعاً لعاجل الدنيا والسعى فى طلب الرزق، أو لآجل الآخرة كطلب العلم والحج والجهاد، والبحث عن العلماء المرشدين، أو لكشف خبايا الملكوت والسير إلى الله تعالى، فالأول مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ الملك ١٥ والثانى مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ لَا أَرَىٰ حَتَّىٰ أَتَلْعَمَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ الكهف ٦٠، والثالث مأخوذ من قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت ٥٣.

ولما كنت أكتب معنى الآية الشريفة، لبيان أحوال أهل الفرقة الناجية، كان ولا بد من أن يكون كلامى محصوراً فيهم، فإن السائح منهم فى طلب الدنيا سائح لله، لقيامه بما أوجبه عليه وهو فى طاعة حتى يرجع إلى أهله، والسائح لطلب الآخرة لحج أو علم أو صحبة عارف فهو أيضاً سائح لله لأنه قائم بفرائض الله، والسائح فى طلب كشف خبايا الملكوت هو أيضاً سائح لله تعالى، لأنه مجذوب للجناب المقدس بخالص المحبة والتوحيد.

أحكام السياحة وأقسامها

أما أحكام السياحة لطلب الدنيا أو لطلب الآخرة فقد بينها فى (أصول الوصول)، وآداب طلب العلم وصحبة العلماء فى كتاب (معارج المقربين)، ونحن - بعون الله وحسن توفيقه - نتكلم هنا لكشف خبايا الملكوت الأعلى، وهى سياحة أفراد أهل الفرقة الناجية

الذين تسبق همهم أقدامهم في سياحتهم، وتلك السياحة إما روحانية فقط - ويعبر عنها بالسياحة بالقلوب - وإما جسمانية روحانية - فيعبر عنها بالسفر - والسياحة إما أن تحصل من مريد واجد لا يقرب له قرار، لتقلب قلبه ورغبة المزيد لجسمه ليتكامل بسياحته، أو لواصل متمكن لينال المزيد من الله بتكميل غيره، والسائح بجسمه المنتقل من مكان إلى مكان لا يهمنه التكلم فيه، والسائح بقلبه المنتقل من صفة إلى صفة ومن مشهد إلى مشهد هو السائح حقاً وإن لم ينتقل بجسمه خطوة واحدة، قال الإمام القشيري: سُئل بعض مشايخ الطريق فقيل له: هل سافرت؟ فقال: سفر الأرض أم سفر السماء؟ سفر الأرض لا. وسفر السماء بلى.

وجاء رجل إلى عارف بالله فقال: قطعت إليك شقة طويلة. فقال له العارف: كان يكفيك خطوة واحدة لو سافرت عن نفسك. وقال الأستاذ المصري: جلسة خير من ألف حجة. والمراد جلسة تجمع الهم حتى يكشف بالأفق الأعلى، فيكون قد انتقل من أفق دنى إلى أفق على وهو في جلسته لم ينتقل من مكانه، وقد فسر بعض العلماء السياحة في القرآن بالصيام أخذاً من قوله ﷺ: (سياحة أمتي الصيام) وذلك لما بين الصيام والسياحة من الشبه، فإن الصائم محروم من حظوظه وشهواته المباحة وكذلك السائح، فإن يتحمل من عناء السياحة وشدة السفر وفقد مألوفه مما لا يطيقه إلا أهل العزائم من الفرقة الناجية، الذين علموا قدر فضل الله عليهم ونعمته الواصلة إليهم وما أعده لمن أقبل عليه، وفارق مألوفاته لأجله، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يونس ٢٢، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ النمل ٦٩، وما من نبي ولا ولي إلا وقد تفضل الله عليه بالسياحة الجامعة بين سياحة الروح والجسم، وقد أمر الله المخلصين من عباده بالفرار إليه فقال سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الذاريات ٥٠.

أنواع السياحة

والسياحة إلى كشف خبايا الملكوت ثلاثة أنواع:

١ سياحة في النفس وفي الأرض وفي السماء وهي للعارفين.

٢ وسياحة في الأرض وهى للمريدين.

٣ وسياحة في السماء وهى للمجدوبين بمشهد من مشاهد التوحيد عن انبلاج الآيات.

❖ فالمقام الأول للعارفين من كمل ورتة رسول الله ﷺ.

❖ والثانى للتلاميذ الذين ذاقوا من علوم التوحيد ما يجعلهم يتفكرون فيما يشهدون من الآيات فى الأرض كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

❖ وأهل المقام الثالث هم المجدوبون إلى ملكوت الله الأعلى المؤهلون لليقين، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ الأنعام ٧٥.

لماذا لم يتكلم السابقون فى أسرار السياحة؟

لما كانت أسرار السياحة لم يتكلم عنها الرجال إلا بإشارات، لأنها مما يتعلق بالأئمة وهى غيب عن قوى العقول، ولكنى رغبة فى نيل رضوان الله تعالى ورضوان رسول الله ﷺ، ونفع الراغبين من أهل الإخلاص، استحسنت أن أفصل بعض ما يتعلق بالسياحة فى مقاماتهم، لأن الأئمة رضى الله عنهم أمسكوا عن شرح تلك المقامات فى كتبهم لاعتقادهم أنها تكون من صولة مشاهد التوحيد، وجذبة تجلى الحق سبحانه وتعالى، وظهور آياته فى النفس وفى

السموات وفي الأرض، وتدعو السالك في طريق الله إلى السياحة بحال القاهرة ووجد جاذب
فيتنعم بمشاهد تلك الآيات، ويأنس في كل نزل ينزله بأنوار التجليات، فطووا رضى الله
عنهم بساطها لتكون الرغبة فيها عن وجد ويقين، بعد صولة الكشف على القلب، وعملاً
بقوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

مادعاني إلى بيان تلك الأسرار

ودعاني إلى بيان تلك الأسرار بالعبارة والكتابة قصور الهمم وفتور العزيمة وعكوف
القلب على الدنيا وعدم الرغبة فيما عند الله، فشرحت أسرارها حثاً للهمم ويقظة للقلوب
وتنبيهها للأفكار، والله الموفق لأقوم سبيل، أسأله سبحانه وتعالى أن يهديني الصراط
المستقيم، وأن يمدني بروح منه ويحفظني من البدع المضلة ومن مخالفة السنة، إنه مجيب
الدعاء، آمين.

أئمة السائحين

أئمة السائحين رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، وإمامهم الأعظم هو رسول الله
ﷺ، لأن الله تعالى أسرى به جسماً وروحاً مطلوباً مراداً محبوباً، وهو المقام العلى الذى
تقاصرت عن إدراكه أرواح أولى العزم من الرسل، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فضلاً
عن أجسامهم الطاهرة.

مشاهد الأنبياء ودرجاتهم في السياحة

كانت سياحته ﷺ فوق كل سياحة الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، فإن الله أرى
الخليل عليه الصلاة والسلام ملكوت السموات والأرض فخرج قائلاً: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي
سَيِّهِدِينَ﴾ الصافات ٩٩، وسياحة الكليم عليه الصلاة والسلام لتلقيا العبد الصالح لمزيد العلم.
وسياحة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام لنجاته من الطوفان ومن قومه. وسياحة كل نبي
للنجاة من أعداء الله تعالى. وسياحته ﷺ كانت بالله وإلى الله، فأشهد آيات ملكه
وملكوته وجلال عزته وجبروته وحظائر قدسه ولاهوته، حتى دنا ﷺ بالله وتدلى له الله،

وأوحى إليه من غيب كمالاته وعلّى جمالاته وجلالاته، ما أبهمه الحق سبحانه وتعالى علواً له أن يدركه غير حبيبه ومصطفاه ﷺ، وتنزيهاً عن أن يحيط به أحد غير الفرد المراد لذات الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ النجم ١٠-١١، والفؤاد قررنا أنه برزخ بين القلب والجسم، فكأنه ﷺ كان في دنوه من ربه بجسمه وروحه حينما تدلى الرب تعالى له عليه الصلاة والسلام، ولو لم يكن ذلك كذلك لقال: ما كذبت الروح ما رأت.

فإذا كان أئمة أهل السياحة هم رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، فلكل سائح من أولياء الله قسط من تلك المواهب الإلهية، ومشرب من تلك الموارد العلية، ومشهد من تلك المشاهد الربانية، وإنى أنبه القارئ الذى لم يتفضل الله عليه بذوق ما سأبديه من غوامض أسرارهم أن يتحصن بدرع التسليم، وأن يعتقد أن عجائب القدرة وغرائب تصرفها وأسرار الحكمة وخفى غيبها، نور لا يشرق إلا على نفس تزكت، وقلب اطمأن بذكر الله، وبدن حفظه الله من الوقوع فيما يكره، وعقل عقل عن الله.

وقد أخطأ بعض من يدعى العلم، فحكم على القدرة والحكمة بما يحكم به على قدرته وحكمته، فشبه القديم بالمحدث، وزعم لجهله بنفسه أنه لا قدرة فوق قدرته، ولا حكمة إلا ما عرف، وكل سر تظهره القدرة لكمال إطلاقها، وكل سر تظهره الحكمة من الأسرار التى تناسب الحكيم الخبير العلى الكبير ينكره لأن عقله الذى يعقل عن نفسه وعن الكون لا يقبله، وشتان بين العالم الربانى الذى يعقل عن الله تعالى، وبين الجاهل المحجوب بنفسه وحسه وعقله، فإن الأول قال كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ءَأْمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ آل عمران ٧، وقال فى حق غيرهم من الذين عقلوا بغير عقلهم الإنسانى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ الأنفال ٢٣.

فأكرر تنبيهى على إخوانى أن السالك منهم يجب عليه أن يسلم بتلك المقامات، وأن يستعيز بالله من أن يدعيها لنفسه بلا وجد صادق، أو جاذب قاهر، فإن دعواها بلا تحقق بمشاهدها، وتجمل بأحوال أهلها، واقتداء بأئمة أهلها، كذب على الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِرَىٰ الْكَذِبِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ النحل ١٠٥، فإن تلك

الأسرار العلية نفائس قدسية قد تلقى بين أهل الرجس فينكرونها، ويزدرون بها، وقد تلقى بين أهل التسليم من السالكين فيخرجون عن مقاماتهم الاعتدالية، ويدعونها تقليداً، فيكون ضرراً لكل من الطائفتين، فتأبى نفوسهم الخبيثة التي سجل الله عليها الشقاء إلا محاربة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، فيخسف الله بهم الأرض.

ومشاهد سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام في هجرته وسياحته فوق أن تسطر على الأوراق، وأعلى من أن تمثل بالعبارة.

ثم هاجر الخليل عليه السلام، ومعه زوجه سائحاً منتقلاً من الكون إلى المكون سبحانه، فاراً إلى الله سبحانه، مفارقاً أقرب الخلق منه، وألصقهم به وأرحمهم عادة، وما يدرينا قدر تلك الجواذب الإلهية التي أخرجته عليه السلام متوجهاً إلى ربه. لعلك أيها المطالع - إذا تبصرت - تلوح عليك أنوار شمس الخلة الخالصة، التي تجعل الخليل لا يقر له قرار إلا بالإقبال بالكلية على خليله، والفناء عن نفسه به، والرغبة عن كل شئ فيه.

ثم هاجر الكليم صلوات الله وسلامه عليه ومعه قومه من أرض تعودوا على نباتها ومائها، إلى صحارى قاحلة وشدائد فادحة، وقد بين القرآن المجيد قدر آلامهم، وشكواهم بعد السياحة وتمنيهم ما كانوا فيه، ليظهر لك جلياً أن السياحة فرار إلى الله، وإقبال على حضرته بالكلية، وإنما تمنى - أى: ذلك الرجوع إلى مصر، وإلى ما تعودوه من النبات - بعض من لم يكمل إيمانهم، ممن لم يذوقوا حلاوة السياحة لله.

وإلا فأهل السياحة ما خرجوا من مكان إلى غيره، ولا من صفة إلى غيرها، ولا من حال إلى غيره، إلا وما خرجوا منه كان أحب إلى أنفسهم أولاً مما خرجوا إليه، حتى داهمتهم صولة المحبة الإلهية، وجذبهم اصطلام الشوق إلى ما كوشفوا به من جمال ملكوته الأعلى، فصارت الآلام لهم ملاذاً، والشدائد لهم مسرات، فخرجوا متوجهين لرهبهم جل جلاله، فرحين بالقرب منه، مبتهجين بالحب فيه، مسرورين بما نالوا من الفوز والخلاص مما كانوا فيه.

ولما كانت السياحة سنة رسل الله، وكان التعلق بالأهل والأقارب مما يدعو إلى السكون

بالأماكن، وعمل المعدات، لذلك لم يشتهر منهم بالسياحة حتى صارت علماً عليه إلا من لا زوجة له ولا ولد ولا والد، وهو المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فإنه بلغ من التخلي عن الدنيا مبلغاً حتى قال: أنا لا أم لى ولا أخوة - لأمه وإخوته - فراغاً لقلبه، وراحة لبدنه، وإقبالاً على السياحة بالكلية، حتى أن بعض الرجال يقول: إنه إمام هذه الطائفة - يعنون أهل السياحة - الذين صرفوا عمرهم في السياحة قلباً وقالباً فلم يركنوا إلى الدنيا، ولم يسكنوا إليها. ومشاهد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المقتضية لتلك الأحوال الخارقة للعادة البشرية، هي الحجة لمن خرقوا عوائدهم البشرية، فخرقت لهم العادة في أحوالهم ومعاملاتهم.

الأمة المحمدية تجملت بما تحمل به الرسل السابقون

وقد تفضل الله على أمة حبيبه صلوات الله وسلامه عليه فجعل منهم أفراداً جملهم بما جمل به رسله السابقين، وأقامهم مقامات سجد العقل دون أعتابها، وأشهدهم مشاهد أفناهم بها عن وجودهم الكونى، حتى خرجوا عن عوائدهم، ومألوفاتهم، واستلنا ما استوعره غيرهم، وأنسوا بما استوحش منه سواهم، فأحوالهم أدهشت العقول، غبظتهم ملائكة السماوات، ولا عجب فإن الرسل الذين ساحوا فارين إلى الله كان الوحي أنيسهم، واليقين الحق شهودهم، وإكرام الله لهم حيث كانوا، تظلمهم الغمامة، وتظهر لهم الملائكة جلياً فيدفعون عنهم ويعينونهم، وأصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لم يكن لهم إلا إيمان بالله ورسوله، وحب خالص لله ورسوله، وإليك ما تحملوه رضى الله عنهم:

اشتدت وطأة كفار قريش عليهم شدة تذوب القلوب عند ذكرها، وتقشعر الجلود عند سماعها، فكان يؤخذ الرجل منهم فيعذب في الله لأنه أسلم، فيلقى على ظهره الأحجار الحارة، ويوضع حجر ثقيل على صدره، ويدوس عليه العبيد والإماء حتى يغمر، ويقال له: ارجع عن دينك، فيأبى. ثم خرجوا رضى الله عنهم مهاجرين إلى الحبشة، وما هى بلاد الحبشة بالنسبة لمكة؟ بينها وبين مكة مسافة خمسة أشهر في البر، وشهر في البحر الملح، ثم شهر آخر حتى يصل إليها، فى صحارى قاحلة، وغابات ماحلة، بين سباع ووحوش وظماً وجوع، لم

يردعهم ذلك عن دينهم. إليك أسلم الحكم عليهم، فما دعاهم إلى ذلك؟ والله ما دعاهم إليه إلا كشف الحجاب عن حقيقة الدنيا، ورفع الستار عن جمالات الآخرة، وعلم بلغ بهم إلى معرفة أنفسهم فعرفوا ربهم، ففروا إليه متلذذين بالمتاعب كما فعل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

تلك مشاهد عليّة وأنوار جلية، يقول العاقل: جنون، ولكن في محبة الله، وطلب رضوانه الأكبر. وخروج عن الاعتدال، ونعم! في نظرك، ولكنه مسارعة إلى نيل الخير الحقيقي في نفس الأمر، ونيل خير دونه النفيس والنفس، والأمل والولد، بل والدنيا والآخرة، هو رضوان الله الأكبر الذى بشرهم به فى الدنيا بنص القرآن المجيد الذى أنزله على نبيه، وفى الآخرة بنص الحديث الصحيح الذى يقول فيه الرسول ﷺ عن ربه: (أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً). مخاطباً لهم فى فردوسه الأعلى، أسأل الله أن يجعلنا منهم، ويتفضل علينا ببركتهم.

من هم أهل السياحة؟

أما من الصحابة فكثيرون، لأنهم رضى الله عنهم وأرضاهم هاجروا إلى الحبشة وإلى المدينة وغيرهما، الهجرة الحقة التى خصهم الله بها وأفردهم لها، ورفعت مقاماتهم العلية عن أن ينافسهم فيها غيرهم، حتى بلغوا مبلغاً تغبطهم الملائكة والأنبياء لقربهم من الله، لما وفقهم له وأعانهم عليه سبحانه، وجملهم بمعانى موجبات رضوانه الأكبر، ودامت تلك الأبواب مفتحة لمن جذبتهم عناية الله حتى فتحت مكة لرسول الله، فسبق المفردون، وصار المهاجر بعدها لا يبلغ معشار ما بلغوا، رضى الله عنهم وأرضاهم.

فمنهم سيدنا عثمان بن عفان، وزوجته السيدة رقية رضى الله عنها بنت رسول الله ﷺ معه، وهو أول من هاجر بأهله بعد سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام كما ورد فى الخبر: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام. وكان مع السيدة رقية أم أيمن حاضنة النبى ﷺ ومنهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامراته معه سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة بن عبد الأسد هاجر ومعه زوجته أم سلمة رضى الله عنها.

ومن هاجر بأهله عامر بن أبي ربيعة، هاجر ومعه زوجته ليلى العدوية، وأبو سبرة - وهو أخو أبي سلمة رضي الله عنه لأمه - هاجر ومعه زوجته أم كلثوم.

ومن هاجر بلا زوجة عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وسهيل بن البيضاء، وأبو سبرة بن أبي رهم، وخاطب بن عمرو العامريان، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومن الذين خرجوا إلى الحبشة في الهجرة الثانية جعفر بن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود، وعبيد الله بن جحش ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وغيرهم ممن لا يحصى عددهم.

وخرج الصديق الأكبر سيدنا أبو بكر رضي الله عنه مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا وصل برك الغماد وفي رواية حتى إذا سار يوماً أو يومين لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة واسمه الحارث - والقارة قبيلة مشهورة كان يضرب بها المثل في قوة الرمي ومن ثم قيل لهم: رماة الحدق، لاسيما ابن الدغنة - قال له: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلدك، فرجع معه. فطاف ابن الدغنة في أشراف قريش وقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، وهو في جوارى. فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، أى: لم يرد جواره، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر رضي الله عنه. فمكث أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم ابتنى مسجداً بفناء داره فكان يصل فيه، ويقرأ القرآن، وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فكانت نساء قريش يزدهن عليه فأفزع ذلك كثيراً من أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن

يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً ببناء داره وأعلن بالصلاة والقراءة وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا بهذا، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن رأى أن يعلن بذلك فاسأله أن يرد إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك - أى: نزيل خفارتك وننقض جوارك ونبطل عهدك، فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: علمت الذى قد عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت - أى أزيلت خفارتى - فى رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى، قال: ولما رد جوار ابن الدغنة لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة فحشى على رأسه تراباً، فمر عليه بعض كبراء قريش من المشركين فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألا ترى ما صنع هذا السفيفه؟ فقال له: أنت قطعت بنفسك، فصار أبو بكر يقول: رب ما أحلمك على ذلك (ثلاث مرات).

كيف خرجوا؟

خرجوا مشاة على أقدامهم، خائفين على دينهم وأنفسهم، يمشون الليل والنهار بين طلب العدو وملاقة ما لا قبل للإنسان به، بصبر يراه العاقل مستحيلاً على الإنسان، وهمة فى الله تعالى لا تتصورها العقول، حتى صار الصبر رضا، والوحشة أنساً، والغربة قرباً، كل ذلك لما واجههم به الولي الحميد القريب المجيب اللطيف الخبير من أنوار جماله، وما تفضل به عليهم من العلم بكماله، وما حققهم به من اليقين الحق بخالص التوحيد وحقيقة المحبة، فكان نصب السفر، ووصب الجهد، وعناء ما يلقونه كأنه ملاذ وبهجة، بالنسبة لما تحققوا بالفوز به من سلامتهم بدينهم من أعدائهم، وما تيقنوا به من نيل رضا الله سبحانه وتعالى، ورسول الله ﷺ، وما اعتقدوه حقاً من ولاية الله لهم، مع أن تلك الشدائد كان يمكن أن يدفعها عنهم مداراة أو كتم أحوالهم، ولكن باعث الحب، وداعى الوجد، وشهود الحق بانبلاج آياته وإشراق أنواره يقهر المرادين لله تعالى، ولو تتبعنا أحوالهم العلية لظهر لنا الحق جلياً.



ما وقع لأبي بكر من الأذى

هذا الإمام سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وقع له من الأذى ما ذكره بعضهم أن رسول الله ﷺ دخل دار الأرقم ليعبد الله تعالى ومن معه من أصحابه فيها سرّاً، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور، أي الخروج إلى المسجد فقال: (يا أبا بكر إنا قليل) فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه إلى المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، ودعا إلى الله ورسوله، فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم، فضربوهم ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوصتين - أي مطبقتين - ويحرفهما إلى وجهه، حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه. فجاءت بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى أن أدخلوه في منزله، وهم لا يشكون في موته، ثم رجعوا ودخلوا المسجد فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة، ثم رجعوا إلى أبي بكر، وصار والده أبو قحافة وبنو تميم يكلمونه فلم يجب، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فعذلوه، فصار يكرر ذلك فقالت أمه: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب - فإنها كانت أسلمت رضی الله عنها وهي تخفى إسلامها - فاسأليها عنه، فخرجت إليها وقالت لها: إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله، فقالت: لا أعرف محمداً ولا أبا بكر، ثم قالت لها: تريدين أن أخرج معك؟ قالت: نعم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر رضي الله عنه فوجدته صريعاً، فصاحت وقالت: إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم، فقال لها أبو بكر: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت له: هذه أمك تسمع، قال: فلا عين عليك منها - أي: لأنها لا تفسى شرك - قالت: سالم، فقال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، فقال: والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو أتى رسول الله ﷺ، قالت أمه: فأمهلنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس فخرجنا به يتكئ على، حتى دخل على رسول الله ﷺ فرق له رقعة شديدة، وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك، فقال: بأبي وأمي أنت يا رسول الله ما بي من بأس إلا ما بأس من وجهي، وهذه أمتي

برة بولدها، فعسى الله أن ينقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت.

لعلك أيها القارئ تعلم قدر حب الله لتلك المشاهد، وإقباله سبحانه على من يتجمل بتلك المعاني، بعد علمك بسرور رسول الله ﷺ بسلامة صديقه، وبعد تحققك بمحبة الصديق لرسول الله ﷺ، وبذله نفسه ليقتل فداء لرسول الله ﷺ، وإشفاقه عليه حتى كان أول خاطر خطر عليه بعد إفاقته من غمرته سؤاله عن رسول الله ﷺ وسعيه إليه وهو في حالة الألم التي تنسى الإنسان نفسه.

كل ذلك دليل على أنهم رضوان الله عنهم كان يمكنهم أن يداروا، ولكن محبة الله الخالصة، وغيرتهم على دينهم الحق، ورحمتهم الواسعة على بنى الإنسان دعتهم أن يقوموا مقاماً لم يقمه إلا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وكم كان يرتل الصديق القرآن في شوارع مكة، ويكي فيجتمع عليه النساء والصبيان ويكون معه، فيقوم كفار قريش مسارعين إلى أذيته وهو لا يرجع، حتى أذروه بالقتل، فخرج مهاجراً بدينه إلى الله تعالى وهو سيد بنى تيم، وعظيم قريش، وصاحب راياتهم ومشورتهم، فكيف بغيره من المستضعفين، كل ذلك كان والصدور منشرحة، والقلوب مطمئنة، والنفوس ساكنة إلى الله، فلم يكن ذلك بمجرد أن يقول المسلم: إني مسلم، لا والله، ولكن بمشاهد جذبت تلك الأرواح إلى حضرة الفتاح، ويقين تلذذت فيه الأشباح بالآلام، حتى صارت الشدة عندهم رخاء، والفقير غنى، والذل عزاً.

بعض ما حصل لهم من أذية المشركين

أورد عليك نموذجاً من صبر الصحابة على أذية المشركين، ترويحاً لنفسك، وميزاناً تزن به أحوالك الصادرة عن شهود التوحيد، وخالص المحبة لله بعد العلم، لتعلم قدر الدين عند من اجتباهم الله، ودعاهم داعي الأزل دعوة القبول، فإنهم لما سمعوا من رسول الله ﷺ دعاءه لهم سمعوا منه ﷺ بأذان قلوبهم التي دعاها الله سبحانه وتعالى فسمعت من الله

سبحانه، وتلقت عنه جل جلاله، فسارعوا إلى ما دعاهم إليه، وأقبلوا بالكلية عليه رضى الله عنهم وعنا بهم إنه مجيب الدعاء، آمين.

تعذيب المستضعفين من المسلمين

وهم الذين سبقوا إلى الإسلام، ولا عشائر لهم تمنعهم، ولا قوة لهم يمنعون بها، فأما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه، فلما رأوا امتناع من له عشيرة، وثبت كل قبيلة على من فيها من مستضعفى المسلمين، فجعلوا يجسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار، ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه، ويعصمه الله منهم.

بلال بن رباح

فمنهم بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر، وكان أبوه من سبى الحبشة، فصار بلال لأمية بن خلف الجمحى، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقى في الرمضاء على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره، ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقول لأمية: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا. فرآه أبو بكر رضي الله عنه يعذب فقال لأمية بن خلف الجمحى: ألا تتقى الله في هذا المسكين، فقال: أنت أفسدته فأبعده، فقال: عندي غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيكه به، قال: قبلت، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا فأعتقه، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان بلال رضي الله عنه يمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان بقوله: أحد أحد، وقد وقع له رضي الله عنه أنه لما احتضر وسمع امرأته تقول: واحزننا، صار يقول: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وحزبه.

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر اشترى بلالا فقال له: (الشركة يا أبا بكر)، فقال: قد أعتقته يا رسول الله. أى: لأن بلالا قال لأبى بكر حين اشتراه: إن كنت أشتري لنفسك

فأمسكنى، وإن كنت إنما اشتريتنى لله عز وجل فدعنى لله، فأعتقه.

وقد اشترى أبو بكر رضي الله عنه جماعة آخرين ممن كانوا يعذبون في الله منهم حمامة أم بلال، ومنهم عامر بن فهيرة فإنه كان يعذب في الله حتى لا يدرى ما يقول، ومنهم أبو فكيهة، ومنهم امرأة وهى زنيرة عذبت في الله حتى عميت، ورد الله لها بصرها، وكذا ابنتها، وكذا امرأة يقال لها لطيفة، وكذا أخت عامر بن فهيرة أو أمه، أما ما وقع لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه من الأذية فقد تقدم ذكره.

عبد الله بن مسعود

ومما وقع لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه من الأذية أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا يوماً، فقالوا: والله ما سمعت قريش القرآن جهراً إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن فيكم يسمعهم القرآن جهراً؟ قال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك منهم، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم، فقال: دعونى فإن الله يمنعنى منهم. ثم إنه قام عند المقام وقت الشمس وقريش فى أنديتهم، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعاً صوته حوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الرحمن ١-٢، واستمر فيها فتأملته قريش، وقالوا: ما بال ابن أم عبد، فقال بعضهم: يتلو بعض ما جاء به محمد، ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر فى قراءته حتى قرأ غالب السورة، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه، فقال له أصحابه: هذا الذى خشينا عليك منه، فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهون علىّ مثل اليوم، ولو شئتم لآتيتهم بمثلها غدا، قالوا: لا، قد أسمعتهم ما يكرهون.

عمار بن ياسر

ومنهم عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسى، وهو بطن من مراد وعنس هذا أسلم هو وأبوه وأمه، وأسلم قديماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم بعد بضع وثلاثين رجلاً، أسلم هو وصهيب فى يوم واحد، وكان ياسر حليفاً لبنى مخزوم، فكانوا يخرجون عماراً وأبوه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء، فمر بهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال: (صبراً

آل ياسر فإن موعدكم الجنة). فمات ياسر في العذاب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها في قلبها بحربة في يديه فماتت، أى بعد أن قال لها: إنك ما آمنت بمحمد ﷺ إلا لأنك عشقتيه لحسنه وجماله، وهى أول شهيد في الإسلام رضى الله عنها، وشدد العذاب على عمار، بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبالتفريق أخرى، فقالوا: لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً، ففعل، فتركوه، فأتى النبي ﷺ يبكى، فقال: (ما وراعتك؟ قال: شر يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا، قال: فكيف تجد قلبك؟)، قال: أجده مطمئناً بالإيمان، فقال: يا عمار إن عادوا فعد) فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ النحل ١٠٦، فشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقتل بصفين مع سيدنا على وقد جاوز التسعين، قيل: بثلاث، وقيل: بأربع سنين.

خباب بن الأرت

ومنهم خباب بن الأرت، وكان أبوه سوايياً من كسرك، فسباه قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة فباعوه إلى سباع بن عبد العزى حليف بنى زهرة، وسباع هو الذى بارزه سيدنا حمزة يوم أحد، وخباب تيمى وكان إسلامه قديماً، قيل: ثالث سنة قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف - وهى الحجارة المحماة بالنار - ولووا رأسه فلم يجبهم إلى شئ مما أرادوا منه، وكان النبي ﷺ يألفه ويأتيه، فلما أسلم أخبرت بذلك مولاته صارت تأخذ الحديدية - وقد أحمتها بالنار - فتضعها على رأسه، فشكى ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (اللهم انصر خباباً) فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوى مع الكلاب، فقيل لها: اكنوى، فكان خباب يأخذ الحديدية وقد حماها فيكوى رأسها. وفي البخارى عن خباب قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ولقد لقينا - يعنى معاشر المسلمين - من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا، فقعد رسول الله ﷺ محمراً وجهه فقال: (إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على

غنمه). وعن خباب رضي الله عنه أنه حكى عن نفسه قال: لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا إلى نار ووضعوها على ظهري، فما أطفأها إلا ودك ظهري - أي: دهنه - وهاجر رضي الله عنه، وشاهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل الكوفة ومات سنة ست وثمانين رضي الله عنه.

صهيب بن سنان الرومي

ومنهم صهيب بن سنان الرومي، ولم يكن رومياً، وإنما نسب إليهم لأنهم سبوه وباعوه، وقيل: لأنه كان أحمر اللون، وهو من النمر بن قاسط، كناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا يحيى قبل أن يولد له، وكان ممن يعذب في الله فعذب عذاباً شديداً، ولما أراد الهجرة، منعتة قريش، فافتدى نفسه منهم بماله أجمع.

عامر بن فهيرة

ومنهم عامر بن فهيرة مولى الطفيل بن عبد الله الأسدي، وكان الطفيل أخا عائشة لأُمها أم رومان، أسلم قديماً قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دار الأرقم، وكان يعذب في الله فلم يرجع عن دينه، واشتراه أبو بكر وأعتقه فكان يرعى غنماً له، وكان يروح بغنم أبي بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى أبي بكر لما كانا في الغار، وهاجر معها إلى المدينة يخدمها، وشهد بدرًا وأحداً، واستشهد يوم بئر معونة وله أربعون سنة، ولما طعن قال: فزت ورب الكعبة، ولم توجد جثته لتدفن مع القتلى، فقيل: إن الملائكة دفنته رضي الله عنه.

أبو فكيهة

ومنهم أبو فكيهة واسمه أفلح، وقيل: يسار، وكان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي، أسلم مع بلال فأخذه أمية بن خلف وربط في رجله حبلاً، وأمر به فجر، ثم ألقاه في الرمضاء وممر به جعل، فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربك ورب هذا، فخنقه خنقاً شديداً، ومعه أخوه أبي بن خلف يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه، وقيل: إن بني عبد الدار كانوا يعذبونه وإنما كان مولى لهم، وكانوا يضعون الصخرة

على صدره حتى دلع لسانه فلم يرجع عن دينه، وهاجر ومات قبل بدر رضي الله عنه.

من النساء السائحات

❖ ومنهم لبننة جارية ابن مؤمل بن حبيب بن عدى بن كعب أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وكان عمر يعذبها حتى تفتن ثم يدعها ويقول: إنى لم أدعك إلا سامة، فتقول: كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم. فاشتراها أبو بكر رضي الله عنه فأعتقها.

❖ ومنهم زنيرة وكانت لبني عدى، وكان عمر يعذبها وقيل: كانت لبني مخزوم، وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت فقال لها: إن اللات والعزى فعلا بك، فقالت: وما يدري اللات والعزى من يعبدهما؟ ولكن هذا أمر من السماء، وربى قادر على رد بصرى، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش، هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر رضي الله عنه فأعتقها.

❖ ومنهم النهديّة مولاة لبني نهد، فصارت لامرأة من بني عبد الدار فأسلمت، وكانت تعذبها وتقول: والله لأفعلن عنك أو يبتاعك بعض أصحاب محمد، فابتاعها أبو بكر رضي الله عنه فأعتقها.

❖ ومنهم أم عبيس وقيل - عنيس - وهى أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد الغوث يعذبها، فابتاعها أبو بكر رضي الله عنه فأعتقها.

أبو جهل عدو السائحين

وكان أبو جهل يأتى الرجل الشريف ويقول له: أتترك دينك ودين أبيك وهو خير منك؟ ويقبح رأيه وفعله ويسفه حلمه ويضع شرفه، إن كان تاجراً يقول: ستكسد تجارتك ويهلك مالك، وإن كان ضعيفاً أغرى به حتى يعذب، رضوان الله عنهم.



الفصل الخامس

أهل الفرقة الناجية هم الراكعون الساجدون

أهل الفرقة الناجية هم الراكعون الساجدون لله تعالى في صلواتهم، والصلاة: تذكر تارة بلفظها، وتارة ببعض أركانها كالقيام والركوع والسجود، وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الحقيقة وتمثيلها للقارئ.

الركوع والسجود

الركوع: هو الانحناء، وركع المصلي، أى: انحنى بعد القيام حتى تنال راحتاه ركبتيه، أو حتى يطمئن ظهره ويستوى مع الخضوع والتواضع. ويراعى فيه أموراً: وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع، وأن يمد التكبير مداً إلى الانتهاء إلى الركوع، وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق، وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما، وأن يمد ظهره مستوياً، وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع، وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه، وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها، وأن يقول: سبحان ربي العظيم ثلاثاً والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن - إن لم يكن إماماً - ثم يرفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول: سمع الله لمن حمده، ويطمئن في الاعتدال ويقول: ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شئ بعد، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسابيح والكسوف والصبح، ويقنت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود.

ثم يهوى إلى السجود مكبراً، فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة، ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع، وينبغي أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبته، وأن يضع بعدهما يديه، ثم يضع بعدهما وجهه، وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض، وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك، وأن يفرج بين رجليه ولا تفعل المرأة ذلك، وأن يكون في سجوده مخوياً على الأرض ولا تكون المرأة مخوية، والتخوية

رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين، وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعها بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس، ولا يفتش ذراعيه على الأرض كما يفتش الكلب فإنه منهي عنه، وأن يقول: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً فإذا زاد فحسن - إلا أن يكون إماماً - ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً، فيرفع رأسه مكبراً، ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها ويقول: رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني واجبرني وعافني واعف عني، ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح، ويأتي بالسجدة الثانية كذلك، ويستوى منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة. لا تشهد عقيبها، ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه في حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام، بحيث تكون الهاء من قول: (الله) عند استوائه جالساً، و(كاف) أكبر عند اعتداده على اليد للقيام، و (راء) أكبر في وسط ارتفاعه إلى القيام، ويتدئ في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله، ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم، ويصلى الركعة الثانية كالأولى، ويعيد التعوذ كالأول.

فضيلة إتمام الأركان

❖ قال ﷺ وآله: (إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعها وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض).

❖ وقال ﷺ وآله: (لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده).

❖ وقال ﷺ وآله: (من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وخشوعها، عرجت وهي بيضاء، مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، عرجت وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعك الله، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب وجهه).

❖ وقال عليه السلام وآله: (أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته).

❖ وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلمان رضي الله عنه: الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين.

فضيلة السجود

السجود هو الخضوع والاطمئنان مع الذل، قال رسول الله ﷺ: (ما تقرب العبد إلى الله بشئ أفضل من سجود خفى). وقال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة). وروى أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك، وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة، فقال ﷺ: (أعنى بكثرة السجود). وقيل: (أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً) وهو معنى قوله عز وجل: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق ١٩، وقال عز وجل: ﴿سَيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ الفتح ٢٩، فقيل: هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود، وقيل: هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح، وقيل: هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء.

وقال عليه السلام: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول: يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار). ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد، ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب، وكان يوسف بن أسباط يقول: يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض، فما بقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بينى وبين ذلك، وقال سعيد بن جبير: ما أسى على شئ من الدنيا إلا على السجود، وقال عقبية بن مسلم: ما من خصلة فى العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يجب لقاء الله عز وجل، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل حيث يخر ساجداً. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد، فأكثروا الدعاء عند ذلك. وقيل: قسمت الصلاة ثلاثة أثلاث: ثلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود، فمن نقص

أحدها، لم يقبل منه سائرهما. ويقال: من لم تقبل صلاته ردت أعماله كلها عليه .

من تمام الصلاة

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوء لها قبل دخول وقتها لئلا يشغله عن أول وقت غيرها، وينبغي أن يكون قلبه في همه، وهمه مع ربه، وربّه في قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته، فإن كل كلمة عن معنى اسم أو وصف أو خلق أو حكم أو إرادة أو فعل، لأن الكلم ينبئ عن معانى الأوصاف ويدل على الموصوف، وكل كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات، وللعارف من كل جهة مقام ومشاهدات، أول الجهات الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها.

فهذه المقامات العشر تشمل مقامات اليقين، لأن الكلمة حق اليقين، وهذه المعانى كلها منطوية في كل كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلام المحبوب حياة القلوب لا ينذر به إلا حى ولا يحيا به إلا مستجيب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ الأنفال ٢٤.

وقال سبحانه: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال ٢٤، ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلا من نقل في العشر المقامات المذكورة في سورة الأحزاب: أولها مقام المسلمين وآخرها مقام الذاكرين، وبعد مقام الذكر هذه المشاهدات العشر، فعندها لا يمل المناجاة لوجود المصافاة، ولا يتقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليه الوقوف لدنو العطوف، ويتنعم بالعتاب بحلاوة الاقتراب، هنالك يندرج طول القيام في التلاوة فلا يجده كاندراج القبلة في الصلاة، فلا يشهدها فيكون من ورائه القبلة وهو أمامها.

فإن ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم فلا يكون في قلبه أعظم من الله تعالى وحده، فإن رفع شهد الحمد للمحمود فوقف مع الشكر للودود فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا لأنه حقيقة الحمد، وإن سجد سما قلبه في العلو فقرب من الأعلى بقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ﴾

وَأَقْرَبُ ﴿ العلق ١٩، وأهل المشاهدة في السجود على ثلاثة مقامات:

❖ منهم من إذا سجد كوشف بالجبوت الأعلى فيعلو إلى القريب ويدنو من الحبيب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين.

❖ ومنهم من إذا سجد كوشف بملكوت العزة فيسجد على الثرى الأسفل عند وصف من أوصاف القادر الأجل، فيكسر قلبه ويخبت تواضعاً وذللاً للعزيز، وهذا مقام الخائفين من العابدين.

❖ ومنهم من إذا سجد جال قلبه في ملكوت السماوات والأرض فأب بظرائف الفوائد وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين.

❖ وهناك قسم رابع لا يذكر بشئ ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجول همهم في أعطية الملك وأنصبة الممالك، فهم محبوبون بالهمم الدنية عن الشهادة العلية، مأمورون بالهوى عن السياحة إلى الأعلام.

فإن دعا هذا المصلى نظر إلى المدعو فكان هو المرجو فأخذ في التمجيد والثناء والحمد والآلاء ونسى حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولى، وعن مسئلته بحسن الثناء، وإن استغفر هذا الداعي تفكر في أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتفكر ما سلف من الذنوب فعمل في تصفية الاستغفار وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجدد عقد الاستقامة فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة.

قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجل في أرضه. وقال آخر: المصلون خدام الله عز وجل على بساطه. ويقال: إن المصلين من الملائكة يسمون في السماوات خدام الرحمن ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة. ويقال: أن المؤمن إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله تعالى به مائة ألف ملك، وذلك أن العبد قد جمع أركان الصلاة العملية الأربعة من القيام والقعود والركوع والسجود، وفرق ذلك على أربعين ألف ملك، والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة،

والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والقاعدون، ثم قد جمع الله له أركان الصلاة القولية الستة من التلاوة والحمد والاستغفار والتسبيح والدعاء والصلاة على النبي ﷺ، وفرق ذلك على ستين ألف ملك، لأن كل صف من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة، فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان العملية والقولية في ركعتين عجبت منه، وبأهاهم الله تعالى به لأنه قد فرق تلك الأعمال والأركان على مائة ألف ملك، وبذلك فضل المؤمن على الملائكة.

وكذلك فضل الموقن في مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك بالتنقيل في المقامات بأن جمعت فيه ورفع منها، والملائكة لا ينقلون، بل كل ملك موقوف في مقام معلوم لا ينقل عنه إلى غيره، مثل الشكر والخوف والرجاء والشوق والأنين والخشية والمحبة، بل كل ملك له مزيد وعلو من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله في قلب الموقن، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين في صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ المؤمنون ١-٣، فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع كما افتتح بالصلاة أوصافهم ثم قال في آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون ٩، فختم بها نعتهم، وقال في نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الجزوعين من المصائب والفقر، المانعين للمال والخير: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿ المعارج ٢٢-٢٣، ثم نسق النعوت وقال في آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون ٩، فلولا أنها أحب الأعمال إليه ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولما وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها، والخشوع هو انكسار القلب وإخباته وتواضعه وذلته، ثم لين الجانب وكف الجوارح، وحسن سمت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها، والمحافظة هي حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده من مراعاة الأوقات وإكمال طهارة الأدوات ثم قال تعالى في عاقبة المصلين: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ المؤمنون ١٠-١١، فجعل أول عطائهم الفلاح وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس وهو خير المستقر والمأوى، وقال في أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿ المدثر ٤٢-٤٣، وقال

موبخاً لآخر منهم: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ القيامة ٣١، ونهى رسول الله ﷺ عن طاعة من نهاه عن الصلاة ثم أمره بها، وأخبره أن فيها القرب والزلفى في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ العلق ٩-١٠، ثم قال: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق ١٩، فالمصلون بقية من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته.

من أسرار الفرقة الناجية في إقامة الصلاة

قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ التوبة ٧١، الصلاة لغة: الدعاء، واصطلاحاً: هى أقوال باللسان وأعمال بالجوارح، والله سبحانه وتعالى أمرنا بإقامة الصلاة وأثنى سبحانه وتعالى على الذين يقيمون الصلاة، وشنع على الساهين عنها بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الماعون ٤-٥، والصلاة عماد الدين، وشكر بجميع الجوارح لرب العالمين ومناجاته تعالى بكلامه العزيز، بها يتجمل العبد بأجمل حلله التى بها يجمله ربه ويحبه ويقبل عليه. وإقامة الصلاة هى خشوع القلب فيها خشوعاً تخشع به الجوارح لمواجهة القلب لمقلبه فى الصلاة. وفى الحديث القدسى بسند الإمام أبى طالب المكى، قال الله تعالى فى الكتب السالفة: (ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أتقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر على، وأطعم الفقير الجائع لوجهى). وقال رسول الله ﷺ: (من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشئ من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه) وقد جمع الله لنا فى الصلاة عبادة جميع الأنواع من عمار سماواته إلى رتبة الجماد، فقيامنا فيها كقيام الحافين حول العرش، المسبحين المهللين المكبرين، وركوعنا تنزل إلى مرتبة الحيوانات إظهاراً لكمال الذل لله تعالى فى حال القيام له بما فرض علينا. والسجود تنزل إلى رتبة النباتات لنلصق وجوهنا بالتراب ذكرى لنشأتنا الأولى التى هى من التراب، وشهوداً لما جعلنا الله به من الحياة والحس والحركة والعقل والروح، فنذكر ونشكر. والجلوس للتشهد كالجبال تنزل إلى رتبة الجماد لنشهد ما يتفضل الله به علينا بتسخير جميع مخلوقاته لنا. وحركة الرأس إلى اليمين والشمال تمثل حركة الكواكب السيارة الدائرة حول محورها خشوعاً لعظمة العظيم الأكبر جل جلاله. وهو الشكر الذى يطيقه العبد المؤمن، فتارك الصلاة فى منزلة أهل الجحود لأنه ترك الشكر لله على ما لا يحصى من النعم.

ومن إقامة الصلاة رعاية أن المصلى واقف بين يدي الله يراه عاملاً بمحابه ومراضيه، وهو قد تبلغ به الجذبة التي يتمثل بها أنه يرى ربه كما قال ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وهذه هي الإقامة وفيها مشهد أعلى من هذا وهو أن يشهد المصلى أنه عبد أقامه القيوم الموفق في مقام مواجهته على بساط الأنس، يتملق أمام ربه متذللاً خاشعاً آنساً بما يجلى له من سطوع أنوار معانى ما يتلوه، وظهور أسرار حكمة ما يعمل. فيكون في موقفه عبداً بين يدي الله يعمل عملاً يحبه الله، وهو المراد بقوله ﷺ: (وجعلت قرة عيني في الصلاة). أما ما يتعلق بالصلاة ومن وسائلها وأركانها وآدابها، فقد فصلته في كتاب (أصول الوصول) فليراجعه من أراد القيام بتحصيل الواجب عليه.

معاني الصلاة عند أهل الفرقة الناجية

الصلاة: معناها الاشتقاقى ذكر الله تعالى والانقياد. ولكن في عرف الشرعيين هي تلك الخمس فرائض التي أمر الله تعالى أن تؤدى في خمسة أوقات مختلفة، والتي تحتوى على شروط تتضمن بعض شروط ابتدائية وهي:

أولاً الطهارة ظاهراً من النجاسة، وباطناً من الشهوة.

ثانياً نظافة الثياب ظاهراً، وتطهير السريرة من الفكر في أمر محرم.

ثالثاً المكان الذى يتطهر فيه يلزم أن يكون طاهراً خالياً من النجاسات، وباطناً من المعاصى والخطايا.

رابعاً استقبال القبلة الظاهرة وهي الكعبة والباطنة وهي عرش الرحمن. والمعنى بها شهود الأسرار الإلهية.

خامساً الوقوف ظاهراً في بحار القدرة وباطناً في جنة القرب.

سادساً إخلاص النية للقرب من الله.

سابعاً قول الله أكبر في مقام الرهبة والفناء والوقوف في مقام الجمع، وقراءة القرآن ترتيلاً

واعتباراً، وطأطأة الرأس بالخضوع والسجود بإذلال وأداء شهادة الإيمان مع حضور القلب، والتسليم مع فناء صفات المصلي.

يروى في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ في حال صلاته يسمع صوتاً في باطنه كغليان القدر، وكان على كرم الله وجهه إذا وقف للصلاة وقف شعر رأسه وارتعد وقال: قد وجبت الساعة لأداء أمانة لم تتحملها السماوات والأرض.

الصلاة عند مشايخ الصوفية

الصلاة هي مادة جمعت كل معالم الطريق التي يحتاج إليها الطالبون إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية، والتي تتكشف لهم المقامات، فالطهارة للسالكين محل التوبة، واتباع مرشد عامل يحل محل استقبال القبلة، والوقوف في الصلاة يحل محل مجاهدة النفس، وقراءة القرآن تحل محل الذكر، والركوع يحل محل الخضوع، والسجود يحل محل معرفة النفس، والشهادة تحل محل الأنس، والسلام يحل محل التجرد عن الدنيا والفرار من ربة المقامات. ولذلك فإنه ﷺ لما تخلى عن جميع المشارب مع كمال حيرته كان يقول دائماً: (روحنا بالصلاة يا بلال).

وقد وضع هذه المسألة كل مشايخ الصوفية، والكل متمسك بمقامه في هذا الموضوع، فبعضهم يقول: إن الصلاة هي عبارة عن نيل الحضور مع الله تعالى. والآخرون يعتبرونها وسيلة لنيل الغيبة. فبعض الذين كانوا في غيبة يصيرون في حضور بالصلاة، بينما الذين كانوا حاضرين يصيرون غائبين، فكذلك في الدار الآخرة التي بها يرون الله سبحانه وتعالى. فمن كان غائباً عند رؤيته جل وعلا يصير حاضراً والعكس بالعكس.

الصلاة عندي

وإني أقول: إن الصلاة هي أمر إلهي وليست وسيلة لنيل الغيبة أو الحضور، لأن الأمر الإلهي ليس وسيلة لأي شيء، حيث إن سبب الحضور هو الحضور عينه، وسبب الغيبة هي الغيبة عينها. إذ لو كانت الصلاة سبباً أو وسيلة للحضور لما أداها إلا من كان حاضراً. وإذا

كانت سبباً للغيبة، فمن كان غائباً لزم أن يكون حاضراً بإهمال أدائها. ولكن حيث إن أدائها فرض على الكل حاضرين أو غائبين، فالصلاة هي مستقلة في ذاتها، وحيدة في بابها.

الصلاة أصل مجاهدة النفس، والذين بلغوا مقام الاستقامة يجهدون أنفسهم دائماً في أعمال الصلاة، حتى أن المشايخ كانوا يأمرهم مرديهم بصلاة أربعائة ركعة في الليل والنهار حتى تعتاد أجسامهم على العبادة. وأهل الاستقامة أيضاً يصلون كثيراً شكراً لله تعالى على ما أولاهم من جزيل النعم، أما أرباب الأحوال فصلاتهم مع كمال الوجد تشير إلى مقام الجمع لأنهم في حال صلاتهم يصيرون متحدين، أو إذا تخلوا عن وجدهم فصلاتهم تشير إلى مقام الفرق فيكونون بها أهل فرق، فأولئك الذين يتحدون مع صلاتهم يقومون نهارهم وليلهم ويزيدون عليها نوافلاً كثيرة، وأما أهل الفرق فإنهم لا يزيدون على الصلاة المفروضة قال رسول الله ﷺ: (جعلت قرة عيني في الصلاة) لأن الصلاة مصدر الفرح للمستقيم. لما أسرى برسول الله ﷺ ليلة المعراج وتخلصت نفسه من قيود العناصر، وتخلصت روحه من أدران المقامات والدرجات، وفنيت قواه الطبيعية قال عن غير إرادته لكن بالهام الوجد: (اللهم لا ترجعني إلى دار البلاء ولا تضعني تحت قيود الطبع والهوى) فأجابه تعالى: (إنه قد سبق في علمي أن ترجع إلى الدنيا لكي تؤيد الشرع الشريف حتى أعطيك هناك ما منحتك هنا) فلما رجع إلى هذه الدار كان دائماً يقول لتشوقه إلى هذا المقام العلي: (روحنا بالصلاة يا بلال) هذا فإن كل فريضة من الفرائض له ﷺ قرب ومعراج.

الراكون الساجدون من أهل الفرقة الناجية

من علامة إخلاص المرء أن يكون له ملك يحثه على الصلاة في وقتها، ويوقظه إذا كان نائماً، هذه العلامة ظهرت في سهل نفسه لأنه عند كبر سنه ووهن قوته كان يستجمع قواه عند وجوب أى صلاة، وبعد أدائها يصير عاجزاً عن الحركة من مكانه. ويلزم المصلي أربعة أشياء: فناء نفسه وفقد قوته وصفاء سريرته وكمال مشاهدته، ففناء النفس إنما ينال باستجماع الفكر، وفقد القوة بإثبات جلال الله الذي يتضمن فناء كل ما سوى الله، وصفاء السريرة بالمحبة، وكمال المشاهدة بصفاء السريرة. يروى عن الحسين بن منصور الحلاج أنه فرض على

نفسه صلاة أربعين ركعة في النهار والليل، فلما سئل لماذا يتعب نفسه وهو في درجة عالية من الكمال؟ فقال: إن الألم والراحة ينسبان لكم، أما من فنيت صفاتهم فلا يشعرون بتأثير راحة ولا ألم. احذروا أن تسموا عجزكم كمالاً، ورغبتكم في الدنيا طلباً لله. وروى عن بعضهم أنه صلى مرة وراء ذى النون المصري فلما نطق بالتكبير وقال: الله أكبر، خر كأنه جسم بال. وكان الجنيد بعد أن كبر سنه لم يقطع نفلاً من أوراد صباه، فلما حرض على ترك بعض نوافله التي لم يقدر عليها لضعفه قال: إنه لا يمكنه أن يترك في نهايته تلك الأعمال التي كانت سبباً في نيل سعادته الروحانية. ومعروف أن الملائكة مشغولون دائماً بعبادة الله تعالى لأنهم روحانيون وليست لهم أنفس بشرية، فالنفس البشرية تمنع الإنسان عن الطاعة، وكلما ذلت تلك النفس كلما سهل على أهل الفرقة الناجية تأدية تلك الفرائض، فإذا تم فناؤها كانت العبادة طعام وشراب الإنسان كما هي طعام وشراب الملائكة. قال عبد الله بن المبارك أتذكر في طفوليتي أني رأيت امرأة عابدة لدغت بعقرب في أربعين محلاً وهي في صلاتها ولم يتغير حالها، فلما أتمت صلاتها قلت لها: يا أمه لماذا لم تدفعي العقرب عنك؟ فأجابتنى: يا أيها الصبي الجاهل هل تعتقد أنه من الصواب أن أشتغل بنفسي في حال اشتغالي بعبادة الله.

حدث لأبي الخير بن أقطع غرغرينة في قدمه، فقررت الأطباء قطعها، لكنه لم يسمح بذلك، فقال لهم تلامذته: اقطعوها وهو في الصلاة لأنه في ذلك الوقت لا يحس بشيء، فعمل الأطباء بمشورتهم، فلما أتم أبو الخير صلاته وجد رجله مبتورة.

وقد كثر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الفتح ٢٩، فاختر لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثم اختار لأصحابه الصلاة فجعلها وصفهم في الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة أفضل الأعمال لأن أصحاب رسول الله ﷺ أفضل العمال.

قال سعيد بن المسيب منذ أربعين سنة ما فاتتني تكبيرة الإحرام في جماعة، وكان يسمى حمامة المسجد. وقال عبد الرزاق: من عشرين سنة ما سمعت الأذان إلا في المسجد.

قال بعض العلماء: إن العبد يسجد السجدة عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل ولو

قسمت ذنوبه في سجده على أهل مدينته لهلكوا، قيل: وكيف يكون ذلك يا أبا محمد؟ قال: يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوى، ومشاهد لباطل قد استولى عليه - وهذا كما قال - لأن فيه انتهاك حرمة القرب، وسقوط هيبة الرب تعالى.

وروى الإمام مالك: (أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسى (الدبس: نوع من الطيور) طار في الشجر يلتمس مخرجاً فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يدر كم صلى، فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة، ثم قال: يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت). وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليه فأعجبته ولم يدر كم صلى، فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله عز وجل، فباعه عثمان بخمسين ألفاً. فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة، وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ولا يغنى غيره.

وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد، وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود، وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يقتضيه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك، وكل من يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثاً فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل، وعن اطلاعه على سره وضميره.

وبعض أهل الفرقة الناجية يؤدون الفرائض علناً ويخفون نوافل البر حتى يخلصوا من الرياء، لأنهم يقولون: إن كل من أراد أن يشهد الغير أعمال بره فهو منافق، فإذا قيل لو أن الغير ينظرون إلى عبادته فإنه غير ملتفت إليهم، فهذا أيضاً هو عين النفاق. والبعض يظهر كل أعمالهم الفرضية والنفلية بدعوى أن الرياء لا حقيقة له، وأن التقوى حقيقية، وحيث ذلك فإنه من الخطأ أن يخفى الإنسان الحقيقة لآجل الباطل - لا تدع أى فكر برياء يدخل قلبك واعبد ربك أينما كنت وحينما أردت، والأئمة رضوان الله عليهم لاحظوا روح العبادة وأوقفوا مرديهم على عملها - قال أحدهم: لقد سافرت أربعين سنة ولم أترك في طول هذه المدة الصلاة وراء الجماعة، وكنت كل جمعة أصليها في بلد، ونتيجة العبادة راجعة إلى

مقامات المحبة، وقد بينت لك أصولها فيما سبق من الكتب.

الفصل السادس

أهل الفرقة الناجية هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر

أهل الفرقة الناجية هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض، وكل ما قبلها من صفات الأفراد.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أهل الفرقة الناجية

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافى هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها، أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الدائرة ناهضاً بأعبائها، ومتشمرأً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها. قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ١٠٤.

الخير: هو كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وبيانها للناس قولاً وعملاً. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما أن يكونا لتفصيل هذا المجمع لأن الدعوة إلى الخير عامة. وجائز أن يكون الأمر بالمعروف هو: الأمر بفروع الشريعة، وبمحاب الله ومراضيه، ويكون النهي عن المنكر، النهي عن كل قول وعمل وحال أنكرته الشريعة.

وجائز أن تكون الدعوة إلى الخير دعوة إلى التوحيد الخالص، ويكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيان للقرآن والسنة بما أحله الله تعالى وما حرمه منها. وجائز أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدلاً من الدعوة إلى الخير. ولا يتجمل المسلم بهذا الجمال إلا إذا منحه الله تعالى نوراً تستبين به له الحقائق، وحباً في قلبه يجذبه بكليته إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وإلا فالعلم يهتف بالعمل، وإلا ارتحل. ومن زعم أنه عالم ولم يعمل فقد أكبر الفرية على الله، وظلم نفسه، لأن العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم، ومتى تصورت النفس رسوم المعلوم سارعت الجوارح إلى القيام بما يطلبه العلم المتصور على جوهر النفس.

وهنا، هل (من) في ﴿مِنْكُمْ﴾ للتبويض أو لا؟ هنا خلاف، فمن قائل: إن كل مسلم واجب عليه أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ومن قائل: إن هذا الحكم فرض كفاية على أهله، فلا يجوز للمسلم أن يدعو للخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا إذا بلغ به العلم عين اليقين، وأشهده الله مقادير النفوس، حينئذ يدعو، ويأمر وينهى بأسلوب الحكيم.

وعندي: أن كل مسلم يجب عليه أن يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بقدر ما يعلم، فلا يبين الحقائق التي لم يقو الناس على استبانتها، بل يسترها عنهم حتى تحصل لهم العناية من الله تعالى، فيمنحهم الله النور الذي تستبين لهم به الحقائق. أما ترك الدعوة إلى الخير، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اعتماداً على أن هذا فرض كفاية على أهل العلم، فذلك تعطيل لسبيل الله تعالى. فإن الصحابة رضوان الله عنهم، كان الرجل منهم يجلس مع رسول الله ﷺ النفس أو أكثر فيقوم يدعو غيره إلى الخير بقدر ما علم، أما

الذين يكشفون أسرار الغيب لمن لم يؤهلوا فإنهم يلجئون الناس أن يكذبوا الحق. قال ﷺ: (أتحبون أن يكذب الله ورسوله).

والحقيقة التي لا مرأى فيها أن الله تعالى منح كل مسلم أقبال عليه بقلبه لسان حكمة، ونوراً تسبين له به سبل الله، وحالاً علياً يمكنه أن ينوع بها أفكار العالم. فإن المراد من الدعوة هو تنويع الأفكار، وما من مخلص تجمل بالصدق مع الله تعالى، إلا ألقى الله عليه محبة منه، حتى لو أخطأ في البيان يلهم الله السامعين الصواب في العمل والفهم.

إلا من جعل الدعوة إلى الخير لطلب الدنيا، فإنه يفسد من اعتقد فيه، ويضل من اهتدى به. وما ظهرت التفرقة في أمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ والاختلافات التي أودت بهم إلا من دعاة الجهالة، الذين يطلبون الدنيا بعمل الدين، أعادنا الله وإخواننا المسلمين من تلك الفتنة العمياء الصماء، إنه مجيب الدعاء.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة عائدة إلى من فرض الله تعالى عليهم الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بكل مقاصدهم، ومن المقاصد: طلب الثواب، وطلب الجنة، وطلب الرضوان الأكبر، وطلب الله فراراً من جميع من سواه إليه جل جلاله. فمن أعانه الله على ما كلفه به، ومن طلب الجنة نالها، أو مقعد صدق فاز به، أو الرضوان الأكبر منحه، أو طلب الله أكرمه الله بأن يقربه ويرفعه لديه.



وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أولاً الآيات

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ آل عمران ١١٣، فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ التوبة ٧١، فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ المائدة ٧٨-٧٩، هذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الحج ٤١، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين.

ثانياً الأخبار

روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة ١٠٥، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده). وروى عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: (يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك العوام، إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم، قيل: بل منهم يا رسول الله، قال: لا، بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون

عليه أعواناً).

و سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال: إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، وتقولون فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا هديتم. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم). ومعناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم.

وقال عليه السلام: (إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما بعث الله عز وجل نبياً إلا وله حوارى، فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم، فإذا انقضوا كان من بعدهم قوم يركبون رؤوس المنابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون، فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك إسلام).

ثالثاً الآثار

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجلب كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم. وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء، قال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه. وقال حذيفة: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد

بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله. ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به.

أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أن الأركان في الحسبة - التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أربعة هي: المحتسب، والمحتسب فيه، والمحتسب عليه، ونفس الاحتساب. وهذه الأربعة لكل واحد منها شروط.

الركن الأول: المحتسب

المحتسب له شروط هي:

- ١ التكليف، فلا يلزم المجنون أو الصبي.
- ٢ الإيمان، فلا يلزم الكافر.
- ٣ العدالة، فلا يجوز للفاسق أن يحتسب.
- ٤ أن يكون مأذوناً من جهة الإمام والوالي، وهذا الاشتراط فاسد لأن الآيات والأحاديث التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصى، قال عليه السلام: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

٥ أن يكون قادراً، فلا تجب على العاجز والرقيق، ولكن عليه حسبة بقلبه.

الركن الثاني: ما فيه الحسبة

وله أربعة شروط هي:

١ كونه منكراً، ونعنى به أن يكون محذور الوقوع في الشرع.

٢ أن يكون موجوداً في الحال.

٣ أن يكون المنكر ظاهراً للمحتسب بغير تجسس.

٤ أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد.

الركن الثالث: المحتسب عليه

وشروطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكراً، وأقل ما يكفى في ذلك أن يكون إنساناً ولا يشترط كونه مكلفاً، إذ أن الصبى لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ. ولا يشترط كونه مميزاً، إذ أن المجنون لو كان يزنى بمجنونة لوجب منعه منه.. وكذلك البهيمة التى تفسد زرعاً لإنسان تمنع ليس بقصد إخراجها لوقوع معصية، بل لحفظ مال المسلم.

الركن الرابع: نفس الاحتساب

للاحتساب آداب ودرجات:

أما الدرجات: فأولها التعرف ثم التعريف ثم النهى ثم الوعظ والنصح ثم السب والتعنيف ثم التغيير باليد ثم التهديد بالضرب ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ثم شهر السلاح ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود. والانتقال من درجة إلى درجة بشرط الضرورة، والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع فنبغى أن يكف.

وأما آداب الاحتساب: فجميعها مصدرها ثلاث صفات في المحتسب هى: العلم، والورع، وحسن الخلق، فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات، وبها تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر بل ربما كانت الحسبة أيضاً منكراً لمجاوزه حد الشرع فيها، ودل على هذه الآداب قوله ﷺ وآله: (لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به فقيه

فيما ينهى عنه).

وآداب الاحتساب هي:

- ١ توطين النفس على الصبر.
- ٢ تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه، وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة.
- ٣ وجوب الرفق.
- ٤ ألا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك.
- ٥ أن يقتصر في التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو ألا يأخذ بلحيته في الإخراج ولا برجله إذا قدر على جره بيده، فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه.
- ٦ ألا يقدم على السب والتعنيف إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف، وألا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة، ولا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه كقوله: لأنهبين دارك، أو لأضربن ولدك، أو لأسبين زوجتك وما يجرى مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب.



أهل الفرقة الناجية ينصحون الحكام

أنزل الله تعالى أمة حبيبه ومصطفاه ﷺ وآله منزلة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ آل عمران ١١٠، تشریفاً لحبيبه ومصطفاه ﷺ، لذلك فأهل الفرقة الناجية كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أمام الحكام والسلاطين والأمراء ولا يخافون في الله لومة لائم، وإليك أمثلة منهم رضى الله عنهم:

عطاء بن أبي رباح

عن الأصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرّم رسوله تعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم.

فقال له: أجل أفعل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: وهذا وأبيك الشرف.

الحسن البصرى

يروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، فدخلنا عليه ودخل الحسن البصرى - رحمه الله - آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحباً بأبى سعيد إلىّ إلىّ، ثم دعا بكرسى فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه، جعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر على بن أبى طالب رضي الله عنه فنال منه ونلنا منه، مقاربة له وفرقاً من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه فقال: يا أبا سعيد ما لي أراك ساكناً قال: ما عسيت أن أقول، قال: أخبرنى برأيك

في أبي تراب، قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة ١٤٣، فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي ﷺ وختنه على ابنته، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول: إن كانت لعل هناة فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا، فبسر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرجنا. قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك عنى يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سئلت. فصدقت أو سكت فسلمت، قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها، قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة.

قال: وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول: قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم، قال: نعم، قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ﴿لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُمُونَهُ﴾ آل عمران ١٧٨، قال: يا حسن أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره، فأفرق بين رأسك وجسدك.

الأوزاعي

عن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال: بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد على واستجلسني ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال: قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقْتِباس منكم، قال: قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول لك، قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وفيه وجهت إليك وأقدمتك له، قال: قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به، قال: فصاح بي الربيع - الوزير - وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام،

فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: (أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً، ويزداد الله بها سخطاً عليه). يا أمير المؤمنين: حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: (أيما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة).

يا أمير المؤمنين: من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين، إن الذى لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً لهم بنفسه في ذات يده، محموداً عند الله وعند الناس، فحقيق بك أن تكون - له فيهم بالحق، وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً، ولعوراتهم ساتراً لا تغلق عليك دونهم الأبواب، ولا تقيم دونهم الحجاب، تبتهج بالنعمة عندهم، وتبتئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين: قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحرهم وأسودهم، مسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامه سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين: حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة: أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: (اقتص منى، فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبى أنت وأمى، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسى، فدعا له بخير).

يا أمير المؤمنين: رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض، التى يقول فيها رسول الله ﷺ: (لقاب قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها).

يا أمير المؤمنين: إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق

لغيرك يا أمير المؤمنين: أتدرى ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ الكهف ٤٩، قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن.

يا أمير المؤمنين: بلغنى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة (السخلة: الذكر والأنثى من ولد الشاة) على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك.

يا أمير المؤمنين: أتدرى ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص ٢٦، قال الله تعالى في الزبور: (يا داود إذا قعد الحصان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له، فيفلح على صاحبه فأموك عن نبوتى، ثم لا تكون خليفتى ولا كرامة، يا داود إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء رعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير، ويدلوا الهزيل على الكلاء والماء). يا أمير المؤمنين: إنك قد بليت بأمر لو عرض على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه.

يا أمير المؤمنين: حدثنى يزيد بن جابر بن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقبياً، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله، قال: لا، قال: وكيف ذلك؟ قال: إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من وال يلى شيئاً من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله، فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسناً نجا بإحسانه، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوى به في النار سبعين خريفاً). فقال له عمر رضي الله عنه: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبى ذر وسلمان، فأرسل إليهما عمر فسألها فقالا: نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: واعمره من يتولاها بما فيها، فقال أبو ذر رضي الله عنه: من سلت الله أنفه وألصق خده بالأرض، قال: فأخذ المنديل فوضعه على

وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني.

يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبي ﷺ: (يا عباس يا عم النبي نفس تحيها خير من إمارة لا تحيها). نصيحة منه لعمه وشفقة عليه، وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء ٣١٤، فقال: (يا عباس ويا صفية عمى النبي، ويا فاطمة بنت محمد إنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً).

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقيم أمر الناس إلا خفيف العقل أريب العقد، لا يطلع منه على عورة، ولا يخاف منه على حرة، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وقال: الأمراء أربعة: فأمر قوى ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله بأسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده). وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً.

وقد بلغنى يا أمير المؤمنين: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم إن كنت تعلم أنى أبالى إذا قعد الحصان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلنى طرفة عين. يا أمير المؤمنين: إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه، فهذه نصيحتى إليك. والسلام عليك.

ثم نهضت فقال لى: إلى أين؟ فقلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء، فقال: قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها، والله الموفق للخير والمعين عليه، وبه أستعين وعليه أتوكل، وهو حسبى ونعم الوكيل، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة. قلت: أفعل إن شاء الله. قال محمد بن مصعب: فأمر له بهال يستعين به على خروجه فلم يقبله، وقال: أنا فى غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى ذلك.

سفيان الثوري

عن أبي عمران الجوني قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة، ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد، وكان يظهر النسك والتقشف، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديماً، فهجره سفيان ولم يزره، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه، فلم يزره ولم يعبا بموضعه، ولا بما صار إليه، فاشتد ذلك على هارون فكتب إليه كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد: يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله، وأعلم أنى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإنى منطو لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً لما أجد لك فى قلبى من المحبة، وأعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقى من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأنى بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى، وإنى استبطأتك فلم تأتنى، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً منى إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل).

ثم أرسله مع عباد الطالقانى، فوصل إلى سفيان الثورى فوجده يصلى، ولما انتهى من صلاته، قرأه عليه أحد المحاضرين، فتبسم سفيان، ثم قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه فى قرطاس نقى، فقال: اكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شئ مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال: اكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور بالأمال هارون الرشيد الذى سلب حلاوة الإيمان، أما بعد: فإنى قد كتبت إليك أعرفك أنى صرمت حبلك، وقطعت ودك، وقليت موضعك، فإنك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرار على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه،

وأنفذته في غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت إلى تشهدنى على نفسك، أما إنى شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى.

يا هارون: هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضيت بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل، أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم، والأرامل والأيتام، أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد يا هارون مئزرك وأعد للمسئلة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيد القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً.

يا هارون: قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون، يشربون الخمر ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدون الزانى، ويسرقون ويقطعون السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس. فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم، أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار، كأنى بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك، بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي، واتعظ بموعظتى التى وعظتكم بها، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية.

فاتق الله يا هارون فى رعيتك، واحفظ محمداً ﷺ فى أمته، وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإنى أحسبك يا هارون من خسر دنياه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لى كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه.. والسلام.

قال عباد: فألقى إلى الكتاب منشوراً غير مطوى ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت: يا أهل الكوفة، فأجابوني، فقلت لهم: يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله، فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم، فقلت: لا حاجة لي في المال، ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية، قال: فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون (البرذون: فرس تركي) وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً، فهزأ بي من كان على باب الخليفة، ثم استؤذن لي، فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة، قام وقعد، ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن، ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل، مالي والدنيا والملك يزول عني سريعاً. ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إلي، فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق، فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن، كنت تجعله عبرة لغيره، فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتومه، والشقى من أهلكتموه، وإن سفيان أمة وحده، فاتركوا سفيان وشأنه، ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله. فرحم الله عبداً نظراً لنفسه - واتقى الله فيما يقدم عليه من عمله، فإنه عليه يحاسب، وبه يجازى، والله ولى التوفيق.

أبو الحسين النورى

عن أحمد بن إبراهيم المقرئ قال: كان أبو الحسين النورى رجلاً قليل الفضول، لا يسأل عما لا يعنيه، ولا يفتش عما لا يحتاج إليه، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه، فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشركة الفحامين يتطهر للصلاة، إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دنياً مكتوب عليها بالقار لطف، فقرأه وأنكره لأنه لم يعرف في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف، فقال للملاح: ماذا في هذه الدنان؟ قال: وماذا عليك، امض في شغلك، فلما سمع النورى من الملاح هذا القول ازداد تعطشاً إلى معرفته، فقال: أحب أن تخبرنى ماذا في هذه الدنان، قال: وماذا عليك أنت والله صوفى فضولى، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتمم به مجلسه، فقال النورى: هذا خمر، قال: نعم، فقال: أحب أن تعطينى ذلك المدرى، فاغتاز

الملاح عليه وقال لغلامه: أعطه حتى أنظر ما يصنع، فلما صارت المدري في يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرها دنأ دنأ حتى أتى على آخرها، إلا دنأ واحداً، والملاح يستغيث، إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح، فقبض على النورى وأشخصه إلى حضرة المعتضد، وكان المعتضد سيفه قبل كلامه، ولم يشك الناس في أنه سيقتله.

قال أبو الحسين: فأدخلت عليه وهو جالس على كرسى حديد وبيده عمود يقبله، فلما رآه قال: من أنت؟ قلت: محتسب، قال: ومن ولاك الحسبة، قلت: الذى ولاك الإمامة ولانى الحسبة يا أمير المؤمنين. قال: فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلىّ وقال: ما الذى حملك على ما صنعت؟ فقلت: شفقة منى عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه، قال: فأطرق مفكراً فى كلامى ثم رفع رأسه إلىّ وقال: كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان، فقلت: فى تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن، فقال: هات خبرنى، فقلت: يا أمير المؤمنين إنى أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لى بذلك، وغمر قلبى شاهد الإجلال للحق، وخوف المطالبة فغابت هيبه الخلق عنى فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدن فاستشعرت نفسى كبراً، على أنى أقدمت على مثلك، فمنعت، ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال، فقال المعتضد: اذهب فقد أطلقنا يدك، غير ما أحببت أن تغيره من المنكر. قال أبو الحسين: فقلت: يا أمير المؤمنين بغض إلى التغيير لأنى كنت أغير عن الله تعالى، وأنا الآن أغير عن شرطى، فقال المعتضد: ما حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين تأمر بإخراجى سالماً، فأمر له بذلك، وخرج إلى البصرة فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد، فأقام بالبصرة إلى أن توفى المعتضد، ثم رجع إلى بغداد.

* * *

بين السلف والخلف

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين، لأنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن

يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها. وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحواهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والمجاهة، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر، والله المستعان على كل حال.



الفصل السابع

أهل الفرقة الناجية هم المحافظون لحدود الله

أهل الفرقة الناجية هم المحافظون لحدود الله، أى شرائعه وأحكامه التى حدد فيها ما يجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها، وما يجب على أئمة المسلمين وأولى الأمر وأهل الحل والعقد منهم لإقامتها وتنفيذها بالعمل فى أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم من الحفظ لها.

ومن مباحث اللغة أن المعدودات تسرد بغير عطف وإنما عطف النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف للإيذان بأنهما فريضة واحدة لتلازمهما فى الغالب. وأما عطف المحافظون لحدود الله على جملة ما تقدم فقليل: لأن التعداد قد تم بالوصف السابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخر معطوف عليه، وأن هذه الواو تسمى واو الثانية، وأنكر هذه الواو النحاة المحققون، وقيل: لأنه إجمال لما تقدم من التفصيل قبله، فلا يصح أن يجعل فرداً من أفرادها فيسرد معه، وأقوى منه عندى أنه وصف جامع للتكاليف عامة، والمنهيات، وهو أول ما يلاحظ فى حفظ حدود الله، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ البقرة ١٧٨، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة ٢٢٩، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ الطلاق ١.

وعلى هذا يكون معنى نظم الآية أن المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون بالصفات السبع، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله فى كل أمر ونهى. ويعبر عن هذا فى عرف هذا العصر بقولهم: (المثل الأعلى)، ويطلقونه على الأفراد النابغين فى بعض الفضائل العامة، وعلى الجماعات والأمم الراقية، ويكفى أن يقال فيه: (المثل) فى كذا، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الزخرف ٥٧ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الزخرف ٥٩، أو يقال: (مثل عال) أو (مثل شريف)، وأما (الأعلى) فهو الله عز وجل كما قال عن نفسه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ النحل ٦٠، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الروم ٢٧.

وجملة القول فيهم أنهم الحافظون لجميع حدود الله تعالى، وخصت تلك الخلال السبع بالذكر لأنها هي التي تمثل في نفس المؤمن أكمل ما يكون به محافظاً على حدود الله.

إقامة حدود الله

هذا الموضوع أهم المواضيع التي يجب العناية بها لأمرين عظيمين:

الأمر الأول: أن سعادة المسلمين في تلك الدار الدنيا، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وراحة قلوبهم، متوقف على إقامة حدود الله، بل وصفاء أفكارهم التي بها العمل في الدنيا للآخرة، لأن الفرد إذا عمل في التفكير للمعتدى عليه، وأذية المبيح لعرضه وماله، أهمل العمل في الدنيا للآخرة من اختراعه، وتحصيل علوم الصناعات والفنون، ومتى اشتغل كل فرد من المسلمين بتلك البلايا، أصبح المجتمع كالجسد الذي اعتورته الأمراض في كل أعضائه، فصار في حاجة إلى الممرض والطبيب والمعين، بعد أن كان قاهراً لأعدائه، عاملاً لنفع أعضائه المتممة له.

هذا بعض ما يصيب المجتمع بترك إقامة حدود الله في الدنيا، وكفى بذلك شراً، وذلك لأن الحكيم القادر خلق الإنسان مفطوراً على الحرص، وشغفاً بنيل حظوظه وأغراضه، فهو أجراً من السبع عند نيل حظ من حظوظه، لأن السبع إنما يجراً بلا فكر ولا روية، فقد يتقى ويتحفظ من شره، وأما الإنسان فإنه عندما يدعوه حظه يقوم بتنفيذه بقوتين - قوته البدنية التي هي كالسبع، وقوة التدبير بفكره - فلا يمكن أن يدفع شره، ولذا فالحكيم القادر جعل حدوده من أنواع القصاص والتعذير والتأديب، لكبح جماح النفوس الطاغية الباغية، وجعل أنواع العبادات والقربات لتزكيتها وتطهيرها بعد كبحتها. فإذا أهمل المسلمون في إقامة حدود الله وإقامة شعائره ظهر الفساد في البر والبحر، وصار المجتمع كمجتمع الحيوانات المفترسة في غابة، ووكلمهم الله إلى أنفسهم، ومكن منهم عدوهم، وحبس عنهم رزق السماء، فصاروا أذلاء بعد العز، أعوذ بالله من قوم يضيع الحق بينهم.

الأمر الثاني: أن إهمال إقامة حدود الله وترك القيام بشعائر الله عز وجل تجعل المؤمن

ينقص إيمانه، حتى قد يزول من قلبه، فيخرج من الدنيا بغير إيمان - نعوذ بالله من ذلك - قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾﴾ الأنفال ٢-٤، وقال ﷺ: (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن). الحديث. وقال ﷺ: (تارك الصلاة ملعون)، فوصف الله تعالى المؤمنين بما به يكونون مؤمنين، ووصف رسول الله ﷺ المنافقين الذين لا إيمان لهم بما به يكونون منافقين، وقد بين الله سبحانه وتعالى صفات عباده المؤمنين في آية جمعت ما لا يكون المؤمن مؤمناً إلا به، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ الفرقان ٦٣، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴿١﴾﴾ الطلاق ١، وقد بين الله تعالى في القرآن الشريف أن الشرك ظلم عظيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لقمان ١٣.

لما كان المتعدى حدود الله قد ظلم نفسه، فكأن الآية تشير إلى أن المتعدى حدود الله مشرك، وأن المتظاهر بالشرك ظلم عظيم، والفرق بين المتظاهر بالشرك والمتعدى حدود الله، أن المتظاهر بالشرك كافر مخلد في نار جهنم، والمسلم المتعدى حدود الله وسع الله له الأمر في أن يتوب إليه، فإن تاب التوبة النصوح بشروطها التي بينها في كتاب "أصول الوصول" فذلك برهان على مغفرة الله له، وإن مات على غير توبة - والعياذ بالله - فأمره مفوض إلى ربه، إن شاء أماته كافراً، أو شاء أماته مسلماً، وعذبه على خطايا أو غفر له، وأدخله الجنة، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فالإهمال في إقامة حدود الله والقيام بشعائره موبقة للنفوس ماحقة للإيمان مجلبة غضب الله، موجبة لعذاب الله إن لم يغفر.



من الذى يقيم حدود الله ويقوم بشعائر الله؟

أولاً الفرد المسلم

أما أولاً وبالذات فكل فرد من المسلمين واجب عليه أن يسعى في جلب الخير لنفسه، ودفع الضر عنها، ولا خير أعظم من العمل بكتاب الله والمحافظة على سنة رسول الله، لأنه بذلك يسعد السعادتین وينال الخيرين، ويسود في الدارين ولو عاش فقيراً، فإن العمل بالسنة والكتاب، يشرح الصدور وتطمئن به القلوب، ويريح الفكر والبدن، ويجعل الإنسان آمناً في سربه، ميسراً له قوته، معافى في بدنه، وهى سعادة الدنيا. محبوباً في قومه، موسعاً له في قبره، محمولاً على نجائب العناية ورفارف الحنانة والرفافة الإلهية، وهى السعادة فى الآخرة.

ومثل هذا متى ينقبض صدره أو يضيق رزقه أو يتألم جسمه أو يهان بين قومه أو يفتقر إلى شرار الخلق أو يذل أبناؤه بعده؟ وقد قام بها جعل الله تعالى معه فى حياته الدنيا بالهداية والتوفيق، وفى حياته البرزخية بالبشائر والرحمة، وفى حياته الأخرى بالقرب ومشاهدة الوجه الجميل، والنعيم المقيم، وجعل الله تعالى خليفة عنه على أبناءه وأهله، ومن جعل الله خليفة عنه على أبناءه وأهله لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، قال الله تعالى فى تحقيق ما قلنا: ﴿الْأَإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس ٦٢، وقال الله سبحانه فى خلافته عن وليه على أبناءه بعد موته: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الكهف ٨٢، هذا بعض ما يمكن أن يسطر على الأوراق، أو تنطق به الألسنة من الخير الذى يناله المحافظ على حدود الله، القائم بشعائر الله، ونعمة الله لا تحصى على الأفراد العصاة أو الكفار، من الإيجاد والإمداد والعناية، فكيف بنعم الله على العبد المطيع الولي؟ لا يعلم نعم الله على العبد المطيع إلا الله.

فالواجب على كل فرد من أفراد المسلمين ولو أهمل السلطان إقامة حدود الله والمحافظة على شعائره، أن يحافظ على العمل بالسنة والكتاب، محافظة على نفسه من أن يقع فى هوة نار، أو جب تنهشه الأفاعى، وليسارع إلى العمل بالسنة والكتاب، كما يسارع إلى أن يملك أرضاً ذات أنهار جارية وحدائق غناء ونسيم عليل ليل وأمن وأمان وإطلاق وسلطان، يناها

بلا عناء ولا تعب فادح، ولا بذل مال ولا نفس، كيف تكون مسارعتة إليها؟ الجواب أكله إلى نفسه.

فالواجب على كل مسلم أن يقوم بنفسه لنيل ما به سعادتها في العاجل والآجل، بكل ما في وسعه، وليعتقد أن إهماله هلاك لنفسه، وتساوله خسران عليه، قال تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ النور ١٧.

ثانياً السلطان

أما الثانى الذى يقوم بحدود الله تعالى، وإن كان فى ظاهر الأمر هو الأول، كما قال سيدنا عثمان بن عفان: ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن. فهو السلطان القائم بالخلافة عن ربه، وعن رسول الله ﷺ، المنفذ لأحكام الله، المقيم حدود الله، المحافظ على ثغور المسلمين، الذى ينام الناس ويسهر، ويرتاح الناس ويتعب، ويأمن الناس ويخاف، ويشبع الناس ويجوع، ليستريح يوم القيامة، ويشبع ويأمن ويتنعم بنعيم لم يتنعم به أحد غيره، وهو الأمان الذى يكبح النفوس عن استرسالها فيما فطرت عليه من المفاسد والأهواء، ويعين المظلوم على الظالم، يؤم الناس فى صلاتهم، ويطوف عليهم فى ليلهم، يعود مرضاهم، ويشيع جنازهم، ويذكرهم أيام ربهم، فىكون إماماً للمتقين، وسراجاً منيراً لرعيته المطيعين، وحرماً على العصاة المارقين، وأعداء الإسلام والمسلمين المظاهرين، هذا هو الذى يقيم حدود الله، وعدل ساعة منه خير من أربعين سنة مطراً، فإن عدل ساعة ترضى الله تعالى ورسوله، وتجعل المجتمع فى سرور وأمان وائتلاف ووفاق، فتكون قلوبنا مجتمعة والله معنا، ومتى اجتمعت القلوب كان الله معنا فحقق وعده سبحانه الذى وعدنا به بقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ النور ٥٥، وقد أنجز وعده سبحانه - بمزيد فضل منه - لسلفنا الصالح رضى الله عنهم، فمكّن لهم فى الأرض تمكيناً أذل لهم جبابرة الأرض وملوكها، ونشر بهم دينه بين عباده الذين سبقت لهم الحسنى منه سبحانه، وكان كل من على ظهر البسيطة فى وسعة من الرزق، أمن على النفس

والمال والأهل والولد، وعافية في الأبدان، لا فرق بين المسلم والذمي، فللذمي من الحقوق الاجتماعية ما للمسلم وزيادة. أما قولنا وزيادة، فلأن المسلم كان يطالب بزكاة ماله وحماية الثغور، وبجهاد العدو، وبحقوق لإخوته المؤمنين في ماله ونفسه - غير الواجب - وبالقيام بشعائر الله، وكان الذمي لا يطالب بشئ غير الجزية التي تؤخذ منه ليساعد بها على كبح جماح الظالم وإقامة العدل بين الناس، ولحفظ الأنهار وجسور الترع، ولرجال الخفر والحراسة، ولتأسيس المستشفيات والملاجئ للأيتام والعجزة والشيوخ، ولتجنيد الجند، وهذا القدر كان ينفق على أهل الذمة أضعاف أضغافه من بيت مال المسلمين، فكان هذا العمل من العدل والمساواة وإقامة حدود الله والعمل بسنة رسول الله، تمكيناً من الله لعباده المسلمين.

والإهمال في إقامة حدود الله وإحياء شعائر الله مؤد إلى ظلم العباد، وخراب البلاد، وغضب الله عليهم، ولا ينظر الله إلى جماعة تعدوا حدوده، وأماتوا سنته، وعملوا بغير كتابه، وقوم لا ينظر الله إليهم أوقفوا أنفسهم في مقت الله وغضبه، أعود بالله من موجبات سخطه. السلطان ظل الله في أرضه، وسيفه المسلول على أعدائه، وروضه الزاهر داني الجنى لأوليائه، وهو - إذا كان كما وصفنا - القطب الغوث الفرد الجامع، محل نظر الله إلى عبادته، وميزاب فضله العظيم على أحبائه، نسأل الله تعالى أن لا يخلي الأرض من قائم له سبحانه وتعالى بحجة، حافظ لحدود الله، قائم بشعائر الله سبحانه، وأن يجدد سنة نبيه ويعلى كلمته، ويفتح كنوز فضله وخزائن جوده وأبواب نعمه الواسعة، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

ثالثاً المجتمع

الثالث الذي يقوم بحدود الله، وهو الحاكم على الخليفة الأعظم وممده، وببيده خلعه وبقاؤه، ويمكنه أن يعصيه أو يطيعه، وهو المجتمع، وعليه أعظم المسؤولية، وبتهاونه - ولو مع الإمام - تحصل له البلية، فالإمام والمجتمع مثلهم رسول الله ﷺ بالسفينة التي بها دور أسفل، ودور أعلى، فالذين في العلو يشربون من النهر، والذين في السفلى يتناولون الماء من

أهل العلو، فلو قام واحد من أهل السفلى وأخذ الفأس أراد أن يخرق السفينة لتناول الماء من النهر أهلك الجميع. فعلى المجتمع أن يتحد ويتضامن على تنبيه السلطان لخير الجميع أو قهره على ذلك، فإن أبى خلع، وإنما ينبه إذا أهمل في حدود الله سبحانه، أو أهمل في شعائر الله، أو سعى في الأرض بالفساد.

وإنما يقوم بهذا العمل المجتمع الإسلامى الذى تجمل بجمال أهل المدينة المنورة، عقيدة وعبادة وخلقاً ومعاملة، لا مطلق المجتمع، والواجب على المجتمع الذى لم يتكمل بهذا الكمال أن يبتدئوا بتزكية نفوسهم، حتى إذا زكت ولى الله عليهم خيارهم، كما قال ﷺ: (كما تكونوا يول عليكم). أسأل الله تعالى أن يمنحنا الهداية والتوفيق لما يجب، وأن يولى أمورنا خيارنا، إنه مجيب الدعاء.

وفي الحقيقة ونفس الأمر، إذا صلح المجتمع صلح بصلاحه الخليفة والولاية، لأن المجتمع الصالح يصلح من تولى أمره، أسأل الله تعالى أن يمنحنا الهداية والتوفيق لما يجب، وأن يولى أمره لمن كان مصلحاً، وأن تكون عناية الله محيطه به.

من أسرار الفرقة الناجية في حفظ حدود الله

١ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة ١٨٧، الإشارة هنا إلى الأحكام التى أنزلها الله فى تلك الآيات من أول قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ البقرة ١٨٣، ولك أن تقول من قبلها، وحدود الله تعالى يعنى الفواصل بين الحق والباطل فمن تعداها وقع فيما حرم الله أو أفسد عمله، وفى ذلك من الجهالة ما فيه.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة ١٨٧، أى كما بين أحكامه فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة وبالمعاملة فى أموالنا وبالصلاة والزكاة والصيام، كذلك بين جميع أحكامه التى بها سعادة المجتمع الإسلامى فى الدنيا والآخرة ﴿يُبَيِّنُ﴾ أى يوضح ﴿ءَايَاتِهِ﴾ أحكامه المتعلقة بكل الشئون ﴿لِلنَّاسِ﴾ للخلق جميعاً لأن دعوة النبى ﷺ عامة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى لتحصل لهم التقوى مما يغضب الله تعالى.

٢ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة ٢٢٩، الإشارة إلى ما تقدم من الأحكام التي هي أحكام الله المنزلة على نبيه ﷺ فيما يتعلق بالزوجة، وهي الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، ومن خالف تلك الأحكام بأن تعداها إلى هواه وحظه: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة ٢٢٩، والإشارة هنا عائدة إلى من يتعدى حدود الله.

والظالمون هم من ظلموا أنفسهم بمخالفة أحكام الله، وقد يعظم الظلم فيكون شركاً قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان ١٣، وبلوغ الظلم إلى حالة تعظيمه هو أن يستهين الإنسان بأحكام الله وينفذ هواه عناداً.

وهذا تهديد من الله للذين يتعدون حدود الله في أحكامه، ما يتعلق منها بالزوجة وغيرها، اللهم إلا ما رخصت فيه الشريعة أو دعت إليه الضرورة بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا أَضْطَرَّرْتُمُ إِلَيْهِ﴾ الأنعام ١١٩، ومعنى أنها حدود الله الفاصلة بين الحق والباطل أن الزوج المؤمن الأولي له أن يكون رحيماً فيتجاوز لزوجته عن بعض ماله أو عن كلة رغبة في رضوان الله، وبذلك قد ينتقم الله منها إن كانت ظالمة له.

٣ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٢٣٠، أى هذه الأحكام التي يفصلها سبحانه لنا جلية يبينها للعالمين الذين علمهم الله مراده من أحكامه، وهم الذين يُسألون في مثل هذه الحقائق فيشرحونها للناس، أو هم ولاية الأمر الذين ينفذون أحكام الله إذا رفعت إليهم القضايا. وفي قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٢٣٠، أن الإنسان إذا لم يكن عالماً بتلك الأسرار وجب عليه أن يسأل من فوَّقه في العلم وأن يقلده فيما بينه له من أحكام.



البشرى لأهل الفرقة الناجية رضى الله عنهم

ثم ختم سبحانه هذه الأوصاف الثمانية بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة ٢٢٣، أى وبشر - أيها الرسول - المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات، ولم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة. ويحسن بنا في هذا المقام أن نبين ما هى البشرى ومن هو البشير ومن هم المبشرين.

أولاً البشرى

كل خبر بخير لم يسبق للمخبر به أن يسمعه، وكل القرآن بشائر للمؤمنين، فوعده بشرى لهم لأنه يقرر لهم الفوز بالسعادة الدائمة، وبالخير العاجل في الدنيا، وفي وعيده يبشرهم بنصرهم على أعدائهم، وبالانتقام من خصومهم، وبالتمكن لهم في الأرض بالحق، بعد إذلال أعداء الله وأعدائنا.

ثانياً البشير

الذى يبشر هو رسول الله ﷺ وورثته من بعده، والبشير هو الذى يهب الله لكثير من خلقه خيراً كثيراً على يديه في الدنيا والآخرة والأمر كذلك، أما في الدنيا فإن الله تعالى حفظ به العالم الإنسانى، لا فرق بين المسلم والكافر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧.

فكان رحمة لبنى الإنسان ولكل الحيوانات، أما لبنى الإنسان فإنه ﷺ وصى أمته بالإحسان وبالرحمة لكل مخلوق، وأمرنا أن ندعوهم إلى الإسلام بالتى هى أحسن، ووضع الرأفة والرحمة بأمر الله في قلوبنا، فإن الله جملة باسمين من أسائه المقدسة، فقال سبحانه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة ١٢٨، وأخبرنا أنه حريص على نجات العالم أجمع، وأنه بنا رؤوف رحيم، والرؤوف الرحيم هو الله تعالى، وكفانا بذلك شرفاً وسعادة، وقد أمره الله تعالى أن يبشر المؤمنين في الدنيا بالعزة والقوة والتمكين في الأرض بالحق ماداموا محافظين على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، ويبشرهم في الآخرة بالرضوان الأكبر،

وبالنظر إلى وجهه الكريم، وبسماح كلامه على بساط منادمته ومؤانسته.

ثالثاً المبشرون

وهم الذين آمنوا، أى صدقوا الله ورسوله قلباً وقالباً، تصديقاً انعقدت عليه قلوبهم
وعملت الصالحات جوارحهم.



الباب الثالث

آداب الفرقة الناجية

الفصل الأول

آداب الفرقة الناجية في شبابهم

العناية الإلهية

عناية الله بأحبابه هي البراق الذي يبلغ بهم أقصى غايات القرب من الجناح المقدس. والعناية الإلهية لا تحصر أنواعها ولا تتناهى آياتها. قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ آل عمران ١٦٤، وقال سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الكهف ١٧، وقال تعالى مخبراً عن سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هود ٨٨، وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الأنبياء ١٠١، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ مِّنْ نِّشَاءٍ﴾ النور ٣٥، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ النور ٤٠.

والأحاديث النبوية في بيان انفراد الحق جل جلاله بالعناية والتوفيق والمعونة، أكثر من أن تحصى، وكفى المسلم المستبصر تحققاً بهذا المقام ما يتلوه كل يوم في صلاته من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، فإن لهذه الآية الشريفة منازل، لو كوشف بها المصلى لتجلت له الحقيقة جلياً، ولفر من حوله وقوته إلى جناب القدس الأعلى، متحققاً بعجزه الحقيقي عن أن يقوم عابداً لله، إلا بمعونة من الله ومنة منه سبحانه، وليست هذه العقيدة في العبادة خاصة، بل هي في كل شئون العبد، ولكل مسلم قسط بقدر مشاهدته لهذه الأنوار الربانية، ومنذ خفيت معالم طريق الله باختفاء أهل العلم بالله تشعبت الجماعة وتفرقت الأمة، فصاروا شيعاً وفرقاً، كل يرى الحق باطلاً لجهله، ومن جهل شيئاً عاداه.

لست في مقام تقرير سبب تفرقة الأمة إلى شعوب، ولا في تركيب الدواء لهذا المرض، فإنى سأبسط ذلك إن شاء الله تعالى في رسالة خاصة تكون محلاً لتلك المواضيع الهامة، ولكنى أبين لإخوانى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من الآداب التى أدبهم بها رسول الله، ووقفهم الله للتأدب بها، فرضى عنهم وأرضاهم عنه، وأحبهم وأحبوه. تظهر تلك العناية بالبعد من شبابه بل ومن صباه.

أنواع تلك العناية وهى سبعة

١ أعظم أنواعها أن يتفضل الله على العبد بتناسب أعضاء بدنه واعتدال مزاجه، وفى الأثر: العقل الصحيح فى الجسم الصحيح، فإن الأعضاء آلات للنفس، لكل عضو وظيفة يؤديها، ومتى كملت الآلات والأدوات أمكن للنفس أن تقوم بواجبها وتسارع إلى كمالها، وهذا فضل يشهده العالم والجاهل من الله مباشرة بلا تدبير للعبد فيه ولا كسب.

٢ ثم أن يهبه الله تعالى نفساً زكية يجملها سبحانه بمعانى الخير فتميل إليه.

٣ ومن العناية أن ينشأ المسلم بين والدين تقيين عاملين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيكونان أعظم إمام له. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِْمْنٍ ءَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الطور ٢١.

٤ ومنها أن الله يمن على المسلم، بالمرشد المتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ الممنوح لسان الحكمة.

٥ ومنها أن ينشأ محفوظاً من الفتن الخاصة والعامة.

٦ ومنها أن يرزقه الله تعالى الحياء من صباه، فيستحى أن يتشبه بمن لا خلاق لهم فيشب على التقوى.

٧ ومنها أن يجعل الله له أصدقاء يعينونه على الخير، فتتجمل نفسه التى وهبها الله له بها هى مؤهلة له من جمال أخلاقهم، كالرحمة والبر والصلة والشجاعة والمسارة إلى عمل الخير واستنكاف عمل الشر، حتى يبلغ أشده وقد حفظه الله تعالى مما يشين أهل السلوك.

معاني النهايات وهي ثلاثة

من الشباب تظهر معاني النهايات، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة. والشباب هو زمن التحصيل والمسارة إلى نيل المقامات العلية لعدة معان:

١ منها أنه زمن مجاهدة النفس، فقليل الخير فيه يعد كثيراً بالنسبة لنزوع النفس فيه إلى فطرها وليولها إلى ما جبلت عليه، فيكون عمل الخير في الشباب كعملين: جهاد للنفس وعمل لله، أو جهاد للنفس نفسه وترك له، فالترك والعمل في الشباب يقربان العبد إلى الله زلفى بخلاف الترك في الهرم، فإن الترك في الهرم ليس طاعة... فتدبر!

٢ ومنها أن الشباب يعين العبد على القيام بعظائم القربات من الجهاد في سبيل الله وإعانة أهل الضرورات، وإعلاء كلمة الله، وتجديد سنة رسول الله، فمن صرف شبابه حتى أضع زمان التحصيل في غير كسب ولا نيل الخيرات، وظن لجهله أنه يقوم بتلك المعاني في هرمه، فقد فاته الخير كله.

٣ ومنها أن الشباب به تحصيل العلوم والمعارف، وبه مشاهدات معاني الصفات لتوفير أضعادها في العبد، فلو أهمل نفسه في الوقت الذي كان يمكنها أن تتكامل فيه لتوفير آلتها وأدواتها، وظن أنه يكملها بعد فقد تلك الآلات والأدوات، فقد جهل سبل الخيرات، ولذلك فإن أئمة المالكية أوجبوا الحج على الفور، وجعلوا الاستطاعة القوة على المشى، والحرفة التي تكون سبباً لقوته، والرفقة، وجعلوا من أهمل ومات مع توفير تلك الاستطاعة مات موتة جاهلية. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران ٩٧.

الشباب عناية الله

الشباب عناية الله لمن سبقت لهم الحسنى، يجذبهم بها إلى حظيرة رضوانه الأكبر بما يوفقههم له من جليل أعمال البر وعظيم القربات، فمن أضع شبابه وظن أنه ناج فقد جهل، لا أحظر على فضل الله فإن الله يتفضل على من يشاء، وإنما يثق بفضل الله كل عبد من عباد الله، وأهل

العزائم يوفقههم الله لما يجب ويرضى، ويخافون على أنفسهم من عذاب يوم الحساب مع ما أقامهم الله فيه من مقامات حبه ومنازل رضوانه. وقد بين الله لنا سبل القرب منه في كتابه فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المج ٤١، والتمكين في الأرض أمر نسبي، فمن عافاه الله ومنحه شباباً وقوة فقد مكّنه في الأرض بقدره، فإن كان من أهل الحسنى أقام الصلاة وآتى الزكاة، وكان عاملاً من عمال الله.

أكمل الآداب في مرحلة الشباب وهي سبعة

- ١ أكمل آدابهم في شبابهم قهر النفس على الحسن من الأعمال، ثم مجاهدتها حتى تنطبع على الأحسن، وهي منة من الله تعالى يعجز المؤمن عن شكرها.
- ٢ ومنها أن يكثرُوا من مجالسة أهل الخشية من الله تعالى لتنكبج نفوسهم بما سيسمعونه منهم.
- ٣ ومنها صحبة من منحهم الله لسان العبارة، فيبينون جمال الآخرة وملذها ونعيمها لهم، فتقبح في أعينهم زينة الدنيا، ثم يسمعون منهم عذاب الآخرة وآلامها وعذاب القبر وهول البعث والأسباب الموجبة له، فيتمثلون عند لمة الشيطان بقلوبهم وتنبهها للمعاصي هول يوم الحساب وآلام العذاب، وما يفقدونه من النعيم والفضل العظيم، فيفرون من المعصية خوفاً مما يتمثلونه أن يحل بهم.
- ٤ ومن آدابهم تعظيم الكبير، والرحمة بالصغير، واحترام النظر.
- ٥ ومن آدابهم البعد عما يثير خواطرهم، وما يهيج نار غضبهم حتى إذا شهدوا مثل هذه الأشياء سارعوا إلى مفارقتها، أو استرذلوا عامليها واستنكفوا أن يتشبهوا بهم.
- ٦ ومنها بذل ما في الوسع لبر الوالدين، وصلة الرحم، وإكرام الجيران، ومعاونة أهل الضرورات، والسبق إلى الخير، والبطاء عن الشر.
- ٧ ومنها أن الشاب إذا أغضبه أحد أسرع إلى الوضوء، فإذا اشتد غضبه قام فصلي،

فإن لم يذهب غضبه، فارق المكان معتقداً أنها فتنة توقعه في نار جهنم إن لم يكظم غيظه، ثم يشكر الله تعالى الذي جعله من الكاظمين الغيظ، ثم يعفو عمن ظلمه ليكون ممن أثنى الله عليهم ومدحهم بقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران ١٣٤.



الفصل الثاني

آداب الفرقة الناجية في مساجدهم

الآداب في المساجد مقاصد أهل النفوس الطاهرة، وجمال أهل المشاهد العلية، إذ أنها تصدر عن استحضار عظمة رب البيت، وإجلال البيت ممن دخله لأجله سبحانه لصالح العمل فيه، وشدة الرغبة في نيل ما ينتغيه، ولذلك فإن أهل الله الصالحين يسيحون في الأرض شرقاً وغرباً لزيارة عارف أدبه الله بالآداب المحمدية في مسجده، ولعلك علمت قوله ﷺ: (الله في قبلة أحدكم ما دام في صلاته). وعلمت أنه ﷺ رأى قمامة في جدار المسجد فغضب حتى احمرت وجنتاه وحكها بظفره، وقال ﷺ: (يقول الله تعالى في الحديث القدسي: إن بيوتى في أرضى المساجد وإن زوارى فيها عمارها، فطوبى لمن تطهر في بيته وزارنى في بيتى، وحق على المزور أن يكرم زائره)، وقال ﷺ: (قمامة المسجد مهوور الحور العين)، وقال الله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة ١٢٥، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَيُسَبَّحَ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۖ النور ٣٦-٣٧، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَن الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ الجن ١٨.

هذا والمسجد نوعان: مسجد خاص ومسجد جامع، فالخاص ما جعله الإنسان مصلى لنفسه أو له ولخاصين، والمسجد الجامع ما فتحت أبوابه لكل مصلى، ولكل آداب.



آداب المسجد الخاص وهي ستة

- ١ أن يطهره من أن يعصى الله فيه بغفلة أو بغيبة أو بسب أو قذف.
- ٢ وله أن ينتفع فيه بعمل المندوبات والمباحات، كالأكل والنوم وإكرام الضيف وصلاة النافلة من غيره في أوقات حلها، ورفع الصوت بالعلم والذكر، والصلح بين الناس في كل وقت.
- ٣ وله أن يمنع من شاء عن دخوله.
- ٤ فإذا ميزه عن غيره في بيته تمييزاً يجعله خاصاً بالصلوات، فالأولى أن يحويه بركتين وأن لا يجلس فيه جنباً، وأن يستحضر عند دخوله أنه بيت الله، وأن الله سبحانه حاضر لا يغيب.
- ٥ ومن آدابه أن يدخله خاشعاً راغباً فرحاً بدخوله. وأن يخرج منه خاشعاً آسفاً عند مفارقتها، معتقداً أنه لولا الضرورة ما فارق بيت الله حتى يكون من الذين تعلقت قلوبهم بالمساجد.
- ٦ وإذا دخل المسجد أكثر ذكر الله وتسبيحه سبحانه وقراءة كلامه العزيز، واشتغل إما بذكر أو ابتهاج أو تنفل بصلاة.

هذه كانت آدابهم رضی الله عنهم في مساجدهم الخاصة.

الخلوة في المسجد الخاص

وقد كان الرجل منهم يجعل له مسجداً خاصاً بنفسه يكره أن يجلس معه فيه غيره، ليفرغ قلبه من الهم بغير الله ويقبل بكليته على الله، وقد غلب على بعضهم أن يسمى هذا المسجد خلوة، وجهل الناس في زماننا هذا سر ذلك، فصار يجعل الرجل منهم لنفسه حجرة ويسميها خلوة، ويدخل فيها فيترك ما أباحه الله من الطيبات، وما أوجبه الله عليه من السعى في طلب العلم أو الرزق، أو عمل بر أو صلة، ويجلس فيتلو كلمات ربها لا يفقه لها

معنى، فتكون خلوته هذه تخلياً عن الواجب والسنة، وعملاً بما أورده على نفسه من نفسه، ولم يكن السلف الصالح يعملون هذا ولكنهم رضى الله عنهم، كان الرجل يجعل له حجرة فيسميها مسجداً، ويدخلها بعد أن يكون قد استوفى ما هو واجب عليه من طلب العلم ومن البر والصلة ومن نفقة الوالدين أو أهل أو أولاد، فيدخل ويصرف أنفاسه في تلاوة القرآن الكريم والركوع والسجود، ويتهل إلى الله أن يزكى نفسه ويطهرها، وتنكشف له حكمة السجود والركوع وأسرار كلام الله تعالى، ويتجلى ربه سبحانه وتعالى لنفسه في نفسه، وله في كلامه العزيز، فتجتمع همومه كلها وتصيرهما واحداً يجذبه حتى يرى ربه سبحانه وتعالى، وقد تكون المساجد الخاصة لمحسب النفس عن شهواتها تأديباً لها، أو لقهرها على التوبة والإنابة إلى الله، أو لمجاهدتها ورياضتها لتطيعه وتستجيب لله سبحانه وتعالى فكلما صرف نفساً من أنفاسه في مسجده الخاص كوشف بأنوار عزة وأسرار جبروت، وورد عليه قس من مشكاة الأنوار القدسية، فوجهه بعظمة وكبرياء وجلال، فتحقق بحقيقة عبد، وتكمل بجمال عبودية، وتحلى بحل عبودة، وتكمل بكمال عبادة، فكان عبداً عاملاً... نعم العبد إنه أواب، هذه بعض آدابهم في مساجدهم الخاصة، وبعض مشاهدتهم التي تشرق عليهم فتجذبهم إلى الاقتراب من الحضرة العلية بالتخلي عن معانى الربوبية، وتحقيقهم بكمال العبادة والسجود. قال الله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق ١٩، فيقترب بالسجود لأن السجود كمال التحقق بالذل والاضطرار والمسكنة للعزيز العلى المتعالى، فيكشف الحجاب سبحانه عن عين عبده، ويشهده جماله، ويقربه منه سبحانه.

من المأثور في آداب المسجد الخاص

كان الرجل يسجد في مسجده فيحدث له أعظم الشئون، فإذا هم أن يهتم بهذا الشأن العظيم سطعت لوامع مواجهة السر لعظيم كبير حاضر قريب، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فيقول: أعوذ بالله من هذا الوارد. وقد يخرج من كل ماله أو يفر من ملكه لأنه خطر على قلبه في وقت المواجهة وكاد يقطعه عن الله فيخشى أن يقطعه فيتبرأ منه، اتباعاً لعمل رسول الله ﷺ بسند البخارى عن عقبة بن الحارث قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر فسلم، ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع

الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال عليه الصلاة والسلام: (ذكرت شيئاً من تبر عندها فكرهت أن يجسنى فأمرت بقسمته)، تذكر ﷺ التبر في الصلاة فأسرع عقب السلام يتخطى الصفوف، حتى أخرجه من ملكه خشية أن يجسه، أى: يشغله، لكى يسن لنا ﷺ أن نقف في الصلاة موقف من لا يشغله شئ غير ربه، فإذا شغله شئ عن مواجهته، أنفقه في سبيل الله سبحانه، كما قال الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء ٧٧، وكما فعل صاحب رسول الله ﷺ عندما وقف يصلى في حائط له (بستان) فرأى في صلاته عصفوراً بين الأشجار الملتفة حاول أن يخرج فلم يستطع لتكاثر الأشجار، فانشرح صدره وهو في صلاته بما شهد من مواجهة العلى العظيم، وكاد يذوب قلبه حسرة على نفسه التى التفتت وهو مواجه لربه، فاشتغل بغير من هو موجه وجهه إليه في مسجده وبين يدي ربه، وخرج من صلاته مسرعاً إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فقال: يا أمير المؤمنين إنى خرجت من حائطى (الفلانى) فاجعله فيما يحبه الله، فسأله أمير المؤمنين فأخبره وهو يبكى، فجعله أمير المؤمنين في نفقة للجهاد.

هكذا كانوا رضى الله عنهم إذا وقف الرجل منهم في مسجده الخاص حجبت أنوار العظمة والكبرياء كل شئ سوى الله، فإن خطر على قلوبهم مال أو ملك خرجوا منه فارين إلى الله، وجعلوه في منفعة المسلمين.

آداب المسجد العام

لا أتعرض للآداب العامة فإن كتب الفقه فصلتها، كتحية المسجد وترك المرور فيه والجلوس للجنب وكعدم البيع والشراء فيه، وترك البحث والسؤال في المسجد عما ضاع في غيره، وتحريم البصاق تجاه القبلة، وكراهة أكل الثوم والبصل للمتوجه للمسجد، والترغيب في النظافة والطيب، كل هذه الآداب قد بينت في كتب الفقه، إنما أريد أن أبين الآداب الخاصة بالخواص ملاحظاً في ذلك ما كان عليه أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم.

معلوم أن دخول المسجد إما واجب عين أو سنة مؤكدة أو مرغّب فيه، فيكون واجب عين

لصلاة الجمعة، وسنة لصلاة الفرائض جماعة، ومرغب فيه لذكر الله وقراءة القرآن والتنفل بالصلوات.

أما آدابهم في دخول المسجد في وقت الوجوب: فكان الرجل منهم يعتقد أن ربه سبحانه وتعالى أمره بالحضور إليه، فيخرج من بيته ليقابل مولاه جل جلاله بناء عن أمره له بالحضور، ويخرج لا يدري أيوقفه لعمل ما يرضيه عنه أم يقدر عليه ما يسخطه عليه، فيخرج من بيته خاشع القلب وجللاً، وكلما قرب من المسجد اشتد خوفه. كانوا رضى الله عنهم لا يدخلون المسجد إلا على طهارة من بيوتهم، فإذا دخلوا المسجد صار كل واحد منهم بين مشهدين كما قال رسول الله ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، فيكون إما شاهداً لربه أو على يقين حق أن الله عالم به ناظر إليه حاضر معه، فيفتتح بتحية المسجد، ثم يجلس غاضباً بصره عن الالتفات الذى يشغل قلبه عن استحضار الشأن الذى هو فيه من جلوسه في بيت الله، بأمر الله بين رغبة في نيل القبول والرضا، ورهبة من الرد والغضب. ومن كان كذلك أغناه شأنه الذى هو فيه عن كل الشئون، وكيف يشغل من رأى ربه أو من يعتقد أنه رآه عن شئ آخر! هذا مستحيل فإن الإنسان العاقل إذا سلب القط دجاجة من أمامه ترك الطعام وفر وراءه حتى يستنقذها منه أو يعجز غير ملتفت لشئ مهما عظم، فإذا كان المستنقذ الدجاجة من القط لا يشغله شأن عن شأن.. فكيف يشتغل من رأى ربه أو من أيقن أن ربه مطلع عليه في الصلاة بشئ آخر.

فكان بعضهم يجلس للمراقبة حتى يؤدي فريضة الجمعة، وبعضهم يجلس للذكر بالقرآن المجيد والتسبيح والتهليل والتكبير، وبعضهم يجلس يسأله الناس عن أمر دينهم ويتحلق حوله الناس، كان الرجل منهم يكره أن يشغل أخاه، لعلمه أن كل إخوته في المسجد مشغولون بما يقربهم إلى من هم في بيته من الآداب والعمل.

آداب دخول المسجد والجلوس فيه

كان أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على التكبير إلى المساجد، فمن بكر أسرع إلى الصف الأول، ومن لم يبكر جلس حيث ينتهى به المجلس ولو في أخريات المسجد كراهة

أن يفرق بين اثنين، أو يشغل جالساً مشغولاً بذكر الله، أو يتخطى رقاب الناس، فيشتغل عن آداب المسجد، ويشغل قلب غيره عن المراقبة. كان الرجل منهم يكره أن يتحرك له أخوه ليفسح له في المسجد حرصاً على راحة أخيه. وكان الجالس إذا رأى أخاه مقبلاً فسح له في المجلس دون أن يتكلم أو يشير، لأن السكينة والخشوع لا يفارقانهم. وقد بلغ بهم الخشوع في المسجد مبلغاً حتى أنه كان يدخل عليهم فيه اليهودى أو النصرانى فيكاد يذهب عقله أو يصعق ويغشى عليه من هيبة الصحابة في خشوعهم وسكيتهم وقت انتظار الصلاة أو في الصلاة، وربما سارع إلى الإسلام. وكم من أسير شهد الصحابة يصلون - وكان أشد الناس نفوراً من الإسلام - فملاً الله قلبه نوراً، وأقبل على الإسلام بإخلاص. وما تعلم الصبيان الخشوع لله والحب لله والمسارة إلى مرضى الله تعالى إلا بجلوسهم مع آبائهم في المسجد وشهود ما عليه آبائهم.

وكانوا رضى الله عنهم يجذبون قلوب الكفار بسمتهم وهديمهم وخشوعهم لربهم في مساجدهم، ويحملون الصبيان بالفضائل الإسلامية حتى ينشأ الصبى كوالده. كانوا ممن قالوا: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان ٧٤، فاستجاب الله تعالى لهم فجعل كل واحد منهم رضى الله عنهم إماماً لأهله وأبنائه وجيرانه، يكون الرجل واحداً وله صور لا تحصى، تراه في جميعها كما تراها حين مشاهدته.

آداب صلاة الجمعة

كانوا إذا ارتقى الخطيب المنبر أمسكوا عن الصلاة، وأخذوا في ذكر الله بالقول والفكر، واشتدت رغبتهم فيما عند الله، والمسارة إلى ما ينالون به رضوانه، معتقدين أنه ربما لا يطول عمرهم حتى يدركوا جمعة ثانية، فيجهدون أنفسهم أن يفوزوا بعفو الله وغفرانه، فإذا ابتداء الخطيب أن يتكلم أمسكوا عن الكلام، وأقبلوا بكليتهم مواجهين له لأن السماع فرض، فكنت ترى حسن الإصغاء منهم رضى الله عنهم لما يعلوهم من اقشعرار جلودهم وتقاطر دموعهم وخشوع ظاهريهم عند التخويف، وانبساط وجوههم وإشراق أنوارها عند البشائر والرحمة، فتراهم كأنهم بين مستغفر نادم ومحوقل خائف وحامد فرح وشاكر طالب للمزيد.

كل ذلك تظهر دلائله حالاً لا مقالاً، فإذا أنتم الخطيب خطبته ونزل وقف كل مسلم موقف من يريد أن يمتع أخاه بالراحة وخير المجلس. وفي أقل من نفس تراهم اصطفوا كصفوف الملائكة، لحاهم على صدورهم وأبصارهم تنظر لأقدامهم، كأن القوم وقفوا للحساب أمام رب العالمين، وقد أشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون. ولا غرو فإن المسلم إذا وقف للصلاة استحضر هذا المشهد، أو مشهداً فوقه قبل دخوله للصلاة ليصلي صلاة من واجه ربه، أو صلاة من يعتقد أنها آخر صلاة له. كانوا يقفون في الصلاة فتنزل الطيور عليهم وتمكث، فلا تحس بأنهم أحياء إلا عند تحريكهم لفرض من فرائض الصلاة، فإن كانوا وقوفاً وقف الطير على رؤوسهم حتى يركعوا كأنهم البنيان المرصوص. لم يكن ذلك إلا لما تفضل الله به عليهم من كمال الخشوع، وما أنزل عليهم من السكينة حتى صارت صفوفهم في الصلاة فوق صفوف الملائكة حول العرش، فإذا قال الإمام: الله أكبر، وكانت القلوب فارغة مما سوى الله، مقبلة بالكلية على الله، أشرقت أنوار الكبرياء والعظمة على تلك القلوب الوجلة فملاؤها خشوعاً قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ﴿المؤمنون ١-٢﴾.

الفصل الثالث

آداب الفرقة الناجية في الخلوة

الخلوة عندهم يا أخى نوعان، خلوة مع ربك وخلوة مع نفسك.

الخلوة مع الرب سبحانه

أما الخلوة مع الرب سبحانه وتعالى فليست هذه الرسالة محلاً لشرح أسرارها ولا كشف غوامضها، وقد أشار إليها ﷺ بقوله: (لى ساعة لا يسعنى فيها إلا ربهى). وقوله ﷺ فى الحديث القدسى: (فمن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى). وقوله ﷺ فى الحديث القدسى: (ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به

وبصره الذى يبصر به.. الحديث). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ النحل ١٢٨، فلنطوى بساط هذه الخلوة... وإن كانت الأرواح تشتاق إلى شميمها، ولكنى أكتب عن الفرقة الناجية كتابة أحب أن تكون وسطاً لكل أخ يطلع عليها حتى لا يصعب على إختى أن يتشبهوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فإن بسط بساط تلك المواجهات القدسية على أهل الإرادة فى البداية ربما أوقفهم عن السير، لقصور همهم عن إدراك مبادئ تلك المشاهد حتى تزكو النفوس وتتخلى عن مقتضيات فطرها، وقد أشرت إلى بعض أسرار تلك الخلوة فى المواجهات التنظيمية إشارات حجت بمرمز يفقهها من فنى عن مراده بمراد ربه، وغاب عن شهود الآثار غيبة جعلته يشهدا دلائل حق وآيات بيان لمكون الأكوان.

الخلوة بالنفس

ليس مرادهم بالخلوة بالنفس أن يخلو الإنسان بمكان ليفكر فى عمل دنيوى أو لمصلحة فى ماله أو أهله أو قومه، فإنها ليست خلوة وإنما هى صرف الإرادة عن الحق سبحانه إلى الخلق. ومن صرف إرادته عن الحق إلى الخلق كيف يكون فى خلوة؟ لا... ولكنه فى خلوة بحظه وبشهوته، ومن هو فى شأنه وتدبير مصالحه يدبر شئونه مع غيره، كيف يكون فى خلوة بنفسه! وليس فى خلوة من اختفى فى حجرة عن الناس بباعث اقتضى ذلك، وإنما الخلوة التى يخلو فيها المؤمن بنفسه، جمع الهموم وجعلها هماً واحداً فى الله تعالى، والفناء عن إرادة ما سواه. كما قال العارف:

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذراتك العين أهوائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

قال رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى: (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين). وإنما يخلو المؤمن بنفسه إذا سكنت إلى نفسها، وتحققت يقيناً بسر القدر، فعلمت أنها خلقت لشأن عظيم اشتغالها عنه هلاكها، وعملها فى غيره ضياعها، ففرت من كل شاغل يشغلها عما هى موجهة وجهها إليه. ولديها تتحقق الخلوة.

ولهذه الخلوة آداب ومشاهد ومحاسبات ومراقبات، ولا يترقى السالك إلى مقامات اليقين إلا إذا تحمل بهذا الجمال، وتحلى بتلك الحلال، وصار من السهل عليه أن يخلو بنفسه. ومتى صعبت عليه الخلوة بنفسه.. كيف تتجلى له غوامض أسرارها التي انطوت عليها؟ وكيف يتيسر له أن يجملها بالكمالات التي بها تكون نفساً مطمئنة تسمع ربهما يناديها بكلامه المقدس قائلاً لها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٣٠﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٣١﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٣٢﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٣﴾ الفجر ٢٧-٣٠، لا تسمع كل نفس هذا الخطاب المقدس، وإنما هو خاص بنفس تزكت فصفت، فاختلفت خلوة شغلتها شئونها الكمالية عن سواها وما سواها، حتى تنقلت في مقامات اليقين ومراقى التمكين بعد التلوين، وتجاوزت الملكوت الأعلى، وأشرفت على حضرة العزة، أو جذبتها العناية حتى أشرفت على قدس الجبروت الأعلى، فحضرت فسمعت من جالسته في خلوتها بنفسها، ذاكرة له، غافلة عن كل من سواه وما سواه. قال ﷺ: (قال الله تعالى: أنا جليس الذاكرين)، وقال ﷺ في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني). وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴿١٥٢﴾﴾ البقرة ١٥٢، وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿١٥٣﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿١٥٤﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿١٥٥﴾﴾ الشمس ٧-٩، ولعلك يا أخى تعلم قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿١٥٥﴾﴾ الشمس ٩، والفلاح هو نيل كل المقاصد والفوز بجميع الرغائب، وأعظم مقصد للنفس التي تزكت تسارع إلى نيله هو الفوز بجوار رب العالمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقد بشر الله من تزكى بالفلاح الذى هو الفوز بكل المقاصد، فالخلوة بالنفس لتكميلها وتزكيتها وتحليتها عن رذائلها ورعوناتها ولقسها، حتى تؤهل للكمالات والفضائل والأحوال العلية والمقامات التي أعدها الله لأهل القرب.



آداب الخلوة بالنفس

آداب الخلوة الأولى

منها جلسة المحاسبة بأن تضع أمامك كفتى الميزان، ثم تضع ما ورد عليك من الله فضلاً وإحساناً وبراً وإمداداً، وما أوجده سبحانه مؤهلاً لحفظ صحتك وبقاء وجودك مما أحاط بك قبل وجودك، من نسيم وماء ونبات وحيوان وجبال وأنهار ومعادن وشمس وقمر وأنجم وأفلاك وسيارات وثابتات، وسماوات بعضها فوق بعض، مما لا يحصى عدداً ولا يستقصى حداً. ثم سل نفسك: لم تفضل عليك بهذا الفضل العظيم واختصك بهذا الخير العميم؟ أله إليك حاجة؟ أم أوجدك لغاية لا يكمل إلا بها؟ ثم جل بفكرك في روض نفسك الجنى، وفي حدائق ما أحاط بك تجدد كل الكون يسبحه وينزهه عن الشريك والولد والوالد، وتراه مقهوراً بقهره مربوباً لعزته، ينادى بلسان الحال والمقال: إنه غنى عنك لا تنفعه طاعتك ولا تضره معاصيك. ثم ضع ما أعده لك بعد موتك من نعيم أبدي وجمال سرمدي إذا أطعت أمره واجتنت نواهيه، وما يتفضل به على أحبائه مما لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين. ثم انظر إلى ما وهبه لك من العقل الذى به تعقل، والنور الذى به تقبل، وما أكرمك به من بعثة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وما أيدك به من العلماء الربانيين والحكماء الروحانيين، الذين يبينون لك سنن رسول الله ﷺ، ويفقهونك في كلام الله ويدلونك على سبيل الله تعالى، ثم انظر إلى ما يرد عليك من الله تجدد نفسك عدماً في الحقيقة، لأنك بقيوميته قومت، وبقدرته صورت، وبعنايته أمددت وأوجدت، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

إذا حاسبت نفسك هذه المحاسبة في خلوتك تحققت مقامك، وفتح لك باب التوبة فدخلت في الخلوة الثانية وهى خلوة التائبين.

آداب الخلوة الثانية

آدابها أن تضع ما قابلت به مولاك من سوء الأدب وقبح المخالفة، ونسبة ما هو له جل جلاله لنفسك ظلماً منك وجهالة، فإذا تجلّت لك حقائق ما أنعم به عليك إجمالاً، لأنك لا

يمكنك أن تدركها تفصيلاً قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ إبراهيم ٣٤، وكشفت لك الستارة عنك فعلمت ظلوميتك وجهوليتك، وأن مولاك مقبل عليك وأنت فار منه، ومحسن إليك وأنت ظالم لنفسك، تبرأت عند ذلك من أعمالك وأسرعت إلى التوبة، فإذا صوفي بشراب التوبة الطهور لزم هذا الشراب حتى يبلغ أرقى مقامات اليقين، فإن التوبة لا تفارق العبد الكامل في منازل قربه. والكامل في كل مقامات اليقين قوامه التوبة، ومزاجه مقامه الذى هو فيه، ولذلك فإن الله جل جلاله أمر حبيبه ومصطفاه بالاستغفار بعد أن نصره وفتح له مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، بقوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ النصر ٣، وما ذلك إلا لأن التوبة لا بد وأن تكون ملازمة للعبد الكامل في كل مقام من المقامات. ومن ترك التوبة قفل في وجهه باب القبول. وإن العارف بالله ليتوب من صلاته كما يتوب الزانى والسكير من ذنبه.

آداب الخلوة الثالثة

ثم يفتح له باب خلوه المحبة بعد التوبة، وهكذا حتى يترقى إلى مقامات اليقين كلها خلوة خلوة، وبعد ذلك لا يحتاج إلى الخلوة لشهوده الحق في كل شئ، ويكون في خلوة مع نفسه ولو كان في الأسواق وفي المصانع والمتاجر، بل وفي الملحمة الكبرى بين صفوف الأعداء. وقد شرحت آداب أهل هذه المقامات في قسم علوم اليقين في كتاب "أصول الوصول" وغيره، فلا حاجة إلى الإطالة بذكرها هنا، غير أنى أذكر آداباً عمومية للخلوة بالنفس.

الآداب العمومية لأهل الخلوة بأنفسهم

الأدب الأول

معلوم أن الأحوال السنية لا تكون إلا عن مقامات سنية. ولما كان إبليس - لعنة الله عليه - لا يعادى إلا أهل القرب، ولا ينغص إلا أهل المجاهدة، ولا يجلب بخيله ورجله إلا على أهل المشاهدة، كان أهل الخلوة بأنفسهم على خطر عظيم، قال عليه السلام: (الناس هلكت إلا العالمون، والعالمون هلكت إلا العاملون، والعالمون هلكت إلا المخلصون، والمخلصون على

خطر عظيم)، يشير ﷺ إلى أن أهل المقامات إن لم يعصمهم الله سبحانه وتعالى بالخشية منه، ودوام مواجهته لهم بالعزة، ومكاشفة قدس جبروته الأعلى فقد يستولى عليهم العدو الذى قد يدخل عليهم بما يلائم نفوسهم، فإن لهم مداخل تخفى على الصديقين إن لم يعصمهم الله تعالى.

وإليك مثلاً من دسائسه ووساوسه لما أن أسكن الله تعالى آدم فردوسه الأعلى قامت قيامة إبليس - لعنة الله عليه - واجتهد أن يدخل عليه من باب يلائم شهوته وحظه، فمكث ينتظر تلك الزلة منه، حتى جلس آدم مع حواء يتأنسان، فقالت حواء لآدم: إن هذا النعيم فوق ما تشتهيهِ أنفسنا، فقال آدم لها: لو دام. فكانت هذه الكلمة الباب الذى دخل منه إبليس - عليه لعنة الله - فاجتهد حتى دخل عليها ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الأعراف ٢٠، لو أكلت منها وأطعمت زوجك لدام لكما هذا الملك الكبير وخلدتما فيه، وكانت غايتها التى يلتمسانها، فأنكرت حواء عليه فأقسم لها أنه لمن الصادقين، فأكلت مصدقة له وأطعمت زوجها فكان ما علمت، وآدم نبى الله وحواء آية الله التى صورها بيده، وهما فى جنة الله وفى جواره سبحانه، ومع ذلك فإنه - لعنة الله عليه - أوقعهما فى الخطيئة وأخرجهما من جوار ربهما ومن جنة النعيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الحج ٥٢، فكان طمع آدم فى الخلود وفى الجنة مؤدياً إلى معصيته الكبرى، وإهباطه مع زوجته إلى الأرض. دخل إبليس - لعنة الله عليه - عليها من وجهة ثلاثهما (وهما من علمت)، فكيف بك أيها السالك المسكين!! قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران ١٠١.

ومن علامة العصمة بالله أن تراقب الله جل جلاله فى صفاء صفائك، وأجلى بهائك، وفى أرقى مقامات قربك، فشاهد ما أنت عليه من العجز عن شكر نعماءه، ومن الافتقار إلى جدواه، ومن الاضطرار إلى عطاياه، ومن القصور عن القيام بما كلفك به إلا بحول منه وقوة، فإذا وفقك للقيام بعمل ما يجب فاجعل ذلك منة منه عليك، وفضلاً منه سبحانه واصللاً إليك، وقف متذلاً بين يدي عظمته، خاشعاً أمام عزته، شاكراً لأنعمه، ذاكراً جدواه، وإياك أن

يكون لك مراد سواه أو أمل في غيره، فإن هذا مهاوى إبليس - عليه لعنة الله - ودسائسه الخفية، اجعل التوبة درعك التي تدفع بها أعدى عدوك، والإناة سيفك الذي تقصم به ظهر خصمك، وشهود منة الله عليك في كل نفس معراجك الذي تسرى به إلى ربك، واجعل الخوف من ربك جل جلاله باب القرب منه، وميزاب استئزال فضله العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن ٤٦.

الأدب الثاني

اعلم أن أئمة الفرقة الناجية إذا خلوا بأنفسهم بكوا خشية على إيمانهم، ثم أقبلوا بكل قلوبهم على ربهم خوفاً من أن تكون فيهم شائبة حب لغيره أو رغبة في غيره سبحانه، لأن الإيمان في القلوب أشد نفوراً من الجمل النفور. فقد يقول الرجل الكلمة لا يلقي لها بالاً فلا تخرج من فمه إلا وقد خرج إيمانه، وقد يعمل العمل فلا يدانيه إلا وقد سلب إيمانه، قال عليه السلام لأبي بكر الصديق: (إن الشرك لي جري في ابن آدم مجرى الدم). وقال عليه السلام: (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) في حديث طويل، وقال صلوات الله وسلامه عليه: (أنتم في زمان قليل حفاظه كثير فقهاؤه قليل سائله كثير معطيه، وسيأتي على الناس زمان كثير حفاظه قليل فقهاؤه كثير سائله قليل معطيه، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية). وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف ١٠٦، كان أصحاب رسول الله ييكون خوفاً على إيمانهم مع أنهم أهل مقامات اليقين الكامل، ولكنهم علموا من الحق سبحانه ما جعلهم يراقبونه جل جلاله مراقبة من يعلم أنه لا يستل عما يفعل. وسئل الحسن البصرى التابعى أمؤمن أنت؟ فقال: أما كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال ٢، فلا وكان التابعون من خوفهم إذا سئل أحدهم: أمؤمن؟ فيقول: مؤمن إن شاء الله، خوفاً على نفسه من سلب الإيمان، لأن الإيمان فضل من الله تعالى يهبه لمن يشاء بفضله ويسلبه بعدله، أسأل الله تعالى أن يعيذنى بوجهه الجميل من عمل أو قول أو حال أو اعتقاد يسلب الإيمان، إنه مجيب الدعاء.

الأدب الثالث

فأئمة الفرقة الناجية من أهل الله الصالحين في خلوتهم الثانية في مقام محبوب، لهم مراقبة خاصة بهم عن مشاهد اتحاد في توحيد، فيجاهدون أنفسهم أكبر الجهاد في أن يتحد مرادهم ومراد ربهم سبحانه، فلا يكون لهم مراد إلا مراده جل جلاله، وتتحد عزائمهم فيما فرض عليهم ورجبهم فيه، فلا تكون لهم عزيمة إلا فيما أوجب وما رغب فيه، ليتحد ظاهرهم وباطنهم في مشهد واحد أحد فاعل مختار لا شريك له، يعملون الأعمال بجوارحهم المجترحة وسرهم يشهد فاعلاً مختاراً، فلا يشهدون لأنفسهم عملاً - اللهم إلا في مقام الأدب مع الإله الكبير المتعال، فإنهم ينسبون ما قدره جل جلاله عليهم من معاصيه لأنفسهم - خاشعة قلوبهم مسارعين إلى الندم والأسف والحزن على ما فعلوه من مخالفة ربهم سبحانه ومعصية نبيه ﷺ، مع ملاحظة السر أن هذا فعل الله لا فعلهم، وإنما توبتهم بنسبة جعلتهم يشهدون أنه سبحانه وتعالى ما أقامهم في معصيته إلا لأنه يكرههم، ولو أحبهم لوفقهم لما يجب، فتكون توبتهم عن ندم وإقلاع، ويشهدون من الذنب الواحد كبائر كثيرة، أذكر منها ما يتحملة عقل المريد:

يشهدون أنهم بالمعصية الواحدة حقروا الجناب المقدس وهو العلى العظيم، وفرحوا بما يغضبه وهو الشقاء الأبدى، وخالفوا حكمه وهو الموجب للعقوبة يوم القيامة، فيسارعون إلى الندم على ارتكاب الذنب، والإقلاع عن عمله بعزم صحيح على عدم العودة، فهم يثبتون الوسائط والأسباب بظاهرهم فيسارعون إلى تنفيذ الأحكام، لأن الحق جل جلاله جعل الأسباب التي هي الأواسط مراقى لقربه ومعارج للوصول إليه، ويشهدون الواحد الأحد المنزه عن المساعد والمعين، العلى عن أن يكون لأحد غيره عمل ما بسر صفا عن حظ وهوى، وهم الذين عصمهم الله من السقوط في أحوال التوحيد ومن الوقوع في مهاوى الشرك الأخفى، وهم أهل مشاهد التوحيد بالتوحيد، العباد المخلصون لله الأولياء، تولاهم الله فعصمهم من الشيطان، ووالاهم بمواجهة العزة وقدس الجبروت الأعلى، فوجهوا وجوههم ظاهراً وباطناً إليه سبحانه وتعالى مخلصين له الدين، كما قال الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ

المُشْرِكِينَ ﴿ الأنعام ٧٩، وهم صفوة الله الذين أخفاهم عنهم به، وأظهرهم له به سبحانه، فهم معه وهو معهم.

الأدب الرابع

من آدابهم القيام بواجب العبودية ظاهراً وباطناً، فترى أجسامهم على الأرض مشهودة للخلق يعملون ما أوجبه الله عليهم، لا يتميزون عن الخلق إلا بما جملهم الله تعالى به من معاني الخشوع وجمال الأخلاق والمسارة إلى الخير العام، فيقصدهم الناس لنجاح مقاصدهم وشفاء قلوبهم وزوال الخصومة بينهم، فلا يميزهم الناس عنهم إلا بما فطرهم الله عليه، وصبغهم به من صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، فهم الرحماء ولو بعدوا، وهم الحلما ولو أودوا في أنفسهم، لا يغضبون إلا الله، يألفون ويؤلفون.



الفصل الرابع

آداب الفرقة الناجية في سفرهم

١ أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه. وقال ابن عمر رضی الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده في سفره.

ولابد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق، فإنه يخرج خبايا الباطن. ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل على راحلة، فجعل يضرب يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) قال: فذكر من أصناف المال حتى رأينا أنه لا

حق لأحد منا في فضل.

٢ أن يختار رفيقاً فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسى ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه. وقد نهى ﷺ عن أن يسافر الرجل وحده، وقال: (الثلاثة ركب). وقال ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمرؤا أحدكم)، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون: هذا أميرنا أمره رسول الله ﷺ، وليؤمرؤا أحسنهم أخلاقاً، وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، قال: فكانت إذا جاءت عقبه رسول الله ﷺ قالوا: نحن نمشى عنك، قال: (ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما).

٣ أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله ﷺ. قال بعضهم: صحبت عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من مكة إلى المدينة، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال لقمان: إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه، وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك)، وقال رسول الله ﷺ: (إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة). وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان إذا ودع رجلاً قال: (زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ووجهك إلى الخير حيث توجهت).

٤ أن يصلى قبل سفره صلاة الاستخارة وهي أربع ركعات، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي في أي الثلاثة أرفعها: إلى ابني أم أخى أم أبي؟، فقال النبي ﷺ: (ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلين في بيته إذا شد عليه ثياب سفره، يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد، ثم يقول: اللهم إني أتقرب بهن إليك فاخلفني بهن في أهلي ومالي، فهي خليفته في أهله وماله، وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله).

٥ إذا حصل على باب الدار فليقل: (بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا

بالله، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل على، فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي، فاكفني ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك، اللهم زدنى التقوى، واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت). فإذا ركب الدابة فليقل ما كان يقول ﷺ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على البعير خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿﴾ الزخرف ١٢-١٣، ثم يقول: (اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، فى المال والأهل والولد). فإذا رجع قاهن وزاد فيهن: (أيون تائبون عابدون لربنا حامدون). وقال ﷺ: (اللهم بارك لأمتى فى بكورها). ويستحسن أن يبتدىء فى الخروج يوم الخميس. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه رضي الله عنه قال: (اللهم بارك لأمتى فى بكورها يوم خميسها).

٦ والتشييع للوداع مستحب وهو سنة قال رضي الله عنه: (لأن أشيع مجاهداً فى سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب إلى من الدنيا وما فيها).

٧ أن يرفق بالدابة إن كان راكباً، فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها فى وجهها فإنه منهى عنه، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة، كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة، وقال رضي الله عنه: (لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى، فإن الله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعلية فاقضوا حاجتكم). وقال رضي الله عنه: (إذا سافرت فى الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرت فى الجذب فأسرعوا عليها السير، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل). ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك، فهو سنة، وفيه آثار عن السلف.

وكان بعض السلف يكثرى بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة، ثم كان ينزل ليكون بذلك محسناً إلى الدابة. ومن أذى بهيمة بضرب أو حمل ما لا تطيق طولب به يوم القيامة إذ في كل كبد حراء أجر. قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند الموت: أيها البعير لا تخصمني إلى ربك فإنى لم أك أحملك فوق طاقتك. وفي النزول ساعة صدقتان إحداهما ترويح للدابة والثانية إدخال السرور على قلب المكارى.



الفصل الخامس

آداب الفرقة الناجية في المجالسة

اختلف أئمة الفرقة الناجية في هل الاجتماع على الخلق مع السلامة منهم خير؟ أم العزلة عن الناس خير؟ فكان رأى أكثرهم أن الاجتماع بالخلق مع السلامة منهم صفة الكُمل المتمكنين المتجملين بالأخلاق، لأن اجتماعهم على الناس يكسبون به مكاسب روحانية منها تحملهم أذية الخلق، ومنها بذل النصيحة للعالم، وفضل العلم والجاه والمال، والسعى في الإصلاح ودفن المظالم، كل ذلك بعد الجهاد في سبيل الله، ولا يستوى القاعد والمجاهد في سبيل الله عند الله. وأما الذين اعتزلوا الخلق - فإنهم فضلاً عن تركهم القيام بما لا بد لهم منه من طلب العلم والمعاش وشهود الجماعات ومعاونة أهل الحاجة - فإنهم في عمل كثيره لا يساوى قليل العمل مع الناس، إلا إذا كانت معاشره الناس تؤدى إلى ما يغضب الله تعالى فالعزلة خير.

وتفصيل هذا الموضوع أن من قوى على معاشره الناس وتمكن من السلامة منهم فالأولى له الاجتماع على الناس، ومن لم يقو على معاشرتهم فالأولى العزلة له إلا ما لا بد له منه. ولما كان على كل مسلم لكل مسلم حق تقتضيه الشئون، وكانت تلك الحقوق تسمى الآداب الإسلامية التى يسارع لها من تزكت نفسه، وتآدب بآداب القرآن الكريم، أرى أن المسلم يجاهد نفسه الجهاد الأكبر حتى يتأدب بالآداب المحمدية، وأن يجتهد أن يعاشر الناس

ويجالسهم لينتفع وينفع، ويتمرن على المجتمعات التي تكسبه الثواب في الآخرة وحسن الأحدث في الدنيا، خصوصاً إذا كان مطالباً بنفقة لزوجته وأولاد وأقارب، أو كان عالماً، أو ذا صنعة مفيدة لإخوته المؤمنين، فيجب عليه أن يجاهد نفسه حتى يكون متجماً بالأخلاق التي تجعله محبوباً عند الناس. أما من كان مسترشداً على يد المرشد فهو مع الأستاذ بالخيار إن أمره الأستاذ بالعزلة بادر إليها، وإن أمره بمعاشرة الخلق ومجالستهم سارع إليها.

ولما كانت الآداب التي تجملت بها الفرقة الناجية من التشبه برسول الله ﷺ، وكان ﷺ الرؤوف الرحيم بعشرائه وجلسائه، الحريص على تأليف القلوب عليه، كان الواجب على كل مسلم أن يتأدب بتلك الآداب الفاضلة، وأن يتجمل بتلك الأخلاق الكاملة، حتى يفوز بجميل الثواب يوم القيامة، ولسان الصدق في الآخرين.

آداب حسن المجالسة

أما حسن المجالسة فقد قال رسول الله ﷺ: (إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة) فلا يجلس لأحدهما أن يفشى على أخيه ما يكره.

آدابها

١ ألا يعين ظالماً على ظلمه، ولا يفتح باب شر على أحد من الناس أمام من يمكنه أن يؤذيه، ولا يذكر غائباً بسوء إلا إذا كان متفضحاً وسئل عنه على سبيل نصيحة أو مشورة.

٢ ويلزم أن يغض بصره في المجالس عن عورات المجلس خصوصاً إذا جلس مع رجال ونساء، فيجب عليه أن لا يحدق ببصره إلى النساء، ولا أن يصغى بأذنيه إلى اثنين يتكلمان في المجلس إلا إذا دعياه إلى سماع الكلام.

٣ أن لا يتكلم سراً مع جلسه إذا كان معها ثالث فإن ذلك يحزنه، ولا يتكلم بلغة لا يفهمها الثالث، وليتجنب اللمز والهمز والإشارة باليد أو بالعين أو باللسان، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ

خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ الحجرات .١١

٤ وعلى كل مسلم أن يكون بشوش الوجه لمجالسيه ما داموا في خير، فإذا تكلموا في غير الخير فالواجب عليه أن يذكرهم بحكمة، ويبين لهم شر التكلم فيما يضر ولا ينفع، أو يصمت إن خاف عنادهم، أو يفارق المجلس إن كان ذلك لا ضرر فيه عليه.

٥ أن يجتهد المسلم في إدخال السرور على جلسيه بقدر استطاعته، فلا يذكر عورة من عوراته يريد بها احتقاره، ولا ينتقد عليه في عمل مباح عمله، قال عليه السلام: (إن الرجل ليقول الكلمة في المجلس لا يلقى لها بالاً يضحك بها الناس يهوى بها في النار سبعين خريفاً).

وجلساء الرجل إما أن يكون مضطراً أن يجالسهم أو غير مضطر. أما الذين لا بد من مجالستهم كمن معه في مزرعته أو مصنعه أو شركاؤه في تجارته أو معه في بيت واحد، فأخوانك الذين معك في المزرعة أو المصنع أو التجارة يلزمك أن تجتهد في استجلاب مودتهم لك وحبهم بما يمكنك، مما لا يغضب الله سبحانه وتعالى ولا يخالف السنة. ويجب عليك أن تحفظ لسانك عن ذكر عوراتهم وهفواتهم أمامهم أو خلفهم، فإن كل إنسان لا يخلو من عيوب يجتهد أن يخفيها عن الناس ولكنها تظهر قهراً عنه. وكما أنك يا أخی تحب أن تخفي صغائرك وهفواتك عن الناس، فالواجب عليك أن تخفي هفوات أخيك وصغائره وعيوبه عن الناس وعنه في حضوره، ما دامت لا تضره دنياً ولا ديناً، فإن كانت تلك الأعمال مما يضره دنياً أو ديناً فالواجب عليك أن تحتلي به وتنصح به بطريقة يقبلها، لا تريد بذلك احتقاره ولا تهديده والتنديد به.

٦ ومن أكمل صفات رجال الفرقة الناجية أن يحفظوا أسرار المجالس. ومن أقبح صفات أهل النقائص أن الرجل يجلس في المجلس ثم يقوم منه فينشر أخباره لكل من لقيه. وقد يبلغ الجهل ببعض الحمقى أنهم ينشرون معاصيهم وذنائبهم حتى خلوتهم بنسائهم. يقول عليه السلام: (المجالس بالأمانات). وورد أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أسبل الله

عليه ستره فكشف عنه ستر الله، ومعنى ذلك أن الرجل يعمل المعصية ليلاً أو في خفاء عن الناس ثم يخرج فيذكر عمله للناس.

٧ ومن محاسن الآداب في المجالسة أن لا يتجسس المؤمن ولا يتحسس، وأن يجتهد أن يجعل في كل مجلس جلس فيه عملاً صالحاً يرفع له من ذكر الله، أو نصيحة أخ، أو رد غيبة عن أخ صالح، أو توبة عن ذنب عمله في المجلس.

٨ أن يتباعد الرجل عن الجلوس بجوار زوجة غيره، ولا يسارع إلى قضاء حوائجها ما دام معها محرم لها، ولا يلامس جسدها لمعوتها في مشى أو ركوب أو نزول إلا إذا كان محرماً لها. وإذا دعت الضرورة أن يتكلم معها يجب أن يجعلها خلفه على يمينه أو يساره إذا كان واقفاً، وإن كان جالساً يجب أن يجلسها إن استطاع في الجهة التي لا تكون مواجهة له، بل يجعل محل نظره الجهة التي لا يراها فيها. وإن دعت الضرورة أن يواجهها بوجهه فعليه أن يغمض بصره، أو يغط رأسه، أو يلفت عنقه، فإن عمله هذا مرضاة الله، محمودة عند الناس، موجبة لمحبة الخلق وثقتهم، موجبة لكمال حياء المرأة، فإن الأصل في المرأة الحياء، وإنما يقوى عندها إذا تجمل الرجل به أمامها.

٩ ومن الآداب أن لا تختلي بامرأة أجنبية منك مهما وثقت من نفسك، فإنك أعلم بنفسك من غيرك. فإذا كنت واثقاً من نفسك أن خلوتك بها لا تشغل قلبك ولا تنقض وضوءك لما تراقبه من الخوف من الله سبحانه ومن عقوبته، فهل المرأة بلغت ذلك؟ فإن لم تخف على نفسك يا أخى فخف عليها أن توقعها في المعاصي.

١٠ ومن آداب المجالسة أن يجلس الصبيان وراء الظهر، وأن يترك الرجل البسط مع الصبيان مطلقاً إلا مع ابنه أو ابن أخيه أو من له به نسب من سن السنة الخامسة، حفظاً لآداب الصبي وبعداً عن الشبه.

١١ ومن آداب المجالسة أن يجتهد المسلم في حفظ لسانه مما يخجل من ذكر العورات، وإذا كان لا بد من ذكر شيء من العورات فليعبر عنه بكناية أو إشارة.

١٢ ومن الآداب التي يراعيها المسلم أن لا يطمع فيما في يد أخيه، ويجتهد أن لا يخسره شيئاً مما له. والأولى أن يكون متفضلاً مسارعاً إلى فعل الخير، مساعداً أخاه بهاله ونفسه، فإن ذلك من أخلاق المؤمنين الذين يمنحهم الله فضله ورحمته ورضوانه.

١٣ وأساس المجالسة التسامح، فإن الرجل المتسامح الكريم الأخلاق إذا سمع كلمة من مجالس تكدره، أو رأى عملاً يكدره، حمله من أخيه على أجمل محامله فيدوم بذلك الصفاء. ومعلوم أن أكثر الخصومات والمنازعات قد تنتج من كلمة يقولها المجلس لجلسه بسلامة نية، فيردها عليه بحماقة ويتأولها شر تأويل، فتوقد نار البغضاء، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فقد يقول الأخ الكلمة الثقيلة على أذن أخيه لا يقصد بها إلا خيراً. ولو حمل الأخ كلمة أخيه على أجمل محاملها لدام الصفاء والوفاء، وكان المسلمون كالجسد الواحد كما شبههم رسول الله ﷺ. وإن اللسان شر أبواب جهنم، يقول ﷺ: (وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم). وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١﴾ تُوْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٣﴾ يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ إبراهيم ٢٤-٢٧.

المجالس التي ابتدعها الناس

وقد ابتدع الناس مجالس يقتلون فيها أوقاتهم، ويسودون فيها صحفهم، أما أنهم يقتلون فيها أوقاتهم، فإنها ليست لعمل في الدين ولا في الدنيا، وكفى الإنسان العاقل المطالب في كل نفس بحق متعته، أن يأتي يوم القيامة وقد ترك القيام بواجب أوقاته.

وأما كون تلك المجالس تسود الصحف، فلأنهم يجلسون فيها إما لشرب المحرم، أو للفخر والرياء، أو للتعاون على الإثم والعدوان، أو لكشف عورات الناس، وقد عظمت البلية، حتى كثرت تلك الأماكن المعدة لتلك المجالس، وصارت مفسدة للأخلاق، فإن شياطين الإنس جعلوا لها أماكن في المواضع العامة، وأعدوا فيها كل منكر من طعام وشراب، ونساء

متبرجات وغللمان، كل ذلك مصائب لإلقاء المسلمين في مهاوى غضب الله تعالى، حتى صار سخييف العقل يخرج من بيته الطلق الهواء، الجميل الفراش والرياش وهو فيه أمر مطاع، فإذا سئل إلى أين؟ يقول: أستنشق الهواء، فيذهب إلى بؤرة فساد في وسط الشارع، تنبعث منه روائح القاذورات، وأنفاس المارة وتعلو به الضوضاء بأصوات السوقة، فيجلس وعلى يمينه مواقف السيارات وعلى يساره روث الحيوانات، فيستنشق هواء ممزوجاً بأخبث الروائح، بين قوم يكون معهم محتقراً منتقداً، فيخسر ماله ودينه وجاهه، ويشرب في أقذاح تنفس فيها المرضى بالأمراض القتالة، وربما جلس بجواره مريض بمرض يجب شرعاً الفرار منه، يجلس المسلم بهذا الحال في هذه المجالس، فيسمع الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ينادى لها المؤذن، وكأنه أصم لا يسمع وبهيم لا يعقل.

وعندى أن المساجد الآن أنقى هواء من الملاهى وأدعى لانسراح الصدر، ولترويح النفس، فإن المسلم إذا توجه إلى المسجد، يستنشق هواء جيداً نقياً، لأن المساجد غالباً تكون في الأماكن البعيدة عن القاذورات، وتكون كثيرة النوافذ، ويجد فيها من يثنى عليه ويحبه، لقيامه بما فرض الله عليه، ويتعرف فيه بإخوان الصدق، الذين يكونون جمالاً له في غناه، ومالاً له في فقره، يسألون عنه إن غاب ويثنون عليه ويسرون به إن حضر، ويخلصون له.

فيا أيها الأخ التارك لقصرك، الذى جمع أنواع مسراتك التارك لبيت ربك الذى به نيل سعادتك فى الدنيا والآخرة المسارع إلى الملاهى، ما الذى اكتسبته من العلم أو الجاه أو الصحة؟! ومن هم الإخوان الذين تكسبهم فى الملاهى؟! وهم أخدانك ما دمت غنياً قادراً على مساعدتهم، فإذا دعت الضرورة - ولا يخلو إنسان من الضرورة - كانوا عليك لا لك. كل هذا فى الدنيا، وفى الآخرة عذاب شديد، وخصومة بينك وبينهم، وعداوة شديدة. إذا أردت يا أخى أن تؤاخى إخوان صفاء وخلان وفاء، فاجتهد أن تصطفى لك إخواناً من المساجد، ومن مجالس العلم النافع، ومن أهل التقوى. وكل أخ غير هؤلاء فهو عليك لا لك، وكل جليس لا تدعوك الضرورة إلى مجالسته غير هؤلاء، فهو مرض ينبغى أن يفارقه الإنسان بحكمة حكيم، خصوصاً شياطين الإنس الذين يعينون على معصية الله، ومخالفة

سنة رسول الله ﷺ، فإنهم ألد الأعداء وأسوأ الجلساء. وقد أمرنا الدين بالاجتماع، وعين لنا مكان الاجتماع وزمانه، لتدوم صحتنا وتجدد بهجتنا وتقوى أمتنا.

من المأثور عن آداب المجالسة

قال ﷺ: (ثلاثة من المروءة في الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل وعمارة مساجده، واتخاذ الإخوان في الله تعالى) وكان سعيد بن العاص يقول: لجليسى على ثلاثة: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له.

وقال أبو جعفر محمد بن علي لابنه جعفر عليهم السلام: لا تصحب من الناس خمسة واصحب من شئت: الكذاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد عنك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شئ يريد أن ينفحك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ماله ونفسه عند الشدة، والفاجر فإنه يبيعك بأكلة أو بأقل منها، قلت: وما أقل منها؟ قال: الطمع. وقال بعض الحكماء: عاملوا الناس بمحض المودة، وعاملوا العامة بالرغبة والرغبة، وسوسوا السفلة بالمخافة، ومثل جملة الناس كمثل جملة الشجر:

❖ منهم من له ظل وليس فيه ثمر، وهذا الذي فيه نفع من الدنيا ولا ثمر له في العقبى، ويحتاج إليه في وقت.

❖ ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا.

❖ ومنهم من فيه ظل وثمر، فهذا الذي يصلح للدنيا والدنيا وهو أعزها.

❖ ومنهم من لا ظل له ولا ثمر، وهذا هو الذي لا يحتاج إليه، فمثلته في الشجر مثل شجر الغضا (وهو شوك البرية التي تسميه العامة أم غيلان) تمزق الثياب لا طعام فيه ولا شراب، فهذا في الناس يضر ولا ينفع ويكثر ولا يدفع، ومثله كما قال الله تعالى: ﴿يَدْعُوا الْمَن ضَرَّهُ وَأَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ الحج ١٣.

أهل الفرقة الناجية من الصوفية

❖ يخافون الله في خلقه، ولا يخافون الخلق في الله.

❖ ويحبون الله في خلقه، ولا يحبون الخلق في الله.

❖ ويتقربون إلى الله في خلقه، ولا يتقربون إلى الخلق في الله.. فهم في جميع أحوالهم يعاملون الله في خلقه.

منحهم الله الرأفة والرحمة بالوراثة من رسول الله ﷺ، والمحافظة على كمال اتباعه ﷺ والافتداء به، فتراهم يحرصون في مجالستهم مع الخلق ومعاشرتهم على الفوز برضوان الله الأكبر ببذل ما في وسعهم من الخير لجليسهم وعشيرهم، فهم العلماء الرحماء الحكماء الحماة. يراقبون الله في كل أنفاسهم ولحظاتهم ويسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض ويتعاونون على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة ٢، أحبوا لكل أخ من المسلمين ما يحبونه لأنفسهم، وبدأوا بإيثار جليسهم وعشيرهم بالخير على أنفسهم كما قال تعالى: ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر ٩، يجوع الرجل منهم ليشبع أخاه، ويتعب ليريجه، ويسهر لينام أخوه.. لا يقصدون بذلك من الخلق جزاءً ولا شكوراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ الإنسان ٩، ولهم في تلك المعاملة مشاهد روحية ومراقبات عن عين اليقين، فهم في مزيد من المسارعة والتعاون، لأن الله سبحانه وتعالى يواجههم في كل أحوالهم مواجهة يقوى بها حالهم وهممهم وإقبالهم ورغبتهم في الله وفيما عند الله.

١٤ أن المجلس يفسح لأخيه عند احتياجه لذلك قبل أن يلتبس أخوه منه.

١٥ ومن أكمل الآداب أن الجالس ينزل القادم منزلة من التكرمة، خصوصاً إذا كان ذا شبية أو عالماً أو صاحب المنزل أو ذا سلطان، فيتحنى له عن المجلس المناسب له مع غض البصر وعدم إظهار التفضل عليه.

١٦ ومن آداب المجالسة أن لا يجلس الرجل على محل تكرمة الرجل في منزله إلا بعد إذنه له، ولا ينصرف من المجلس حتى يستأذن، لأن كل تلك الآداب تقوى روابط المحبة، وبها ينال العبد رضوان الله تعالى ورضوان رسول الله ﷺ، ورضاء إخوته المؤمنين.

١٧ ومن آداب المجالسة أن يتوقى الجالس الغضب ولو حصل له ما يغضب، فإنه ربما غضب مما لا يغضب فأدى غضبه إلى ما لا يرضى الله ورسوله، وليدفع بالتى هى أحسن، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت ٣٤.

١٨ ومن آدابهم في مجالسهم أن يجتهد كل واحد منهم في أن يدخل السرور على قلوب جميع جلسائه. وكانوا إذا جلسوا أو نطق أصغرهم سناً صغوا جميعاً إليه لكمال آدابهم ولطمع أن ينطق بحكمة. وكان أصغر الناس في مجالسهم أعظمهم ما دام على الحق، وأعظمهم أصغرهم إن وقع في باطل مع كمال آدابهم، فإن تلك الآداب كانوا يبتغون بها وجه الله تعالى، كانوا إذا سمعوا امرأة تتكلم قالوا: أنصتوا عسى أن تنطق بخير. شغلوا بالله سبحانه وتعالى فاتسعت قلوبهم وانشرحت صدورهم ودام أنسهم بالله تعالى، حسن ظنهم في الله تعالى حتى غلب عليهم حسن الظن، فكانوا إذا سمعوا شراً من غيرهم أولوه إلى الخير وأسأروا ظنهم بأنفسهم. يئسوا من أن ينالهم نفع أو ضرر من الخلق فاستوت عندهم حالة الخلق تعظيماً واحتقاراً وإقبالاً وإدباراً، وقاموا بما عليهم من الحقوق لغيرهم ابتغاء مرضاة الله، ولم يطالبوا غيرهم بالحقوق التى هى لأنفسهم، كما قال ﷺ: (المؤمنون هينون لينون). وكما قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الفرقان ٦٣.

١٩ ومن آداب المجالسة ما ورد أن بعض بنى أمية جلس في مجلس أحد خلفائهم فقال: إن الناس يبالغون في على بن أبى طالب وفي علمه وحكمته، وإنى قد رأيت بالأمس في النوم ووجدته دون ما يخبرون به عنه. فقال: وماذا رأيت؟ قال: رأيت فنبذته وسببته فعقد لسانه، وصار يقول: سلاماً سلاماً. فسبه الخليفة وقال: ما ترك من أكمل الحكمة شيئاً، أراد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الفرقان ٦٣. فهذه حالتهم ولو مع الجاهل في

الرؤيا المنامية. وسب رجل سيدنا أبا هريرة فقال له: يا هذا إن أغضبت الله فيّ فإنى أرضى الله فيك. وقال رجل لرجل مرة: يا كافر. فقال له: أشهد أن لا إله إلا الله. فقال: يا منافق. فقال: تبت إلى الله ورجعت إلى الله. فقال: أريد أن أغضبك. فقال: من بين لى عيوبى أرضانى.

٢٠ وآداب المجالسة تتفاوت بحسب مراتب الجالسين، ومحملها أنك إذا جلست مع العالم فأمسك لسانك واصغ، وإذا جلست مع الولي فأمسك قلبك لترد عليك واردات الحق، وإذا جمع الله الولاية والعلم في رجل فأمسك قلبك ولسانك، وإذا جلست مع ذى سلطان فاجمل له ظاهره واكتم سره، وألن له الكلام في النصيحة وعض بصرك عن حرمه، وإذا جالست العامة فتجنب المزح والمنافسة في شئ يسارعون إليه، واستخدمهم بما يشرح صدورهم منك إن استطعت، وإذا جلست مع من ليسوا على مذهبك فسلم لهم مذهبهم ولا تعارضهم بمذهبك، فإن مذهباً لا يعارض مذهباً، وإذا سُئلت فجاوب على قدر السؤال.

٢١ ومن آدابهم أنهم إذا مدحوا في المجالس شكروا الله الذى أظهر الجميل وستر القبيح، وإذا ذم رجل رجلاً من أهل الفرقة الناجية قال: اللهم إن كان صادقاً فاغفر لى، وإن كان كاذباً فاغفر له. تشبهاً بأصحاب رسول الله ﷺ. وجاء رجل إلى سيدنا ومولانا الحسين بن على عليهما السلام فقال: يا ابن بنت رسول الله إن فلاناً سبك أمام الخليفة، فقال: اللهم إن كان صادقاً فاغفر لى، وإن كان كاذباً فاغفر له.

ومن علم أن أعماله وأقواله وأحواله محصاة عليه، وأنه سيسأل عنها يوم القيامة، بخل بأنفاسه أن يصرفها إلا في طاعة الله. ومن أحب أن يكون كريماً عند الله محبوباً لجناحه العلى لا يضره احتقار الخلق له ولا يفرحه تعظيمهم إياه.

والمؤمن يظهر كمال إيمانه في ثلاثة مواطن: في البر والصلة بأقاربه، وفي المسارعة إلى عمل ما أوجبه الله، وفي حسن مجالسته ومعاشرته. ومن لم يستطع أن يقهر نفسه لتجمل بتلك الآداب فالأولى له أن يخدم الدواب سنين حتى يكتسب منها الصبر والتواضع والطاعة ودفع المضرة وجلب المنفعة، ورجل يكون البهيم الأعجم أكمل منه أدباً، هو رجل على مدارج الهاوية، نعوذ بالله.

الفصل السادس

آداب الفرقة الناجية مع العمال

الرحمة بالعمال هي أم صفات مكارم الأخلاق، لأن معاملة العمال بالحنانة والعاطفة والرفق دليل على رقة القلب وعلم الإنسان بأنه عبد لمولاه، وأن الذي رأسه على هؤلاء قادر أن يجعله أجيراً حقيراً، فيشكر المنعم بالإكرام لعماله، والإحسان إلى المحتاجين بمعونته وإلى القائمين بخدمته، فإنهم شركاؤه في الإنسانية، مشاكلوه في الآدمية، يسرهم ما يسره من الرحمة، فإذا شاهد هذا المشهد حفظ الله عليه النعم، ووسع له الرياسة حتى يجعله سيد أهل عصره وعظيم أهل زمانه، ويزيد على ذلك ما يناله من الفضل العظيم والنعيم المقيم عنده في دار الخلد في جوار الله ومعية رسله صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

وتلك المعاملة بأن يحملهم دون طاقتهم، ولا يعاقبهم إذا تساهلوا، بل يضع نفسه موضعهم وما يجب أن يعامل به يعاملهم به، ويغض بصره عن هفواتهم، ويديم لهم البشر والانشراح والتنشيط، حتى يكون عملهم عن قلب مخلص وضمير مستريح، فيفوز بنجاح عمله، ومحبة عماله، وتعزيز جانبه، وحسن السمعة في الدنيا. والثوبة في الآخرة، قال ﷺ: (لا تنزع الرحمة إلا من شقى). وقال عليه الصلاة والسلام: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). وقال ﷺ: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر). وقال ﷺ: (ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في موطن يجب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يجب فيه نصرته). وقال ﷺ: (من رأى عورة فسترها كان كمن أحيى مؤودة). وقال ﷺ: (المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق). وقال عليه الصلاة والسلام: (إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه وينشر سرها). وقال ﷺ: (إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمط عنه). وفي رواية: (المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن

أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه).

كان أصحاب رسول الله ﷺ يعاملون مواليهم معاملتهم لأبنائهم. كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا كان في سفر ركب ومشى مولاه، ثم نزل فأركب مولاه، ومشى، ثم أنزله ومشى معه وأراح الراحلة. ورأى أمير المؤمنين عمر أبا ذر ومعه غلام له، عليه حلة أجمل من الحلة التي على أبي ذر فقال أمير المؤمنين: ما هذا يا أبا ذر؟ (كأنه يعنفه) فقال: كنت مع رسول الله ﷺ ومعى غلام لى أسود فأساء، فقلت له: يا ابن السوداء، فنظر إلى رسول الله ﷺ مغضباً وقال: (أعيرته بسواد أمه.. إخوانكم خولكم، أطمعوهم مما تطعمون، وألبسوهم مما تلبسون، وحملوهم ما يطيقون)، أو كما قال ﷺ، كان أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بالدواب فضلاً عن بنى الإنسان، يشهدون عناية الله في كل ما ينتفعون به، فيخافون الله في كل شئ، ويطلبون رحمة الله لرحمتهم بعباده، وبذلك مكن الله لهم في الأرض، وأعلى بهم كلمته، وأحيا بهم سنته وأذل لهم فراعنة الأرض وقياصرتها لأنهم تخلقوا بأخلاق الله تعالى، فكانوا رضى الله عنهم رحماء حكماء حلماة علماء نظروا إلى من ولاهم الله عليهم نظر رحمة وحنانة، وشكروا الله على نعمته فأنزلوا الكبير منزلة الوالد، والصغير منزلة الابن، والمساوى منزلة الأخ، وقاموا لكل واحد بما يجب له عليهم، غير مشددين في طلب ما لهم من الواجب، فصفت قلوب الموالي وزكت أنفسهم، ورضى الله عن الجميع.

وأهل الفرقة الناجية يجاهدون أنفسهم ليتشبهوا بأصحاب رسول الله ﷺ في كل أحوالهم. وكم من عامل كان يسيئ الخلق مع رئيسه ولا يرى منه إلا اللطف والرفق والشفقة، فيسأل فيقول: أنا أحق بحسن الخلق منه شكراً لله على ما تفضل به عليه. وسوء الخلق سبب في زوال النعمة ونزول النعمة.. نعوذ بالله من سوء الخلق.



الفصل السابع

آداب الفرقة الناجية في صلة الرحم

قيل لرسول الله ﷺ أى الناس أفضل؟ قال: (أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه، وأمهم بالمعروف وأنهم عن المنكر). وقال عليه الصلاة والسلام: (أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عن ظلمك). هذه الصلة توصلك إلى الله تعالى وإلى الناس، وتقربك من الخالق وخالقه، وبها تجد لك ظهيراً من الله ومن عباده، ويمن الله بها عليك بالبر من حضرته العلية ومن جميع خلقه، ويتعطف عليك بتلك العاطفة قلوب العالم أجمع، فتكون بذلك سيداً مطاعاً في أقاربك، ووالداً رحيماً لآلئك، بها تكون متخلقاً بأخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام، معاناً عند الشدة، منصوراً عند المخاصمة، فتعيش سعيداً بيسير تديبه، وقليل من فضلك توليه وتكون لك اليد العليا والمقام الأعلى، فما أقل ما تصل به، وأعظم ما يصل إليك.

والصوفية يحرصون أن يكونوا كأصحاب رسول الله ﷺ، ولكن من أين لهم ذلك؟، وإن أصحاب رسول الله ﷺ وصلوا أرحاماً كانت كافرة، وأبروا أهل الشرك، تخلقاً بأخلاق الله تعالى وأخلاق رسوله ﷺ، واقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فإنه أبر حليلة السعدية قبل إسلامها. والصوفية إنما يصلون أو يبرون إخوة مؤمنين وآباء مؤمنين لهم حق الإسلام وحق الأرحام.

والمزيد من آداب الفرقة الناجية في صلة الأرحام، سيكون عند حديثنا عن بر الوالدين بعد موتها.



الفصل الثامن

آداب الفرقة الناجية مع الوالدين

لست في مقام تقرير حقيقة خفية ولكنها ثابتة شرعاً وعقلاً، وجليّة تؤثر على القلوب والحواس تأثيراً يؤدي إلى الانفعال النفساني والجسماني بالعواطف والاعتقاد والانقياد وبالغيرة والحمية. ما لي وللتكلم في واجب فطرت على مراعاته النفوس الكريمة، وجبلت على القيام به العقول السليمة، حتى صار من المقرر عقلاً وعادةً أن الولد إذا لم يقم لوالديه فيما من شأنه أن يقوم به أهل العواطف ظلم أمه.

سمعت أن بعض أولياء الله المتوسمين جلس في مجلس فرأى رجلاً يؤذى والده، فذم الناس أم العاق، فقال الولي: الولد من ظهر أبيه إلا أن أباه كان كثير الحلف بالطلاق.

يظهر من هذا أن المرأة إذا حفظت فرجها وحفظ الرجل لسانه من يمين الفسق، وبطنه من الحرام، رزقه الله بأولاد بررة يكونون له كعينيه ويديه ورجليه. وبعيشك أيها الأخ هل تتصور أن إنساناً عاقلاً يتوهم أن اليد اليمنى تضر اليسرى أو تضر الرأس أو العين وهي جزء من الجسد؟ لا أشك أنك تقول: لا أتصور ذلك. إذن كيف تتصور أن خالصة الجسد وصورته الحقيقية بل وثمره شجرته تؤذي الأصل، إلا أن تكون من أصل آخر لا يجمعها عليه أصول دانية ولا عالية.

والوالد والوالدة هما مظهر الشفقة والرحمة والحنان والبر والإمداد والإيجاد الإلهي، ولذلك فقد أوجب الله الشكر لهما، وجعل رسول الله ﷺ الجنة تحت أقدام الأمهات، وجعل الوالد على باب الجنة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ النساء ٣٦، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الأنعام ١٥١، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الإسراء ٢٣، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي أو صحبتي؟ قال: (أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك). وقال رضي الله عنه: (رغم أنفه رغم أنفه، قيل: من يا رسول

الله؟ قال: من أدرك والديه عنده الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة). وعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما أنها قالت: قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد قريش فقلت: يا رسول الله إن أمى قدمت على وهى راغبة أفصلها؟، قال: (صليها). وفى الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ إنه قال: (رضا الرب فى رضا الوالد، وسخط الرب فى سخط الوالد)، وعن أبى الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: (الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فحافظ على الباب أو ضيع)، وقال رضي الله عنه: (بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والمجاهد فى سبيل الله)، وقال رضي الله عنه: (من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحداً فواحد، وإن ظلماً وإن ظلماً، ومن أصبح مسخطاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحداً فواحد، وإن ظلماً وإن ظلماً وإن ظلماً)، وقال رضي الله عنه: (إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم). هذه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة قد بينت لنا حقوق الوالدين، وشرحت لنا مقدار السعادة التى ينالها الولد ببرهما والشقاء الذى يناله العاق.

آداب بر الوالدين فى حياتهما

ومن الآداب للوالدين أن تبذل مالك وتحفظ مالهما، وتأكل بعد أكلهما، وتنام بعد نومهما، وتلبس بعد لبسهما، وتجتهد أن تعمل ما يسرهما ولو كانا كافرين، وعليك أن لا تخالفهما إلا إن جاهداك على أن تشرك بالله ما ليس لك به علم، فالواجب عليك أن لا تطيعهما كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ لقمان ١٥، وإياك أن يدفعك الطمع فتوفر مالك وتنفق من مالهما، أو تأخذ من مالهما شيئاً تدخره لنفسك أو لأولادك، أو تجمل امرأتك بشئ لم تجمل به والدتك، فإن ذلك عقوبت تعذب به يوم القيامة وتعاقب به فى الدنيا بعقوق أولادك لك. وكن على يقين أن برك لوالديك سعادة لك فى الدنيا بالعافية فى بدنك، والنسيئة فى عمرك، والوسعة فى رزقك، ونجاة أولادك وسرورك بهم، ولو تحققت ذلك يا أخى لبذلت النفس والنفيس فى إدخال السرور على والديك فإنك لا تدري متى يفارقانك.

وأكمل الآداب أن الصغير لا يطلب من والديه شيئاً إلا إذا احتاج إليه وعجز عن نيته بنفسه، فإن أعطى له ما طلب شكر وفرح، وإن أعطى له دون ما طلب قبل بدون أن يظهر ما لا يرضى من علامات الحزن أو الكلام. وعليه أن يسارع في بذل ما في يده لإخوته ليرضى والديه، وأن يحفظ لإخوته ما معهم. وعليه أن يسارع إلى طاعة الوالدين وخدمتهما وتنفيذ أوامرهما والعمل بوصاياهما، ويجتهد ألا يأكل إلا بعد أكلهما، ولا ينام إلا بعد نومهما، ويستيقظ قبل قيامهما ليتولى خدمتهما، ويمشى أمامهما ليلاً ليقبها، ووراءهما نهاراً تواضعاً، وأن يعادى عدوهما، ويواصل حبيبهما ما لم يكن إثماً، ويجعل أوقات فراغه كلها في مراقبتها، حتى ينال بذلك صالح الدعاء منها بالحب الخالص، ليكون ذلك رقيماً له عند الله وفوزاً وسعادة.

ومن الآداب ألا يكون سبباً في تكدير صفو والديه بعمل ما يكرهانه في المنزل أو خارجه، وإن كان الوالد له زوجة أخرى فإن حقه لا يسقط عن الولد بزواجه غير أمه، فيجب عليه ألا يدعوه غضبه لأمه أن يسقط الحق الواجب عليه لوالده، فإن رضاء الوالدة في غضب والده مما يوجب مقت الله تعالى، بل يلاحظ حقوق والدته وزوال ما في نفسها من الحزن، ويقوم لوالده بحقوقه مختلفياً عن والدته، حتى لا يغير قلب واحد منهما عليه، وهذه من الكمالات النفسية. وإذا قصر الوالد في القيام بشئون ولده فمن الأدب أن يرجع الولد باللوم على نفسه، وأن يتجمل لوالده بما يعيد له الرحمة الأولى، فإن رحمة الوالدين لا تنكر، ولا يسلبها من القلب إلا عمل قبيح يحصل من الولد ربما لجهله يراه حسناً منه.

قد يكون الوالد سخياً وصالماً لأقاربه فيكره ابنه ذلك ويظاھرہ، فتتزع رحمة الوالد من قلبه، وقد يكون الوالد ميالاً للزواج فيكره الولد منه ذلك لجهالته، والأدب يقضى على الولد أن يتجمل لوالده بكل أنواع الجمال، ويطيعه إلا إذا أمره بإثم فإنه يعتذر إليه. أيها الولد الذي جعل الرحمة تنزع من قلب والده وتبدل بقسوة وجفوة: لا بد أن يكون من عمالك في ذات والدك أو سوء معاملة لزوجته أو من يجب. أنا أعتقد أن النساء يبغضن أولاد الرجال ويسعين لكيدهن، ولكن الحكيم العاقل البار يتجمل بأنواع الجمالات لوالده ولزوجة والده ولأحباب والده من التواضع والخدمة والمساعدة إلى عمل ما يسر، وإظهار الإخلاص،

وذكر ما قل من أعمال البر، ونسيان ما عظم من أعمال الشر. ولا أشك أن من تخلق بتلك الأخلاق ألفتة الوحوش فضلاً عن الوالد وزوجته.

يا بنى: لا خلاص لك من شرور الدنيا وعذاب الآخرة، إلا بتحمل أصعب الصعوبات وأشد الشدائد في نيل رضاء والديك والتأدب لهما بما يليق بهما. وإن نفساً واحداً ترى نفسك لا تتحمل تلك الشدائد فتعادى والديك، فيكون من فعل ذلك سجل على نفسه الشقاء.

لو تصورت يا أخى كيف كانا يفرحان بك صغيراً، ويبدلان نفائس أموالهما لسرورك، وكيف تحملت والدتك في حملك ورضاعك وفي تريضك، وما تحمله والدك في تربيتك، لبذلت وسعك لتسرهما وتكرمهما ليموتا راضيين عنك داعيين لك، وتعيش بعدهما مطمئن القلب بأنك ستنال الخير بركة دعائهما، والذرية الصالحة البارة ببركة رضاهما مع ما يحصل لك من البهجة والسرور عندما تتذكر أنك أحسنت إلى والديك، وأن الله سبحانه وتعالى سيدخلك الجنة مع الأبرار البارين، تلك البهجة يا أخى خير من الدنيا وما فيها.

وأظنك تقول يا أخى: أبنائى وزوجتى. أنت مسكين لا تعلم أرزقت بهم ليكونوا لك خيراً فى الدنيا والآخرة، أو شقاء لوالديهما فى الدنيا والآخرة، فكيف يا أخى تترك الأمر الجلى البينة سعادته، وهو بر والديك الذين أحسنا إليك؟. وأوجب الله عليك أن تقوم لهما بالإحسان وتجتهد فى الأمر المشكوك فيه الذى لا تعلم عاقبته، وهو أن تدخر لأبنائك وتهمل الحقوق الواجبة لوالديك؟! أعاذنا الله وإياك يا أخى مما يوجب المقت والسخط. ولو أنك ادخرت لأبنائك نفساً عالية ترفعهم عن سفاسف الأمور، وعقلاً ذكياً يعقلهم عن مهاوى المقت، وخلقاً جميلاً حسناً تحسن بهم معاشرتهم لأرحامهم وأقاربهم، وكنزاً من الدين يمنحهم الله به من السعادة فى الدنيا والآخرة، لكان خيراً من نفائس الأموال وكنوز الذهب والفضة.

آداب بر الوالدين بعد موتهما

ومن بر الوالدين بعد موتهما: الاستغفار لهما، والصلاة عليهما، وصلة الأرحام التى تدلى إليها، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقيهما. قال مالك بن ربيعة: بينا نحن عند

رسول الله إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال: يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شئ
أبرهما به بعد وفاتها؟ قال: (نعم.. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام
صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما).

ومن إكرامهما في حياتهما أن تبر يمينهما، فترى الفاسق الغوى إذا مات والداه أو أحدهما
دعاه الطمع الأشعبي، والغرور بالدنيا، ونسيان يوم الحساب، أن يقوم فيحارب إخوته
وأخواته، ويعتقد أنه لا عدو له في الأرض إلا أبناء والديه، ما ذلك إلا لأن الجهل أنزل المال
عنده منزلة الإله المعبود الذى يأمره فيطيعه، ومن الضلال من يسلط الناس على إخوته
الأشقاء أو أبناء العلات ليستريح من منافستهم له في هذا العرض الزائل. ولعمري إن هذا
العمل لا يعمل به رجل من أهل الجنة، ولا من ذاق حلاوة الإيمان. كن يا أخى على يقين أنك
إن بررت والديك بعد موتها بصلة أرحامهما أن الله تعالى يبارك لك بركة تدوم لك حتى تكون
في الفردوس الأعلى. ومن اعترز بهال يفنى وملك يزول ورياسة تتحول ورياش يبلى، واستعان
بأهل الزور والبهتان فقطع أرحامه ليكثر ماله فرحاً بالمال والسيادة والرياسة.. كان كمن
عرض نفسه لشقاء الدنيا، فإن قطيعة الرحم تعجل عقوبتها في الدنيا، خصوصاً وأن قطيعة
الرحم عقوق للوالدين، وعقوق الوالدين موجب لسوء الخاتمة.. نعوذ بالله.

والأرحام في الأصل كل من لك به قرابة توصلها بك أمك نسبة للرحم، ولكن العرف
الشرعى أطلق اللفظ وجعلها عامة لكل من لك به قرابة تدلى إلى أمك وأبيك. وجعل قرابة
الأم أولى بحسن العاطفة وإن كان للعصبة تأثير على النعرة بالنسب والحمية للقرابة. فابدأ
أيها الأخ - أيدك الله بالتوفيق - بصلة أرحامك، معتقداً أن ذلك سعادة لك في الدنيا
والآخرة، وليكن ذلك بقدر استطاعتك، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول. ومن يدفعه الأمل إلى
الطمع فيقصر في حقوق الصلة فيحتال في سلب ما في أيديهم فيكون قد ارتكب جريمتين:
جريمة التلصص، وجريمة قطيعة الرحم. واللص الذى يتلصص على الأجنبي أقل وزراً
منه. كيف يكون سرورك أيها الأخ إذا أنت أكرمت إخوتك وأقاربك، وتحققت أن الله تعالى
يكرمك في الدنيا بأن يجعل في قلوب أبنائك الرحمة والعاطفة بعضهم لبعض، وشهدت ذلك في
حياتك، وانتقلت إلى الدار الآخرة شاكراً ربك على ما وهب لهم من التعاطف والتواصل

والتألف والمساعدة، والمصارعة إلى جلب الخير لبعضهم، ودفع الضر عن بعضهم، وانتقلت إلى البرزخ فوجدت قبرك روضة من رياض الجنة فكمل سرورك وتمت بهجتك. ثم انظريا أختي للعاق لوالديه القاطع لرحمه كيف تصب عليه البلايا في الدنيا صباً بكثرة القضايا والخصومات، ثم يجعل الله له أبناء فجرة يبددون ما جمع في حياته، وينغصون عيشته بما يقع بينهم من الخصومات والعداوة، وما يناله من قبيح أعمالهم من الناس حتى يتمنى أنه لم يكن تزوج، وأنه يوجد في الدنيا، فيعيش طول عمره في شقاء وكبائر حتى يفارق الدنيا، فينتقل من آلام بدنية فكرية إلى حفرة من حفر النار - نعوذ بالله من قطيعة الأرحام - ولا يصبر أبناؤه حتى يواروه في التراب بل تقع بينهم المنازعات والمخاصمات، وربما تلاكموا وتضاربوا بالعصى وتزاحموا على تفتيش الحجرة التي هو فيها، وربما وطئوه بالنعال وهو ملقى بينهم، وهم الذين كان يسهر ليجمع لهم، ويخاصم أقاربه ليجدد لهم.

انظريا أختي بعينك عاقبة هذا الأمل، ونتائج هذا الطمع.

صل رحمك يا أختي ليرحمك الرحمن، وأكرم أقاربك ليقربك القريب، وبر والديك ليبرك البر الودود، قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ النساء ٣٦، وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ محمد ٢٢، وقال ﷺ: (من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في عمره فليصل رحمه).

ومن الآداب الواجبة عليك لوالديك أن تبر أهل ود أبيك ممن كان يودهم ويحبهم. ولا تتشبه يا أختي بمن أبعدهم الله عن أعمال الخير الذين إن تمكنوا أسأؤوا أهل ود والديهم، لأنه قد يكون للرجل ولد سئ الأدب ويكون والده متزوجاً امرأة غير أمه، وتكون محظية عنده محبوبة لديه، ولم ترزق من أبيه بأولاد، فإذا مات أبوه قام فجعلها أعدى أعدائه وشر ألدائه، ولم يراع حقوق والده. وقد يكون للوالد عامل مخلص في عمله محافظ على أمواله، ويكون الولد مسرفاً فيشدد عليه العامل وهو صادق أمين، فإذا تمكن المسرف من المال أو الميراث حارب العامل الصدوق الأمين وطرده من عمله ولم يراع حقوق والده. وقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان راكباً على جمل فمر به أعرابي، فنزل عن

الجمل وقابله وحياه، ثم أخذ بزمام الجمل وأعطاه إياه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ قال: هذا الرجل كان يضحك والدى كلما رآه، فأحسبت أن أبر والدى بإكرام من كان يضحك والدى لرؤيته. وهكذا فليكن البر.. ومن هذا الإمام يؤخذ. فقم يا أخى بإكرام أهل ود أبيك لتكون باراً، وكن على يقين أنك تفوز بالمسرات في الدنيا والسعادة في الآخرة. والله يمنحني وإياك التوفيق لما يحب ويرضى.



نصيحة للأبناء

يا بنى لا تجهل من أنت، ولا ما يجب عليك، ولا ما يجب لك. لعلك يا بنى تظن أنك بما تجده من عواطف أمك وأبيك، ومن حرصها على سرورك وخيرك، ومن بذل نفائس أموالها فيما فيه راحة بدنك وزيادة صحتك، أن ذلك واجب عليهما، أو حق لازم عليهما لك، فتجهل قدرك وتنسى قدر النعمة عليك من ربك، فتقوم مطالباً بحقوق توهمتها لم يوجبها الشرع ولم يستحسنها العقل، فتكلف والدتك بخدمتك، أو تغضب عليها إن تهاونت بشأنك، أو تأبى أن تلبس أو تأكل ما قدم لك، أو تستقل ما أكرماك به، فتكون كالفراس الذى يطوف حول النار لا يرضى بضوئها وحرارتها حتى يسقط في لهيبها. أسرع بأن تعلم منزلتك، وأنب إلى ربك تائباً، وإلى والديك متذلاً متملقاً. لم يبذلا لك ما بذلا من المال والنفس لواجب عليهما، بل لأنك شجرتهم ومرآة حقيقتهم، فإن نظرت بنظر الابن للوالدين نظر تعظيم وإطاعة لأمرهما، وحب لهما ورغبة في نيل رضاهما، من الله عليك بأن جعل عاطفتها عليك في مزيد، وجعلك لهما ظهيراً ونصيراً بعد كبرك، فتكون لهما ولداً شقيقاً، ويكونان لك والدين رحيمين، وتكون قد قمت بالواجب عليك لله ولرسوله ﷺ وللوالدين.

إذا من الله عليك بأن جعلك غنياً عن شرار خلقه عالماً فكن رجلاً خارج المنزل، فإذا دخلت على والديك فكن طفلاً كما كنت أولاً، عبداً كما كنت سابقاً تملك ولا تملك، واجعلها يدبران لك شأن داخليتك وإن أخطأ، وحسن شأن خارجيتك فإنك لا تدري متى يأتيها الموت.

لعلك يا بنى إذا تزوجت صارت زوجتك أحب إليك من أبيك وأمك وإخوتك، وهى إنما رضيت بك لأنك قوى سوى غنى، ولو ذهبت صفة من تلك الصفات ذهبت معها وكانت حرباً على زوجها، فاصحب زوجتك على حذر منها، وكن عبداً لله مطيعاً لوالديك.

يا بنى بعض الضالين الذين حرموا الكمالات الإنسانية يتهاون بشأن والديه ويعتنى بشأن زوجته، أعوذ بالله أن أكون منهم أو تكون منهم، فإنهم عبيد لشهواتهم وعباد الدراهم والدنانير أقرب للبهيمية منهم إلى الإنسانية.

انظر إلى والديك تراك غصن شجرتها وصورة حقيقتها وخلاصة حياتها، فلا تعبد يا بنى شهوتك وتكفر بربك سبحانه وتعق والديك، واجعل والديك فى أعلى المراتب من قلبك، وقم لزوجتك بما فرض الله تعالى عليك وبما سنه رسول الله ﷺ، ولا تنس الفضل بينك وبينها، ولا تجعلها سبباً فى عقوق والديك وقطيعة رحمك، فإن الإنسان لا يدرى لعله يجمع المال ويحرم منه أرحامه، ثم تحوزه الزوجة وتنفقه على زوج أجنبى.

أحب يا بنى زوجة أبيك وإن كانت كدرأ لوالدتك برأ بوالدك، إلا إن توفيت والدتك فاجعلها فى منزلتها، وأحب إخوتك منها كحبك لإخوتك، واجعلهم لك أنصاراً وأعواناً وكنوزاً وجمالاً لتكون كثيراً بهم.

اجتهد يا بنى إن كان ورك والديك مجدداً وشرفاً أن تحافظ على ميراث والديك، وأن تجتهد فى أن تزيده وتنميه ليحيا والديك. واعلم يا بنى أن بعض أهل الغواية الأنذال المفسدين - الذين هم مرض فى جسم الأسر - يتمنى الحبث منهم أن يموت والده ليرث ماله، فإذا مات والده قام فبذل المال فى شهواته وحظوظه، حتى إذا لم يبق فى يده ما يستعين به ندم ولات حين مندم، فتمنى أن والده عاش له بعد أن أحوجته الضرورة إلى خدمة من كان خادماً عنده، أو ارتكب ما به يحشر إلى السجون. وإلى هنا أقول لك: أيها الولد البار اجتهد فى صحبة العلماء العاملين، وداوم على مجالسة الأتقياء الصالحين، وتعلم منهم وتشبه بهم، والله يتولانى وإياك. إنه ولى المؤمنين.

الفصل التاسع

آداب الفرقة الناجية مع الزوجة

١ حسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن، ترحماً عليهن لقصور عقلمهن.

قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ النساء ١٩، وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ النساء ٢١، وقال تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ النساء ٣٦، قيل هي المرأة.

وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى خفى كلامه، جعل يقول: (الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون. الله الله في النساء، فإنهن عون في أيديكم "يعنى أسراء" أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله). وقال عليه الصلاة والسلام: (من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون).

واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل. وراجعت امرأة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الكلام فقال: أتراجعيني يا لكعاء، قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك، فقال عمر: خابت حفصة وخسرت إن راجعته. ثم قال لحفصة. لا تغتري بابنة ابن أبي قحافة فإنها حب رسول الله ﷺ، وخوفها من المراجعة.

وروى أن إحداهن دفعت في صدر رسول الله ﷺ، فزجرتها أمها، فقال عليه الصلاة والسلام: (دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك). وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينها أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حكماً واستشده، فقال لها رسول الله ﷺ: (تتكلمين أو أتكلم؟) فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً، فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال: يا عدوة نفسها أو يقول غير الحق؟ فاستجارت برسول الله ﷺ، وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: (لم

ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا). وقالت له مرة في كلام غضبت عنده: (أنت الذى تزعم أنك نبي الله - فنبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً). وكان يقول لها: (إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت عنى غضبى) فقالت: من أين تعرف ذلك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (إذا كنت عنى راضية تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت عنى غضبى قلت: لا ورب إبراهيم) قالت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوجاً). وقال ﷺ: (إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها). وقال رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع: (اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يواطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف).

وعن أنس رضي الله عنه: آل رسول الله ﷺ من نسائه وكانت انفكت رجله، فأقام فى مشربة تسعاً وعشرين ليلة ثم نزل، فقالوا: يا رسول الله آليت شهراً، فقال: (إن الشهر يكون تسعاً وعشرين). وقال جابر: عزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ثم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرَدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۗ وَإِن كُنْتُمْ تُرَدْنَ أَلَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ أَلَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۗ﴾ الأحزاب ٢٨-٢٩، فبدأ بعائشة رضى الله عنها وقال: (يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك، فقالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوى؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نساءك بالذى قلت، قال: لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها أن الله تعالى لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً).

وقالت عائشة رضى الله عنها: كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ

فقلت أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجَىٰ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُسْوَىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۚ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ الأحزاب ٥١، قلت: ما أرى ربك إلا يسرع في هواك. عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي). وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها وأحصنت فرجها وأطاعت بعلها، فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت). وقال عليه الصلاة والسلام: (لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها). وقال ﷺ: (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة). وقال رسول الله ﷺ: (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح). وفي رواية: (إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها). وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان.

٢ أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء.

وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى روى أنه كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً وسبقها في بعض الأيام، فقال عليه الصلاة والسلام: (هذه بتلك). وفي الخبر أنه كان ﷺ من أفكه الناس مع نسائه. وقالت عائشة رضی الله عنها: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقنعن منه فيسرن بهن فيلعبن معي. وقالت عائشة رضی الله عنها: سمعت أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله ﷺ: (أتحبين أن ترى لعبهن؟) قالت: قلت: نعم، فأرسل إليهم فجاؤوا، وقام رسول الله ﷺ بين البابين فوضع كفه على الباب ومد يده، ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول: (حسبك)، وأقول: اسكت، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: (يا عائشة حسبك)، فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا، فقال رسول الله ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وأطفهم بأهله). وقال عليه الصلاة والسلام: (خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي). وقال عمر رضي الله عنه مع شدته: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا

التمسوا ما عنده وجدوه رجلاً وفي الخبر: أن الله تعالى يبغض الجعظرى الجواظ. قيل: هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل في معنى قوله: (عُتِّل) قيل العتل هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله. وقال عليه الصلاة والسلام لجابر: (هلا بكَراً تلاعبها وتلاعبك).

٣ ألا ينبسط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيئته عندها.

بل يراعى الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعص. قال الحسن رضي الله عنه: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار، وقال عليه الصلاة والسلام: (تعس عبد الزوجة). وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها، فإن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً، وإن أرخيت عذارها شبراً جذبتك ذراعاً، وإن كبحتها وشدت يدك عليها في محل الشدة ملكتها. فينبغى أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن فإن كيدهن عظيم، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة، وقال عليه السلام: (مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب - والأعصم يعنى الأبيض البطن)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يفلح قوم تملكهم امرأة). فالخشونة والسياسة علاج الشر، والمطايبة والرحمة علاج الضعف، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها.

٤ الاعتدال في الغيرة.

وهو ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعننت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تتبع عورات النساء، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن من الغيرة غيرة يبغضها الله وهى غيرة الرجل على أهله من غير ريبة). لأن ذلك من سوء الظن المنهى عنه، أما الغيرة في محلها فلا بد منها وهى محمودة، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله

تعالى يغار والمؤمن يغار وغيره الله أن يأتي الرجل ما حرم عليه) وقال عليه الصلاة والسلام: (أتعجبون من غيرة سعد؟! أنا والله أغير منه، والله أغير مني). ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى، ولذلك بعث المنذرين والمبشرين. ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ولأجل ذلك وعد الجنة، وقال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة عليها السلام: (أى شئ خير للمرأة؟ قالت ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل - فضمها إليه وقال: ذرية بعضها من بعض).

٥ الاعتدال في النفقة.

فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف بل يقتصد، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف ٣١، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الإسراء ٢٩، وقال ﷺ: (دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك). ولا ينبغي أن يستأثر على أهله بمأكل طيب فلا يطعمهم منه، فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف.



الباب الرابع

الأخلاق والتخلق بأخلاق الله وأخلاق رسول الله ﷺ

إن الإنسان قابل لأن تنوع أخلاقه، وبينت ذلك في كتاب "أصول الوصول" وكتاب "معارج المقربين" وكتاب "النور المبين" وغيرها، وأقامت الحجة على ذلك فلا حاجة لإعادتها. ولما كانت الأخلاق تتغير من سيئة إلى حسنة، ومن قبيحة إلى جميلة، ومن رذيلة إلى فضيلة، كل ذلك بمجاهدة النفس وقهرها على أنواع التزكية، وتناول الأدوية المزيلة لأمراضها من يد الطبيب الروحاني، العارف الرباني، العالم بأمراض النفوس وأسقامها وعللها، الذي منحه الله حكمة الشريعة وأسرار أحكامها، وجعل له بصراً يبصر به فكان من المتوسمين، فإذا أراد الله بعبد خيراً من عليه بهذا العارف الرباني، ومنحه التسليم له، فأورده موارد الصفا، وسلك به مسالك القرب، وعلمه مما علمه الله رشداً حتى يعرف نفسه فيعرف ربه، ومتى عرف نفسه وعرف ربه، شهد من نعم الله التي لا تحصى، ومنته التي لا تستقصى، ما يجذبه بكليته إلى ربه فيحب الله حباً يشغله عن كل ما سواه ومن سواه، ويسارع إلى محاب الله ومراضيه، فيظهر له أن الله سبحانه وتعالى يجب أخلاقه القدسية وصفاته العلية التي بها القرب منه سبحانه، والوصول إليه جل جلاله فيسارع بحول من الله وقوة، لأنه عرف نفسه أنه من طين لازب، وأن ما زاد على الطين فهو فضل الله ونعماءه فيقف عند حده، معتقداً أنه من طينة أو ماء مهين، ويشهد بقية الجمال الذي جمه الله به من الله والله، ثم يشهد ما حوله من نعم أحاطت به، وأنواع سخرت له من أرض وسماوات ومعادن ونباتات وحيوانات، وما بين ذلك من ملائكة وجنات ونعيم وخيرات، كل ذلك مسخر له من الله فضلاً منه وكرماً لا لعمل عمله، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله. وهل للماء المهين في القرار المكين حول أو قوة؟ تنزه ذو الجلال والإكرام عن أن يكون لأحد عمل سواه، أو يكون لأحد نعمة أو منة غير الله تعالى المنعم المتفضل الوهاب الكريم، فيحب العبد المؤمن أخلاق الله تعالى، ويجاهد نفسه وهواه بمجاهدة قاهرة على أن يتخلق بتلك الأخلاق المحبوبة لحبيبه ومولاه، الذي من طينة أنشأه وسواه، ومن ماء مهين صوره سبحانه، وبفضله العظيم والاه، وتقوى عوامل محبته حتى تقهر بشريته وتضعف شهوته، ولديها يمكنه أن يتخلق بالأخلاق الربانية ويتشبهه

بحبيب الله ومصطفاه، ويكون من أهل معيته المحمدية الذين أثنى الله عليهم.

أخلاق الله تعالى

ليس الأمر بصعب على من يسر الله له الخير، فإن الله جل جلاله له أخلاق جمالية يعامل بها سبحانه من يحب، وأخلاق جلالية يعامل بها من يكره، سبحانه الرؤوف الرحيم الحليم الكريم المنعم المتفضل القريب المجيب الحنان المنان، وهى الأخلاق التى يعامل بها جميع خلقه فى الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا﴾ البقرة ١٢٦، ثم يختص المؤمن بهذا الفضل العظيم يوم القيامة، فاشترك المؤمن والكافر فى رحمة الله فى الدنيا لتكون له الحجة على جميع خلقه يوم القيامة، وليظهر سر قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف ١٥٦، فى الدنيا لأنها سبقت غضبه، وقد خصها للمؤمنين يوم القيامة بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ... الآية﴾ الأعراف ١٥٦، وهو سبحانه القهار المنتقم شديد البطش القوى المذل المانع الضار، وهى الأخلاق التى يعامل بها من يكره.

التخلق بأخلاق الله تعالى

فالمؤمن المتخلق بأخلاق الله يجمله الله بالرفقة والرحمة والعفو والسماح والشجاعة والكرم والعفة والحنان والعطف والود والفضل والعلم والحلم والشفقة، فيعامل بها أحباب الله أهل الحق معاملة لله، ويجمله الله بأن يجعله متصفاً بالقهر والجبروت والقوة والانتقام يعامل بها أعداء الله معاملة لله، فيضع كل خلق من أخلاق الله فى موضعه، فيكون ذليلاً متواضعاً مسكيناً لأهل الحق، مع الرفقة والرحمة والشفقة وبذل ما فى يده معاملة لله، ويكون قوياً شجاعاً شديداً مع أعداء الله، حياً فى الله وتخلقاً بأخلاق الله .. وبذلك يكون العبد متخلقاً بالأخلاق الربانية محباً لله محبوباً لله، فإذا رأيت فى نفسك هذا فاشكر الله تعالى، واعلم أن الله أورد عليك من مواهبه العلية ما لا قبل لك أن تناله ولو عمرت الدهر وصرفت أنفاسك وحركاتك فى قربات، وشتان بين ما يورده الله عليك وما تورده أنت على الله، ومن أنت يا مسكين وما عملك؟ وإنما الوارد ما يرد من الله عليك لا ما تورده أنت على مولاك، فأنت يا مسكين إن شهدت عملك أشركت بربك وكفرت بوحدة الأفعال، وإن عملك الذى تعمله

يجب أن تشهده واردةً من الله، فإنه سبحانه إن أراد يوقفك أمامه مواجهاً له في صلاتك أقامك وواجهك، وإن أحب أن تترك شهوتك له بالصوم وفقك، وإن أراد أن يجعل لسانك رطباً بذكره وقلبك مشرقاً بنوره أعانك ووهب لك، فاحذر أيها السالك أن يكون فرحك بعملك أو اعتمادك على عملك، فإن ذلك حجاب سميك حجب السالكين وأوردتهم موارد البعد عن رب العالمين. واحذر يا أخى أن تعمل عملاً لتنال حظاً عاجلاً، أو نعيماً آجلاً، فإن هؤلاء عباد الأكوان، ومكون الأكوان هو المقصود للمقربين وخيرة الأبرار من أهل اليمين.

إن للعبادة يا أخى آيات تظهر للعباد وأسرار تلوح لهم فيقفون عندها، فتكون عبادتهم حجة عليهم، ويوم القيامة يقول الله لهم: أنا خلقتكم لا لعة، ورزقتكم لا لعة ولا غرض، وصورتكم من ماء مهين، وقبل ذلك أنشأتكم من الطين، وسخرت لكم ما في السماوات وما في الأرض فضلاً منى وإحساناً عليكم، فلم جعلتم علة لعبادتي ولم تخلصوا لذاتي؟ أفى حاجة أنا إلى عبادتكم إياي؟ أما سمعتم قولى الذى أنزلته على حبيبي: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ الزمر ٣، أنا الغنى عنكم المتفضل عليكم، أخلصت لكم فضلى بلا علة، ووهبت لكم نعمتى بلا غرض، وأنتم الفقراء المضطرون إلى جنابى، كيف تشركون بى غيرى فى طاعتى وعبادتى؟! لديها والله تذوب القلوب، ويتمنى الإنسان أن يكون تراباً، لولا عواطف رحمة الرؤوف الرحيم، وواسع مغفرة التواب الكريم.

فاخلص يا أخى العبادة لوجه الله، واعلم بعد ذلك أنك لو سألته لباك، ولو ناديته لاستجاب لك وأعطاك، هو اللطيف الخبير الكريم الفاعل المختار لما يجب ويشاء ويريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.



حرص الفرقة الناجية

على التخلق بأخلاق الله وأخلاق رسول الله ﷺ

وتحملهم في نيل هذا الخير العظيم ما لا يتحملة غيرهم

الصحابة يتشبهون به ﷺ

أصحاب رسول الله هم الأئمة الذين بالتشبه بهم تكون النجاة ونيل الفلاح والرضوان الأكبر في الدنيا والآخرة، ومعلوم ما كانوا عليه قبل بعثته ﷺ من قساوة القلب، وسوء الأخلاق، وشح النفوس، وعبادة الحظ والهوى، واتباع خطوات الشيطان، مما كان راسخاً في طباعهم، منقوشاً على قلوبهم، يقتل الرجل منهم ليحافظ على أرذل رذيلة، وقد تأخذ حمية الجاهلية لكلمة يسمعا فيقتل أكثر القبيلة، حتى أكرمهم الله تعالى بإشراق تلك الشمس المحمدية، فبدلت تلك الرذائل بالفضائل، فتخلقوا بأخلاق رسول الله ﷺ، وتشبهوا به صلوات الله وسلامه عليه تشبهاً جعل كل واحد منهم صورة كاملة طبق الأصل، حتى كان الرجل منهم رضى الله عنهم يسأل عن أعماله ﷺ الخصوصية في خلوته وقضاء حاجته ونومه، وكيفية ذلك، مما لم يتمكنوا من شهوده. وبلغت بهم المحافظة على التشبه به ﷺ مبلغاً به يرون من يخالفه ﷺ ولو في حركة الجسم، أو في كيفية الأكل والشرب واللباس منافقاً - وهو مشهد أهل العزائم - ومأخذهم في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ آل عمران ٣١ وقد طالبنا الله تعالى بما طالب به رسله عليهم الصلاة والسلام في كتابه، فيرون عمله ﷺ بحسب مراتب السنة والتشبه به ﷺ واجباً أو كالواجب. لا تسأل كيف بدل الله تلك السيئات بالحسنات، وكيف رقاهاهم إلى أن صاروا مع رسل الله وأنبياء الله.. تفهم يا أخى قدر مجاهدتهم لأنفسهم وقهرهم لها على المسارعة إلى التشبه برسول الله ﷺ، وبذلم النفس والنفيس في نيل هذا المقام العلى، حتى اقتطعهم الله لذاته العلية، وأشرف بهم على قدس عزته وجبروته، وأشهدهم ملكوت السماوات والأرض مشهداً جعل الدنيا في أنفسهم كجناح البعوضة أو أقل.

السالكون يتشبهون بالصحابة

وكذلك أهل العناية من الله تعالى السالكون سبيله سبحانه وتعالى، الراغبون فيما عنده، يهب الله لهم مواهب فضله العظيم ويوردهم الله موارده الهنية، فتتجلى لهم حقيقة الدنيا الدنية، فيقهرون أنفسهم قهراً على التشبه بأصحاب رسول الله ﷺ بوجد صادق، وعزيمة ماضية، وهمة إسلامية، حتى يبدل الله سيئاتهم حسنات، فيكونون أبدال أنبياء الله عليهم السلام، وورثة لرسول الله على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ويبلغ به حرصهم على التخلق بأخلاق الله تعالى، والتشبه بأصحاب رسول الله ﷺ مبلغاً يكون السقوط في النار عند أحدهم أحب إليه من مخالفة الله سبحانه، ومخالفة رسوله ﷺ.

لا تظن يا أخى أن الإنسان يفارق بشريته، أو يخرج من حظه وهواه، فإن الهوى والشح والرأى لا تفارق الإنسان مهما كمل في نوعه وأقبل بالإخلاص على ربه، إنما هى مشاهد قدسية من عين اليقين أو علم اليقين تجعل المؤمن لا يطيع شحه (وإن دعاه موجب قاهر)، ولا يتبع هواه (وإن بعثه عليه مقتضى دافع)، ولا يعجب برأيه (وإن عظم في نفسه وعند غيره). والعبد المؤمن لا ينفك جهاده نفسه في ذات الله لأنها أعدى عدوه، ولها دسائس أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء في الليلة السوداء، ويسعر نار طبعها العدو إبليس بلمته - عليه لعنة الله - ولا يزال يجاهد غيره في الله تعالى وفي رسول الله ﷺ، لأنه مطالب بهذا الحق لكل مسلم أمام ربه جل جلاله الذى يكون قاضياً، وأمام رسول الله ﷺ الذى يكون شاهداً، فإن أهمل في ذلك كان تحت رحمة الله إن شاء رحم وغفر وهو الغفور الرحيم. ومن ظن أنه تجاوز مقام المجاهدة لنفسه ظن شراً، ولا تنتهى مجاهدة المسلم نفسه إلا عند الغرغرة (الوقت الذى لا ينفع فيه عمل)، أو إذا سلب العقل الذى به التكليف، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف ٩٩، فدواعى الشح والهوى والرأى سور من حديد محاط بكل إنسان يكاد يمزق أعضاء الإنسان إن لم ينفذ مقتضاه، لولا عصمة الله تعالى للمسلم لهوى به شحه وهواه ورأيه إلى الحطمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران ١٠١، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ آل عمران ١٠٣، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر ٩، فالرأى والهوى والشح

لوازم الإنسان، إنما القبيح فيها أن ترى شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فإذا رأيت ذلك يا أخى فى الناس فجاهد نفسك - أعانك الله - كل المجاهدة أن تفارقهم وإن كنت معاشرهم، وأن تخالفهم وإن كنت فى الظاهر توافقهم مداراة عن عرضك ونفسك.

واحذري يا أخى - أيدنى الله وإياك - أن تتخذ هواك إلهاً يعبد من دون الله، أو تجعل رأيك تعمل به دون سنة رسول الله ﷺ، أو تطيع شح نفسك مخالفاً لوصايا الله سبحانه ووصايا رسوله ﷺ، فإن ذلك هو النفاق العلمى العملى نعوذ بالله من النفاق. واعلم يا أخى - ودنى الله وإياك بوده - أن مراد الحق منك هو عين السعادة الحقيقية لك وبه نيل رضوانه الأكبر، إذا وفقك للقيام به فضلاً منه وكرماً، وإن لم يوفق الله الإنسان - نعوذ بالله من حرمان التوفيق - وعمل بهواه وشحه ورأيه، كان ذلك دليل غضب الله على الإنسان. أعوذ بوجهه الجميل من غضبه.

فابحث يا أخى - هدانى الله وإياك صراطه المستقيم - عن آثار أصحاب رسول الله ﷺ وأخلاقهم وأحوالهم وأعمالهم، وجاهد نفسك كل المجاهدة أن تتشبه بهم حتى تكون صورة كاملة ينظر الله تعالى إليك، ويقبلك رسول الله ﷺ، وتكون من أهل معيته الذين وصفهم الله وأثنى عليهم فى آخر الفتح.

التقليد فى المشاهد الروحانية كفر

وإياك يا أخى أن تقلد غير أصحاب رسول الله ﷺ، وما رأيت يا أخى من بعض الرجال الذين أكرمهم الله فى كل عصر بعد أصحاب رسول الله ﷺ، فاعتقد أنه فضل من الله خاص بمن تفضل الله به عليه، وأن العبد الصالح الذى اقتطعه الله إليه فأفناه عن نفسه وحسه، حتى سلب القوة التى بها التكليف، ليس إماماً للمتقين ولا قدوة للسالكين، ولكنها مشاهد روحانية قد تمزق غلاف القلب، فأكرم من رأيتهم بهذا الحال، وسل الله لك ولهم الكمال، ولا تقلدهم فإن تقليدهم كفر.

وقد عمت المصيبة حتى صار بعض السالكين يقلدون من غلبت محبته حتى محقت

مكانته البشرية في نظره هو، وحجبت حقيقته الآدمية، فصار لا يميز بين تعسة وشرف، وفقير وغنى، حتى استوى في نظره المؤمن والملذذ لاستغراقه في شهود الملكوت، وتقليد هذا مع التمييز والإدراك اتباع لخطوات الشيطان، وبعد عن موارد الإحسان، ومخالفة لسنة النبي المختار ﷺ.

التشبه بالمرشد الكامل

فعليك يا أخى - منحني الله وإياك المسارعة إلى مغفرة من الله ورضوان - أن تبذل ما في وسعك في البحث عن الرجل الدال على الله الموصل إلى حظيرة القدس، المبين لسبيل الله الممد من روحانية رسول الله، العارف الرباني، الإنسان الكامل في ظاهره وباطنه، الذي هو محل نظر الله من خلق الله، فإذا ظفرت به فاحرص على التشبه به بقدر استطاعتك، وتجسس يا أخى بكل ما في وسعك عنه في سره وعلانيته، وتحسس عنه يا أخى في جلوته وخلوته، ونافس يا أخى في أن تكون صورة كاملة له، فإن من الله عليك بعظيم فضله، وسقائك ظهوره المقدس في الوادى المقدس في مقام تكون معه ويكون سبحانه معك، فجاهد نفسك أكبر المجاهدة في ذات الله لتكون أنت حقيقة الرجل، حتى تفنى فيه فناء تكون أنت هو، ولديها يا أخى تكون كوكباً مضيئاً في سبيل الدلالة، ونوراً مشرقاً في سبيل الهداية. وقبل أن تصل إلى هذا المقام فاجعل كل همتك في مجاهدة نفسك، فإنها والله يا أخى أعدى عدوك وأكبر خصومك، فإذا تخلقت بأخلاق الله وتشبهت برسول الله ﷺ فجاهدها كل المجاهدة على شكر نعمي الله التي لا تحصى، وأكثر من السجود في جوف الليل، ومن المسارعة إلى نفع إخوتك المؤمنين بنفسك ومالك وجاهك إن استطعت وأعانك الله، أو بفضلها على قدر استطاعتك.. أعانني الله وإياك يا أخى بروح منه.

أحوال المريد السالك بعد التشبه

ومتى تخلقت بأخلاق الله وتحملت بالتشبه برسول الله ﷺ كنت مع الله وكان الله معك، فجبر كسر قلبك، وجعله بيتاً معموراً به سبحانه، فتشرق أنواره القدسية من منافذ هيكل ذاتك الإنسانية، فيجعل الله لك يا أخى نوراً في لسانك، وفي عينيك، وفي أذنيك، وفي يديك،

وفي رجليك، وفي أنفك، وفي بطنك، وفي فرجك، ثم يجعلك كلك نوراً، فتكون كما قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَتَرَوْهُ وَجْهَ اللَّهِ﴾ البقرة ١١٥، وكما قال سبحانه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى أن قال ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ النور ٣٥، فيواجهه النور الإلهي الحقى النور العبدى الحقى كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢-٢٣، وفي هذا المقام تقوم قيامة العبد المؤمن وهو حى يمشى فى الناس كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢، وكيف لا والعبد تخلق بأخلاق ربه، وتعمل بجمال التشبه بحبيبه ومصطفاه. هذا العبد والله هو الشمس التى تضىء ملكوت الله الأعلى، والنور الذى تستمد منه الملائكة الكرام، وصورة الرحمن وآية البيان. فسارع يا أخى إلى تلك المقامات العلية، ولا تحجبك عنها حظوظ نفسك الدنية وزينة تلك الدار الفانية، فإنها هى الحجب الظلمانية، عصمنى الله وإياك يا أخى من الناس، وأعاذنى وإياك من الوسواس الخناس، وفتح لى ولك أبواب فضله العظيم وأعاذنى وإياك بوجهه الكريم من موجب النقم، إنه مجيب الدعاء.

تم بحمد الله



الفهرس

٥	مقدمة الكتاب
		الباب الأول
٧	الفرقة الناجية
		الفصل الأول
٧	أنس وتخلق أهل الفرقة الناجية
٧	أنسهم بالقرآن المجيد
٧	مراتب الهداية
٩	أهل القرآن ومنزلتهم
١٠	تخلقهم رضى الله عنهم بالقرآن
١٠	ما يجب على تالى القرآن
١١	الحضور الكلى لحاملى القرآن
١٤	ما أحب أن يكون عليه إخوانى فى التلاوة
١٥	وأحب أن تكون تلاوة القرآن ملاحظاً فيها معان ثلاثة
١٥	أعمال الغافلين
١٦	عمل الناس فى أحزانهم وأفراحهم
١٦	القراءة فى الأفراح والأحزان
١٧	قراءة المولد والمدائح النبوية
١٧	ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن
١٨	ليس كل قارئ للقرآن يكاشف بمشاهده وأسراره
١٨	صفات القارئ المكاشف بأسرار القرآن ومشاهده

الفصل الثاني

- ١٩ لم يزور أهل الفرقة الناجية قبور أولياء الله الصالحين؟
- ١٩ زيارة القبور
- ٢٠ تفاوت سكان القبور
- ٢٠ زيارة قبور الأنبياء والرد على منكرها
- ٢١ زيارة قبور الأنبياء والأولياء مرغوب فيها
- ٢٢ أسباب إنكار الجاهلدين بالسنة لزيارة القبور
- ٢٢ الرسول وخلفاؤه يزورون قباء وشهداء أحد

الباب الثاني

- ٢٤ صفات أهل الفرقة الناجية

الفصل الأول

- ٢٥ أهل الفرقة الناجية هم التائبون
- ٢٥ التوبة عند أهل الفرقة الناجية
- ٢٦ ما قاله أهل المعرفة في التوبة
- ٢٦ شروط التوبة الصحيحة
- ٢٧ أقوال العلماء في التوبة والتائبين
- ٢٨ الخصال التي على العبد في التوبة
- ٢٩ من علامة صدق التوبة وتحققها
- ٣٢ التائب المذنب بتوبته
- ٣٤ التوبة عمل من أعمال القلوب والجوارح
- ٣٤ المفرقون للأمة
- ٣٦ حرصهم على مشابهة الرسول ﷺ وأصحابه

٣٦	المشهد الأول
٣٦	المشهد الثاني
٣٦	المشهد الثالث
٣٦	المشهد الرابع
٣٦	المقامات

الفصل الثاني

٣٨	أهل الفرقة الناجية هم العابدون
٣٨	العبادة عند أهل الفرقة الناجية
٤١	العابدون من أهل الفرقة الناجية
٤٤	الآيات التي أسسوا عليها طريقهم في العبادة
٤٤	الآيات التي أخذوا منها أورادهم بالليل والنهار
٤٥	بعض ما ورد من الأحاديث في هذا الموضوع
٤٥	عباداتهم التي استنبطوها في اليوم واللييلة
٤٧	أذكارهم بعد صلاة الصبح
٤٨	أدعيتهم المختارة بعد صلاة الصبح
٥٠	أعمالهم بعد صلاة الغداة
٥٣	ذكر أورادهم النهارية وهي سبعة أوراد
٥٣	الورد الأول
٥٤	الورد الثاني
٥٦	الورد الثالث
٥٦	الورد الرابع
٥٧	الورد الخامس

٥٩	الورد السادس
٥٩	الورد السابع
٦٢	ذكر أورادهم الليلية وهي خمسة أوراد
٦٢	الورد الأول
٦٣	الورد الثانى
٦٥	الورد الثالث
٦٥	الورد الرابع
٦٥	الورد الخامس
٦٧	ذكر وقت الفجر وحكم ركعتيه وحكم الوتر

الفصل الثالث

٦٨	أهل الفرقة الناجية هم الحامدون
٦٨	الحمد عند أهل الفرقة الناجية
٦٩	التوحيد الحقى ولبه
٧١	الحامدون من أهل الفرقة الناجية
٧٥	تراجم بعض الحامدين
٧٥	سعد بن معاذ بن نيمان
٧٦	سلمان الفارسى
٧٨	أنس بن مالك
٨٠	أبو ذر الغفارى
٨٣	أبو ذر إمام أهل التصوف
٨٥	أبو هريرة الدوسى
٨٩	أبو الدرداء الأنصارى

الفصل الرابع

- ٩١ أهل الفرقة الناجية هم السائحون
- ٩١ السياحة عند أهل الفرقة الناجية
- ٩١ أحكام السياحة وأقسامها
- ٩٢ أنواع السياحة
- ٩٣ لماذا لم يتكلم السابقون في أسرار السياحة؟
- ٩٤ ما دعانى إلى بيان تلك الأسرار
- ٩٤ أئمة السائحين
- ٩٤ مشاهد الأنبياء ودرجاتهم في السياحة
- ٩٧ الأمة المحمدية تجملت بما تجمل به الرسل السابقون
- ٩٧ من هم أهل السياحة
- ١٠٠ كيف خرجوا
- ١٠١ ما وقع لأبى بكر من الآذى
- ١٠٢ بعض ما حصل لهم من أذية المشركين
- ١٠٣ تعذيب المستضعفين من المسلمين
- ١٠٣ بلال بن رباح
- ١٠٤ عبد الله بن مسعود
- ١٠٤ عمار بن ياسر
- ١٠٥ خباب بن الأرت
- ١٠٦ صهيب بن سنان الرومى
- ١٠٦ عامر بن فهيرة
- ١٠٦ أبو فكيهة

١٠٧ من النساء السائحات

١٠٧ أبو جهل عدو السائحين

الفصل الخامس

١٠٨ أهل الفرقة الناجية هم الراكعون الساجدون

١٠٨ الركوع و السجود

١٠٩ فضيلة إتمام الأركان

١١٠ فضيلة السجود

١١١ من تمام الصلاة

١١٤ من أسرار أهل الفرقة الناجية في إقامة الصلاة

١١٥ معاني الصلاة عند أهل الفرقة الناجية

١١٦ الصلاة عند مشايخ الصوفية

١١٦ الصلاة عندي

١١٧ الراكعون الساجدون من أهل الفرقة الناجية

الفصل السابع

١٢٠ أهل الفرقة الناجية هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر

١٢٠ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أهل الفرقة الناجية

١٢٣ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٢٣ أولاً: الآيات

١٢٣ ثانياً الأخبار

١٢٤ ثالثاً الآثار

١٢٥ أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٢٥ الركن الأول المحتسب

١٢٥	الركن الثاني ما فيه الحسبة
١٢٦	الركن الثالث المحتسب عليه
١٢٦	الركن الرابع نفس الاحتساب
١٢٦	للاحتساب آداب ودرجات
١٢٧	آداب الاحتساب هي
١٢٨	أهل الفرقة الناجية ينصحون الحكام
١٢٨	عطاء بن أبي رباح
١٢٨	الحسن البصرى
١٢٩	الأوزاعى
١٣٣	سفيان الثورى
١٣٥	أبو الحسين النورى
١٣٦	بين السلف والخلف

الفصل السابع

١٣٨	أهل الفرقة الناجية هم المحافظون لحدود الله
١٣٩	إقامة حدود الله
١٤١	من الذى يقيم حدود الله ويقوم بشعائر الله؟
١٤١	أولاً: الفرد المسلم
١٤٢	ثانياً: السلطان
١٤٣	ثالثاً: المجتمع
١٤٤	من أسرار الفرقة الناجية فى حفظ حدود الله
١٤٦	البشرى لأهل الفرقة الناجية
١٤٦	أولاً: البشرى

١٤٦ ثانياً: البشير

١٤٧ ثالثاً: المبشرون

الباب الثالث

١٤٨ آداب الفرقة الناجية

الفصل الأول

١٤٨ آداب الفرقة الناجية في شبابهم

١٤٨ العناية الإلهية

١٤٩ أنواع تلك العناية

١٥٠ معاني النهايات

١٥٠ الشباب عناية الله

١٥١ أكمل الآداب في مرحلة الشباب

الفصل الثاني

١٥٢ آداب الفرقة الناجية في مساجدهم

١٥٣ آداب المسجد الخاص

١٥٣ الخلوة في المسجد الخاص

١٥٤ من المأثور في آداب المسجد الخاص

١٥٥ آداب المسجد العام

١٥٦ آداب دخول المسجد والجلوس فيه

١٥٧ آداب صلاة الجمعة

الفصل الثالث

١٥٨ آداب الفرقة الناجية في الخلوة

١٥٨	الخلوة مع الرب سبحانه
١٥٩	الخلوة بالنفس
١٦١	آداب الخلوة بالنفس
١٦٢	الآداب العمومية لأهل الخلوة بأنفسهم

الفصل الرابع

١٦٦	آداب الفرقة الناجية في سفرهم
-----	-------	------------------------------

الفصل الخامس

١٦٩	آداب الفرقة الناجية في المجالسة
١٧٠	آداب حسن المجالسة
١٧٣	المجالس التي ابتدعها الناس
١٧٥	من المأثور عن آداب المجالسة
١٧٦	أهل الفرقة الناجية من الصوفية

الفصل السادس

١٧٩	آداب الفرقة الناجية مع العمال
-----	-------	-------------------------------

الفصل السابع

١٨١	آداب الفرقة الناجية في صلة الرحم
-----	-------	----------------------------------

الفصل الثامن

١٨٢	آداب الفرقة الناجية مع الوالدين
١٨٣	آداب بر الوالدين في حياتهما
١٨٥	آداب بر الوالدين بعد موتهما
١٨٨	نصيحة للأبناء

الفصل التاسع

آداب الفرقة الناجية مع الزوجة ١٩٠

الباب الرابع

الأخلاق والتخلق بأخلاق الله تعالى وأخلاق رسوله ﷺ ١٩٥

أخلاق الله تعالى ١٩٦

التخلق بأخلاق الله تعالى ١٩٦

حرصهم على التخلق بأخلاق الله وأخلاق رسوله ﷺ ١٩٨

الصحابة يتشبهون به ﷺ ١٩٨

السالكون يتشبهون بالصحابة ١٩٩

التقليد في المشاهد الروحانية كفر ٢٠٠

التشبه بالمرشد الكامل ٢٠١

أحوال المرید السالك بعد التشبه ٢٠١

الفهرس ٢٠٣

